بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة أمدرمان الإسلامية

كلية الدراسات العربية

قسم الدراسات الأدبية والفنية

الصحراء في الشعر الجاهلي

بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه في الأدب والنقد

إعداد الطالب :

محمد صديق حسن عبد الوهاب

إشراف الدكتور :

عبد الرحمن عطا المنان

٢٠٠٧م – ٢٠٠٨م

١٤٢٨ هـ - ١٤٢٩ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

استـهلال

قال تعالى:(لسَانُ الذي يُلحِدُون إليه أعجميّ وهذا لسان عربي مبين) (١)

ويقول تعالى (وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهار ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون)(٢)

صدق الله العظيم

١ سورة النحل الآية (١٠٣)

٢/ سورة الرعد الآية (٣)

إهداء

إلى والدي العزيزين الذين سهلا لي الطريق وغرسا في محبة العلم والمعرفة.

إلى اللذين قال الله تعالى فيهما (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر احدهما أو كلامها فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما) (١)

إلى أهلي وعشيرتي جميعا،إلى من كادوا يكونون رسلا أساتذتي الأجلاء .

إلى حملة مشاعل العلم والمعرفة تقديرا لهم .

إلى كل هولاء أهدي مجهودي المتواضع .

١/ سورة الإسراء الآية (٢٣).

شكر وعرفان

يقول تعالي : (لئن شكرتم لأزيدنكم)(١)

الشكر أولا وأخيرا لله رب العزة والجلالة الذي هداني لهذا وسهل لي طريق العلم وارتياده وبعده أتقدم بوافر الشكر والتقدير والعرفان لفضيلة الأستاذ الدكتور عبدا لرحمن محمد، مثال الصدق والصبر والتواضع وبحر العلم الذي أشرف على هذا البحث. فقد كان نعم المعين والموجه والمشرف نسأل الله له الصحة وأن يجعل ذلك في ميزان حسناته.

كما أخص بالشكر أسرتي وعشيرتي التي ضحت من أجلي وأفسحت لي الطريق والشكر أجزله للأخوين الكريمين الجليلين الأخ صديق خالد، والأخ العوض عبدا لله صديق اللذين سهلا لي كثيرا من الصعاب.

والشكر ايضا لجامعة أم درمان الإسلامية الصرح الشامخ للعلم والمعرفة .

والشكر لكل من ساعدني .

الباحث

١/ سورة إبراهيم من الآية (٧)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

الحمد لله حمداً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، وأصلي وأسلم على حبيبنا محمدﷺ صلاة وتسليماً تنفك بهما العقد وتنفرج بهما الكرب، وتنقضي بهما الحوائج، وتنال بهما الرغائب وحسن الخواتم، فقد دلل القرآن على كل مظاهر الحياة ومخلوقاته تعالى، يقول عزّ وجل:﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ * وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾[1]. ويقول جل شأنه: ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2]. صدق الله العظيم.

ما أنبل وأجل التفكير في مخلوقات الله تعالى، ومنها تلك الصحراء الممتدة وهي إحدى مخلوقاته تعالى، فقد أثرت صحراء الجزيرة العربية في الحياة العربية على وجه العموم والحياة الأدبية والفكرية على وجه الخصوص. فهي الرحم الذي ولدت ونشأت وترعرعت فيه اللغة العربية التي حملت فكر وأدب وحياة وطبيعة الصحراء فصاغتها في قوالب بلاغية وفكرية فصيحة ورصينة وجزلة. والصحراء العربية أيضاً ميقات مكاني لمهبط وحي الرسالات والرسالة الخاتمة.

أمدت الطبيعة الصحراوية خيال العربي بالمادة التي صنع منها صوره وأخيلته ومعانيه في جميع أغراض شعره فأعارته الواقعية وطبعت فيه الصراحة والوضوح والصفاء والقوة والجمال وحب الأرض، وملأت جوانب ومسارح خياله وسمعه وفؤاده وبصره فكراً ودهاءً وعبقرية فذة.

إن الشاعر البدوي الذي عاش في العصر الجاهلي في تلك البقاع الممتدة قوي التفكير بعيد النظر، واستطاع أن يصور الصحراء في كل مراحلها ونظمها وأن يربط بين الجزئيات المكونة لمفرداتها وتكاملها، وينظر للكون نظرة شمولية، ويحس بوحدة الحياة وتكاملها لأنه واسع الفكر والرؤية وتمثل ذلك في أشعاره،

(١) سورة الحجر، الآيتان١٩-٢٠.

(٢) سورة الرعد الآية ٣.

فالصحراء أمامه وحدات مختلفة، فيها الجبل والكثيب والوادي والحيوان والسماء ومن ثم ربط بين هذه الأشياء وتعمق في أسرار الوجود فقد كان يرى في المطر معاني الحياة والغبطة، فجاءت أدق بصيرة وأنفذ فكراً، وأوفى تصوراً، وأثرت تلك البيئة في سلوكيات وانفعالات وقيم وطرائف تفكير البدوي وتناوله للقيم المتوارثة فتقوم حياته على التنافس والعنف والقسوة، ولذلك كانت القوة في كل صورها هي المثل الأعلى الذي آمن به العربي في الصحراء، وحرص عليه ليضمن بقاءه فيها كما كانت القبيلة عندهم هي الشجاعة والإقدام والكرم ودرء المخاطر، فالصحراء تتشابه في شكلها وربوعها وامتدادها كتشابه فكر وعقلية البدوي. يقول عنترة بن شداد(١) في هذا المعنى:

هل غادر الشعراء من متردم * أم هل عرفت الدار بعد توهم(٢)**

فما أشبه قصائدهم وأشعارهم في تصوير فضاء الصحراء الواسع الممتد المترامي الأطراف وتلك الفيافي التي تضم في حضنها مناظر وصور متباعدة الشكل والمدلول، ترى الوديان والسهول والجبال والرمال والحيوان المستأنس وغير المستأنس والسهول، فتأتي افتتاحية القصيدة معبرة عما يتراءى أمام بصر الشاعر.

لم تقتصر أهمية الصحراء في الشعر العربي على كثرة الأسماء والصفات الخاصة بها بل تجاوزها إلى مفردات وألفاظ ومعاني ودلالات تدل عليها حتى شملت معانيه وإيقاعه وأخيلته وهذا يدل على مدى تأثيرها في الحياة عامة.

ومن هذا المفهوم وما تحدثنا عنه من جوانب لهذه البيئة الغنية بمضامينها ومعانيها رأى الباحث أن هذا الموضوع جدير بالبحث والعناية فجاء الموضوع بعنوان "الصحراء في الشعر الجاهلي". هذا الموضوع الذي حمل الشعر العربي صوره ومؤثراته.

---

(١) عنترة: هو عنترة بن شداد وقيل أبو عمرو بن شداد ويلقب بعنترة الفلحاء وهو احد فرسان العرب المشهورين واجوادهم المعروفين من بني عبس وكان أبوه نفاه واستبعده على عادة العرب مع أبناء الإماء أحب ابنة عمه عبله وقال فيها شعراً ـــ أنظر ديوان عنترة بن شداد دار الكتب العلمية بيروت لبنان الطبعة الثالثة ٢٠٠٢م ص٥ .

(٢) ديوان عنترة بن شداد طبعة دار الكتب العلمية بيروت لبنان الطبعة الثالثة ٢٠٠٢م ص١١٧ .

أسباب اختيار الموضوع:

١- أن الصحراء هي أساس فكر وفهم وإدراك وخيال وميلاد وترعرع ونمو وبداية خطوات الشعر العربي في العصر الجاهلي حتى قويت شوكته.

٢- أن الشعر العربي الجاهلي يحمل لغة ولون ورائحة وذوق وسمات وأثر الطابع البدوي في البيئة الصحراوية وصفاتها.

٣- الوقوف على مكنونات وخبايا وأسباب قوة وجزالة وتصوير الشعر البدوي الجاهلي في الصحراء وموضوعاته الفنية المتنوعة ولغته الرفيعة وكيف أن البدوي امتلك عنان عبقرية الشعر والذي تخرج من مدرسة الصحراء وقد منحته هذا التفكير العميق دون وجود وسائل تعليم .

٤- بروز مكونات ومؤثرات الصحراء وطفوح مفرداتها على ثنايا القصيدة العربية.

٥- لم أجد هناك دراسة منفصلة عن الصحراء وأثرها في التشكيل الأدبي والحياة العامة وبروزه بهذه الصورة الواضحة.

٦- أن الشعر الجاهلي في الصحراء ما زال يحمل إلينا من السمات والمميزات ما يؤكد أصالة الشعور فيه والتعبير على السواء.

٧- على الرغم من كثرة الدراسات التي قامت حول الشعر العربي واهتمام الباحثين به ما زالت هناك جوانب متعددة في حاجة إلى مزيد من الدراسة لسر قوة الشعر الجاهلي وتوضيح وكشف ما غمض منه وما حجب الرؤية ورد البصر.

٨- بروز أثر المكان في الشعر الجاهلي بصورة واضحة من خلال تناوله لكثير من الموضوعات الشعرية .

وحين تناول الباحث هذا الموضوع كان واضحاً إليه تمام الوضوح تلك الدراسات التي تنقلت في أشعار الجاهليين من صور بيانية وفنية، أو تلك المؤلفات الكثيرة المختلفة والمؤتلفة في كثير من الأحيان، والتباين في عدد المعلقات السبع أو العشر التي حملت جوانب متفرقة من حياتهم، فكل ذلك يشكل رؤى متباينة حول الأدب الجاهلي.

ولذا كان لابد من الخروج بمفهوم يراعي ذلــك التبــاين ويصــل لجــوهر الموضوع برؤية واضحة.

فقد اتبع الباحث في هذه الدراسة أكثر من منهج من مناهج البحث ممــا رآه يحقق الغاية وهو المنهج التكاملي، فقد أخذ بــالمنهج التــاريخي للوصــول للبيئــة الاجتماعية والأدبية والفكرية والمكانية للصــحراء، واســتعان بــالمنهج الوصــفي للوقوف على جوانب الحياة العامة وطبيعة ومناخ البيئة الصحراوية ووصــفها، ثــم تناول البحث الجانب النفسي للشاعر البدوي من خلال عرض بعض أشعارهم، كما تناول المنهج التطبيقي لأشعارهم في الصحراء، ومدى دلالة ما تناولناه من رؤى في جوانب طبيعتها الجغرافية والمناخية وغيرها.

وقد اعتمد الباحث في جمع هذه المادة وتوظيفها علــى عــدد مــن دواويــن الشعراء الجاهليين وغيرهم التي تدلل وتحقق الغرض وعلى عــدد مــن المصــادر والمراجع ذات الصلة بالموضوع التي تخدم منهج البحث.

هيكل البحث:

قُسمت هذا البحث إلى أبواب وكل باب إلى فصول وبعــض الفصــول إلــى مباحث ، بدأ بإهداء وشكر وعرفان ثم مقدمة تم فيها عرض أسباب اختيار البحــث وخطة البحث يليها تمهيد تناول البيئة الصحراوية طبيعتها ومناخها، ومــا اشــتملت عليه من مكونات ومفردات شكلت ملامح البيئة لصحراوية وأثرهــا علــى طبيعــة الحياة فيها.

فأما الباب الأول فمعني بمدلول وطبيعة الصحراء وأهميتها. والثــاني تنــاول الحياة الاجتماعية في الصحراء. أما الباب الثالث تناول طبيعة الصحراء في الشعر الجاهلي ومكوناتها.أما الباب الرابع تناول مظاهر الصحراء في الخصائص الفنيــة للشعر الجاهلي واختتمت البحث بخاتمة توصلت فيها إلى أهم النتــائج والتوصــيات وفهرست يوضح محتويات البحث وفهرست للموضوعات مستعيناً في ذلك بجملــة من المصادر والمراجع ذات الصلة بموضوع البحث . هذا ولا يفوتني أن أشكر كل من أعان وأسهم في هذا البحث وتقويمه الممثل في لجنة المناقشة والحكم والشكر لله من قبل ومن بعد .

وفي النهاية يكون دائماً في الذاكرة قول العماد الأصفهاني "إني رأيت ألا يكتب إنسان كتاباً تاماً في يومه إلا قال في غده لو غير هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يستحسن، ولو قُدّم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهـذا دليـل علـى استيلاء النقص على جملة البشر".

وهذه الدراسة بقدر ما يطمع فيها أن يصل إلى النتائج كان طمعـه فيهـا أن تكون بين يدي الدارسين للاستفادة ومزيد من البحث والإضافة وفتح طريق في هذا المنحى.

والله المستعان وهو يهدي السبيل

الباحث

تمهيد:

إن الاهتمام بالمكان أصبح له أهميته فارتبط بعالمية الأدب وهو أحد أسباب الوصول للعمل الأدبي تأثيره وتأثره وهو طريقة لرؤية النص الأدبي من الداخل والخارج معاً فهو أكثر استيعاباً لمعاني النص وفنيته ولذا جاء الحديث عن الصحراء في الشعر الجاهلي يمجد المكان ويحمل صفاته وسماته فأتت الأوصاف التي تصور البيئة الحية والجامدة في الصحراء، ولذلك جاء حديث الشاعر عنها متمكناً من مكانتها محتوياً لها وهو لا يكون إلا لمن ارتبط بها ارتباطاً وثيقاً وعايشها معايشة حية قريبة جعلته قادراً على فهم طبيعتها فكانت الصحراء ملهمة للشعراء العرب القدماء منهم واللاحقين حيث فجرت فيهم ينابيع الشعر والفصاحة على ألسنتهم وهم الذين عاشوا في أكنافها واستظلوا بظلها وجاسوا مرابعها، ولذا جاء إحساسهم بها إحساساً صادقاً وزاوجوا بين حبهم للصحراء وحبهم للمرأة فجعلوا الحديث مدخلاً في كثير من أشعارهم وصفاً لمشاعرهم وأحاسيسهم تجاه المرأة التي سكنته فكان الحديث عن الطلل الذي تميزت به مقدمة القصيدة الصحراوية الجاهلية فقد سكن العرب في جاهليتهم في أرض واسعة ذات بقاع متباينة تختلف بيئاتها الطبيعية اختلافاً يكاد يجعل كل منها مواطن متعددة .

وأما صحراء الجزيرة العربية وهي المعنية في هذا البحث والتي تقع في الجنوب الغربي من قارة آسيا وسميت جزيرة "لإحاطة البحار والأنهار بها من كل جوانبها "ويرى علماء الجيولوجيا أنها كانت قسماً من أفريقيا الشرقية فحدثت في العصور الجيولوجية المتأخرة سلسلة من الحركات الأرضية أدت إلى تكوين الأخدود الذي يشكل البحر الأحمر وخليج السويس وبذلك انفصلت جزيرة العرب عن قارة أفريقيا[(١)].

فالصحراء بها كثير من التضاريس السهلية والرملية والجبلية (فتخترق جزيرة العرب سلسلة جبال السراة الحجازية للساحل الغربي من الشمال إلى الجنوب مكونة انحداراً شديداً نحو الغرب وخفيفاً تدريجياً نحو الشرق وتسمى المنطقة

---

(١) الطبيعة في الشعر الجاهلي، د نوري حمودي القيسي، طبعة مكتبة النهضة العربية، الطبعة الثانية، ١٩٨٤م، ص ١٣.

الساحلية تهامة ، وقد تذكر مضافة إلى القسم الذي تحاذيه فيقال تهامة اليمن وتهامة الحجاز، وتضيق هذه المنطقة وتتسع في أماكن معينة حتى يصل عرضها في بعض الأحيان إلى الأربعين أو الخمسين ميلاً، وتسمى الغور لانخفاض أرضها)(١).

فالصحراء العربية تتوسط جزيرة العرب وفي أطرافها بعض المناطق الحضرية كالشام والعراق واليمن وحضرموت والبحرين وعمان والمناخ الصحراوي تغلب عليه قلة الأمطار والجفاف أحياناً كثيرة وبذا أفرز بعض المكونات البيئية، كالجفاف والترحال والهجرة والمجاعة، والحرب والحر الشديد، والبرودة الشديدة، ونبتت بها بعض الأشجار والأعشاب والحشائش التي تتحمل العطش، فتخضر الأرض في فصل الشتاء فترتدي غطاء أخضر من العشب عند نزول الأمطار بها وفيما عداها من الفصول تصبح جدباء كما ورد في أشعارهم وكذلك في قصة سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام عندما أنزل هو وذريته في صحراء الجزيرة العربية فقد كانت خالية لا ماء فيها ولا ضرع كما جاء في قوله تعالى على لسان إبراهيم الخليل: ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾(٢).

فحياة الصحراء اتسمت بعدد من السمات التي ميزتها عن حياة الحضر، فالبيئة الصحراوية كان لها أثرها ولونها بل أثرت في حياة الناس وتناولوها في أشعارهم معبرة عن مواقفهم وحياتهم وسلوكياتهم وتطلعاتهم وخيالهم وأحلامهم.

يصف الأعشى(٣) جزئية من صورة الصحراء بقوله:

وبلدةٍ يرهب الجوّاب دلجتها * حتى تراه عليها يبتغي الشيعا**

---

(١)الطبيعة في الشعر الجاهلي، د نوري حمودي القيسي، طبعة مكتبة النهضة العربية، الطبعة الثانية، ، ص ١٤.

(٢) سورة إبراهيم الآية ٣٧.

(٣) الأعشى هو ميمون بن قيس بن جندل بن شرحبيل بن عوف بن سعد المعروف بأعشى قيس ويقال له أعشى بكر بن وائل والأعشى الكبير (أبو بصير) من شعراء الجاهلية وأحد أصحاب المعلقات ولد في قرية منفوحة باليمامة قرب مدينة الرياض ووفد على كثير من الملوك ولا سيما ملوك فارس ولذلك كثرة الألفاظ الفارسية في شعره أدرك الإسلام ولم يسلم وعمي في آخر عمره وتوفي في منفوحة سنة ٧هـ من آثاره ديوان شعر ــ أنظر معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية عمر رضا كحالة، ط ١ بيروت مؤسسة الرسالة ١٩٩٣م، ج٣، ص٩٤٩.

لا يسمع المرء فيها ما يؤنسه * بالليل إلا نئـيم البـوم والضـوعا**
كلفت مجهولها نفسي وشايعني * همّي عليها إذا ما آلهـا لمعـا**[1]

ولعل الشعر كان وسيلة التعبير في الحياة البدوية في الصحراء، وهو يمثل الصورة والكتابة للتاريخ والجغرافيا ويمثل النقل الحي لكل مظاهر الحياة، فالشـعر عكـس إبداعهم وفكرهم وأخلاقهم ورؤيتهم للحياة ووسائل حياتهم وإحساسهم بالجمال والقبح وعلو الهمة والفخر والاعتزاز بالنفس وسمو الروح ومظاهر الحياة الاجتماعية لديهم وكل أغراض الشعر ولذلك نشأ الشعر العربي في هـذه البيئـة الخصـيبة بـالفكر والإبداع والوضوح والجمال .

فالصحراء ملأت على البدوي قلبه ونفسه وكيانه وتفكيره وعاطفتـه وخيالـه فكان نتاج ثمرة ذلك أشعارهم التي بين أيدينا وأعطته حضور البديهة والذكاء اللماح ولذا جاء أدبه أدب السليقة والبديهة ينزع الوضوح والإيجاز في المعنـى، وتغنـى البدوي بالصحراء رغم ما بها من شدة فأجاد في وصفها لما فيها من جمـال فكـان الجمال في الإنسان والنبات والماء والكواكب والسماء والجبل الأشم والصخر وفـي الصحراء الموحشة، والجمال ماثل في كل خلق من مخلوقات الله تعـالى فجاشـت نفسه بكلام يحمل صفاء ونقاء قريحة الإنسان البدوي الذي حمـل تراثـه العريـق وتقاليده الأصيلة في كل منزل نزل به ومن كل موطن استقر به فانطلق الشعر يملأ آفاق الصحراء فكأن هذه البيئة الصحراوية منحته سراً من أسرارها قبل أن يرحـل في صدور الرجال وقوافل الرواة.

(والبدوي في الصحراء هو أقدم من الحضري وسابق عليه وأن البادية أصل العمران والأمصار مدد لها لأن البدو هم المقتصرون على الضروري في أحـوالهم

---

[1] ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس، شرح وتعليق الدكتور محمد محمد حسـين ، دار النهضـة العربيـة للطباعة والنشر ١٩٧٢م ، ص٩٩، الجواب: الكثير الأسفار،الشيع: المعين أو المشجع، النيئم: صوت الضـوع، الضوع: طائر ليلي كالغراب .

العاجزون عما فوقه، وأن الحضر الموصوفون بحاجات الترف والكمال في أحوالهم وعوائدهم وحوائجهم)[١].

ونجد البدو هم الجزء الأكبر في شبه الجزيـرة العربيـة الـذين يسـكنون الصحراء، وكونت البيئة الصـحراوية حـالتهم الاجتماعيـة فـاحتقروا الصـناعة والزراعة وعاشوا تحت الخيام على رعي الأغنام يطعمـون مـن لحمهـا ولبنهـا ويكتسون بصوفها ووبرها ويبتغون مواقع المطر يرحلون من مكان إلى آخـر فـي طلب الكلأ والماء، وإذا احتاجوا إلى غير ما تنتجه ماشيتهم تعاملوا من طريق البدل فاستبدلوا بالماشية ونتاجها وما يتطلبون من تمر ولباس ولجأوا إلى الغزو والسـلب إن عضتهم الحاجة أو دعاهم طلب الثأر[٢].

برزت الطبيعة الصحراوية في الأدب العربي وما اشتملت عليه من رمـوز ودلالات في البيئة الجامدة منها مثل الصخور والرمال والسهول والجبال والوديـان أو المتحركة كالحيوان الأنيس كالإبل والفرس، والمتوحش منها والطيور بأنواعها أو الأمطار والأنواء وكل ما يحيط به فكانت الملكة التشبيهية لدى الشاعر الذي عبـر عنها في بيئته فكان لها دور في إثراء الشعر العربي بكثير من المعاني والمفـردات والأفكار والألفاظ المستوحاة من البيئة بل التفكير العميق في الحياة، فأتـت فكـرة الموت والفناء كنتاج طبيعي لواقع الحياة والأثر النفسي الذي فرضته طبيعة الحيـاة الاجتماعية والاقتصادية والبيئية، وما تشربه الشاعر من خلال حله وترحاله ونمطه الاجتماعي الذي ولد نتيجة ذلك.

فالحياة الاجتماعية تطلبت منه العيش في مجموعات وبذلك تشـكلت القبيلـة التي أصبحت واقعاً كسراً للوحشة وسلواناً للسائر والقاطن، وزوداً عـن الحيـاض وتماسكاً في وجه الحياة وتعاوناً وتذليلاً لنصب الحياة، وإكراماً للضـيف، وعونـاً للفقير وإغاثة للملهوف، وإجارة للضعيف، وتماسكاً للأسرة بل ودفئاً نفسياً وشـعوراً بالطمأنية، فالقبيلة حلقة انبثقت منها حلقات خُلقية وصفات كريمة وجليلة كثيرة لكـن

---

(١) بلوغ الإرب في معرفة أحوال العرب، تأليف السيد محمد شكري الألوسي، عنى بشرحه وتصحيحه وضبطه محمد بهجة الأثري، الجزء الثالث، طبعة دار الفكر العالمية، ص ٤٣٤.

(٢) تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري، طبعة بيروت، لبنان بدون ،ص ١٥.

على الرغم من ذلك كانت هناك الحروب والثأرات والحمية القبلية العصبية بين القبائل والعشائر لإثبات الذات وكسباً للعيش فحركة حياة الصحراء الظعن والرحلة والتنقل بكل أسبابه أدى لإثراء الحياة الأدبية فرحلة الشاعر مع قبيلته من وادٍ لآخر جعل انتقال القصائد وزيوعها من مكان لآخر فتأتي الرحلة في الصحراء معبرة عن مقاصد البدوي وقد أخذت حيزاً في شكل ومضمون القصيدة ووزنها ومفرداتها، وللصحراء على الإنسان فضل لا ينكر في توجيه حياته وفكره وسلوكه وهي مكان وظرف وبذا تركت به أثراً عميقاً لا تمحوه الأيام في تكوين حياته وبناء مجده فانطلق منها بتكوين حضارة عريقة في قوتها وسموقها فخلعت عليه كثيراً من الصفات الخلقية القويمة فكان هذا التأثير القوي الذي جعل منه الإنسان المتفرد الذي أرسى إرثاً عظيماً من خلال تجوال فكره وبصره وجسده في ذاك المكان الفسيح الرحب الذي يمتع الناظر ويسر النفس ويبدع الشاعر والفنان فعرف العربي الصحراء قبل معرفته بالبحار والأنهار وجال في وديانها ووهادها وسهولها ورمالها وتنسّم أريج نبتها وأزهارها وعبق وردها فاستنبط الماء من جوفها وذاق هجيرها وحرّها وزمهرير شتائها وظلها واعتدال جوها خريفاً فتخضر وديانها وسهولها وينحسر ويبيض وجهها بعده، فكانت حركته الدائبة بحثاً وضرباً في الأرض عن العيش الكريم بنهاره فإن جنّ الليل آوى إلى مضجعه هانئاً من لذة البحث المضني يتقلب مع مناخها صيفاً وشتاءً، وامتزج البدو بهذه البيئة حتى أصبحت جزءاً من حياته فلا يجد لها بديلاً ولا عنها متحولاً، ومنها استمد تجارب حياته ونمط عيشه وأسلوب كلماته وثقافته ورؤيته للحياة وعرف سلوك وطبائع حيواناتها وطيورها وأحيائها الأخرى فزادته علماً ودراية وعزيمة لا تلين وإصراراً على تكبد المشاق والطموح الوثاب والذكاء والبديهة

الحاضرة والشجاعة والشكيمة كقول طرفة[1]:

أنا الرجل الضرب الذي تعرفونـــه * خُشاش كرأس الحيـــة المتوقـــد**[2]

وانعكست هذه الصفات قوة في أسلوبهم فالأشعار التي ولدت في تلك البيئة عبـــرت عنها وكانت وما زالت هي المرجع والمتكأ لما فيها من لغة رفيعة وأسـلوب بليـــغ وموضوعات غنية، ومتنوعة استمدت من تلك البيئة الرحبة فالصدق والعفة، تـــزين صدرها وتوشحت به قصائدهم يقول لبيد معبراً عن حق الجار والجارة وإطعامها:

وجارتـــــه إذا حلـــت إليـــــه * لهـــا نفـــل وحـــظ فـــي الســـنام**

فإن تقعـــد فمكرمـــه حصـــان * وإن تظعـــن فمحســـنة الكـــلام**[3]

وكذلك نجد الناقة والفرس يسيطران على معظم القصائد فهما وسيلتا حله وترحالـــه حربه وسلمه، سفره ومكوثه، صيده ونزهته، وهما السلوى في المسير الطويل ومـــا يحمله من تفكير وخيال ووصف للحياة وبكاء على الأطلال ومواقع الحبيبة ومتذكراً تلك الأيام الخوالي التي كانت مسرحاً للسمر والأنس في بقاع الحبيبة فأصبحت كـــل هذه المكونات تعبر عن شئ واحد في حياته وتتقاسم مسمياتها حتى كنيـــت المـــرأة بالشاة وكلاهما يتبادلان المنافع. يقول عنترة في معلقته:

يا شاه ما قنص لمن حلّت لـــه * حَرُمت علىّ وليتها لـــم تحـــرم**[1]

---

(١) طرفة هو طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد البكري الوائلي أبو عمرو جاهلي من الطبقة السادسة ولد في بادية البحرين نحو (٨٦ وتوفي سنة ٦٠ ق هـ) موافق ٥٦٤م ، تنقل في بقاع نجد واتصـــل بالملـــك عمرو بن هند فجعله في ندمائه ثم أرسله بكتاب إلى المكعبر (عامل على البحرين وعمان) يأمر فيه بقتلـــه لأبيات بلغ الملك أن طرفة هجاه بها فقتله المكعبر شاباً وقيل ابن ست وعشرين سنة من آثاره ديوان شـــعر ـــــ أنظر الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين . خير الدين الزركلي ، ط١٠ بيروت دار العلم للملايين ١٩٩٢م ،ج٣ ص٢٢٥ــ معاهد التنصيص على شواهد التلخيص للشيخ عبدالرحيم بن العباس تحقيق محمد محي الدين عبدالحميـــد بيـــروت عـــالم الكتـــب ١٩٤٧م ، ج١ ص٣٦٤.

(٢) ديوان طرفة بن العبد البكري ، شرح يوسف الأعلم بيروت دار صادر ١٩٠٠م ص ٥٤.

(٣) ديوان لبيد بن أبي ربيعة ، دار صادر بيروت ١٩٦٦م ص ٢١٠. ويروى نقل وحق . النفل : العطية، حصان: عفيفة ، محسنة الكلام : تثني ثناء حسناً .

فهنا الشاة كناية عن المرأة وتكنى أيضاً المرأة بالنعجة، وكما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾(٢)، وقوله تعالى: ﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ﴾(٣) في قصة داود عليه السلام في سورة (ص)، أن النعجة هنا المرأة(٤). فالعربي أدرك الجمال فتغنى له بمختلف أشكاله وألوانه فتمثل عنده في المرأة والطبيعة فبثها آلامه ونسي عندها أحلامه وأثارت الأطلال شجونه ولذلك تمثل الحياة البدوية بكل أركانها.

امتاز البدوي بالقوة والشجاعة ومغالبة الصعاب ومجالدتها ووصفه للحيوانات بالقوة والسرعة نفسياً لمغالبة هذه الصعوبات بتصويرهم لهذه الحيوانات ثم الباعث النفسي في الغارات والحروب وقد انعكس ذلك في حياتهم الاجتماعية (فالرعي هو سبيل من سبل كسب عيشهم فكان تقديسهم للخصب ومواطن المياه والآبار وما جاء في بئر زمزم وحفرها روايات)(٥).

وكما ذكرت آنفاً أن البدوي تفاعل مع الصحراء فأثرت في حياته (فأصبح يقيم في خيام يتنقل بها حيث طاب له المقام يكفيه القليل من التمر واللبن، فهو يدبر كل حياته وفق المعطيات والظروف الطبيعية فهذا يحتاج لشجاعة وصبر وإقدام ولذلك كان الفارس مكرمة من مكارم قومه ومفخرة من مفاخرهم التي يعتزون بها ويشيدون ببطولتها)(٦).

ولذلك نجد الصحراء مكاناً وموطناً وعاطفة جياشة شفت قلوب الشعراء بمواردها ذات الطبيعة الحية منها والجامدة، فخلبت فكره واستمد منها ضوءها

---

(١) ديوان عنترة بن شداد ، ص ١٢٥. لمن حلت له: لمن قدر عليها، يقال معنى حرمت عليّ أي جارتي، قنص: صيد، ليتها لم تحرم: أي ليتها لم تكن لي جارة حتى لا تحرم عليّ.

(٢) سورة ص من الآية ٢٣.

(٣) سورة ص من الآية ٢٤.

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، الإمام العلامة عبدالرحمن بن ناصر ، دار الحديث القاهرة طبعة ٢٠٠٥م، ص٧٨٤.

(٥) السيرة النبوية، لابن هشام قدم لها وعلق عليها وضبطها طه عبدالرؤوف سعد دار الجيل طبعة بيروت ١٩٧٥م ، ج١، ص ١٥٤.

(٦) مقدمة ابن خلدون للعلامة عبدالرحمن بن خلدون منشورات محمد علي بيضون دار الكتب العلمية طبعة بيروت لبنان ص١٢٥.

ومعانيها وأثرت فيه فورد حياضها الدافئة منها والباردة، فكونت هذا الصرح الشامخ والرصيد الأدبي القديم، وتلك القصائد النيرات المتراصة المتباينـــة فـــي غرضـــها ونوعها تبياناً ألبسها ألقاً ونضارة وصارت نبراساً يهتدي به وأساساً ثابتاً مشى عليه الشعراء والأدباء يستمدون من ضوئه ونوره.

الباب الأول

بيئة الصحراء ومدلولها وأهميتها

الفصل الأول

إسم ومدلول الصحراء في اللغة والشعر

اتسعت اللغة العربية بألفاظ ومعاني الصحراء كاتساعها في فضائها الرحب، وقد وردت معاني ودلالات وألفاظ شتى تدل على هذه البيئة الصحراوية العتيقة فمثلاً "لفظة صحر" المكونة من "الصاد والحاء والراء". أصل في بنية الكلمة تدل على أصلين أحدهما البَراز من الأرض والآخر لون من الألوان يقال: أصحر القوم إذا برزوا إلى الصحراء لا يسترهم شئ، وأصحر الرجل نزل الصحراء، وبرز إلى فضاء واسع لا يواريه شئ والأصل الآخر الصُّحرة وهي لون أبيض مُشرب بحمرة[١] يقول النابغة[٢] الذبياني :

وغــارةٍ ذات أظفــار ململمــةٍ * شعواء تعتسف الصحراء والأكما[٣]**

"صحر: هي الأرض المستوية في لين وغلظ دون القف، وقيل هي الفضاء الواسع زاد ابن سيده[٤] لا نبات فيها، قال ابن شُميل[٥]: الصحراء من الأرض مثل ظهر الدابة الأجرد ليس بها شجر ولا إكام ولا جبال ملساء، يقال صحراء بينة الصّحر والصُّحرة، أصحر المكان أي اتسع، أصحر الرجل نزل الصحراء، أصحر

---

(١) معجم مقاييس اللغة لأبي الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون، ج٣، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، مادة "صحر"، ص ٣٣٣.

(٢) النابغة: إسمه زياد بن معاوية بن جابر بن يربوع بن غيظ بن مرة بن عوف بن سعد بن ذوبيان، اعتذر من النعمان بن المنذر فيما وشى به بنو قريع في أمر المتجردة ـــ أنظر ديوان النابغة الذبياني صنعة إبن السكيت تحقيق الدكتور شكري فيصل دار الفكر الطبعة الثانية ١٩٩٠م ص ١٩ .

(٣) ديوان النابغة الذبياني صنعة إبن السكيت تحقيق الدكتور شكري فيصل دار الفكر الطبعة الثانية ١٩٩٠م ص ١١١ . غارة: خيل تغير (أراد ورب بلد) أظفار: سلاح. شعواء: متفرقة، تعتسف: تسير على غير هدى.

(٤) ابن سيده هو علي بن اسماعيل المعروف بإبن سيده أبو الحسن إمام في اللغة وآدابها ولد بمرسية شرق الأندلس ولد سنة ٣٩٨هـ وتوفي ٤٥٨هـ صنف كتاب المخصص في سبعة عشر مجلداً وهو من أثمن كنوز العربية وكتاب المحكم والمحيط الأعظم وشرح ما أشكل من كتاب المتنبي ـــ أنظر الأعلام ج٤ص٢٦٣ ـــ انباه النحاة : الوزير جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ط١ القاهرة مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٥٢م ج٢ ص ٢٢٥.

(٥) ابن شميل هو النضر بن شميل بن خرشنة بن كلثوم بن عبده زهير التميمي المازني البصري أبو الحسن ولد بمرو ونشأ بالبصرة وأخذ عن الخليل بن أحمد وأقام بالبادية زمناً طويلاً وعاد إلى مرو وولي قضاءها واتصل بالمأمون العباسي وأكرمه توفي بمرو سنة ٢٠٤هـ من تصانيفه الصفات في اللغة في خمس أجزاء. المدخل إلى كتاب العين.غريب الحديث.الشمس والقمر.كتاب الطير ـــ أنظر معجم المؤلفين ج٤ ص٣٠ -بقية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة . جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم بيروت المكتبة العصرية ج٢ ص ٣١٦.

القوم برزوا في الصحراء، الجمع الصحارِي، الصحارَى، ولا يجمع علـــى صُــحر لأنه ليس بنعت، وجاء قول ابن سيدة في لسان العــرب لابــن منظــور[(١)] الجمــع صحراوات وصحارٍ والمُصاحِر الذي يقاتل قِرْنه في الصحراء ولا يخاتله"[(٢)].

وأياً كانت التعريفات نجدها تتفق في معنى أن الصحراء فضاء متسع ممتــد قليل الأمطار لا أنهار فيها ولا مياه متوفرة ولا عيون جارية ممتدة متفرق عشــبها وشجرها ونموذج للصحاري صحراء الجزيرة العربية التــي هــي موقــع بحثنــا، والصحراء الكبرى في شمال أفريقيا وغيرها من الصحاري المتفرقة في العالم.

فقد وضع العرب للصحراء عدداً من الأسماء في معاجم اللغة المختلفة تلمــح فيها صفات ومعاني الصحراء ونلحظ دلالاتها على ما تمتاز به الصحراء من غيرها من أنواع البقاع والأراضي، وهي في الأصل صفات ونعوت للبقــاع التــي تنفــرد بصفات لا تخرج عن المعنى المفهوم للصحراء وما يدل عليها في مفهومهــا العــام وهذا يدل دلالة واضحة على مقدرة العرب في ذاك الزمــان علــى اختيــار اللغــة المناسبة للدلالة على المعنى الماثل في الذهن وعلى مقــدرة واضــعي اللغــة مــن تسجيلها وتدوينها والحرص عليها. وتدل كثرة أســماء الصــحراء علــى الاحتفــاء والتقديس وحبهم لها والفخر بها واتساع فكر البدوي في استنباط المعاني والــدلالات للشئ الواحد وكثرة الأسماء تدل على عظم المسمى.

وتحتل الصحراء في مساحتها أكبر بلاد العرب في الوسط والشمال والجنوب ونذكر هنا بعض الأسماء التي وردت في المعاجم أو الأشعار التي تدل علــى اســم الصحراء، فهي تحمل صفات ومعاني ودلالات الصــحراء، "وتختلــف الصــحراء

---

(١) ابن منظور هو محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين أبو الفضل المعروف بابن منظور الأديــب اللغوي ولد سنة ٦٣٠هـــ وتوفي بمصر سنة ٧١١ هـــ من مصنفاته لسان العرب في اللغة ـــ مختصر تــاريخ دمشق لابن عساكر تهذيب الخواص من درة الغواص للحريري ـــ أنظر هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثــار المصنفين لاسماعيل باما البغدادي طبعة استانبول ١٩٥٥م منشورات مكتبة المتني ببغداد، ج٢ ص١٤٢.

(٢) لسان العرب، للإمام العلامة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقــي المصــري، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، مادة صحر، ج٤، ص ٤٤٣-٤٤٤. قالوا: صحارى بفتح الــراء لتســلم الألف من الحذف عند التنوين ليفرقوا بين الياء المنقلبة من الألف للتأنيث نحو ألف مرمى ومغزىً.

العربية من موضع لآخر حسب طبيعتها في الوسط والشمال والجنوب"[١] ومن صفات الصحراء ومسمياتها وقد رتبتها حسب الحروف الأبجدية :

١- **البثنة:** الأرض السهلة وبه سميت المرأة بُثينة. ويقال بثنه[٢].

٢- **البرية:** هي الصحراء والجمع البراري[٣]

٣- **البسبس:** هو البر المرتفع الواسع والجمع البسابس[٤] .

٤- **البلقع:** والبلقعة هي الأرض القفر التي لا شئ فيها من شجر ونحوه[٥].

قال جرير :

حيّوا الديار وسائلوا أطلالها * هل ترجع الخبر الديار البلقع[٦]**

٥- **البُهْر:** الواسع من الأرض الذي لا جبال فيه[٧].

٦- **البيداء:** وهي الفلاة والمفازة لا شئ بها، وسميت الصحراء بيداء لأنها تبيد سالكها، والإبادة الإهلاك والجمع بيد وبيداوات[٨].

كقول زهير:

وبيداء تيه تحرج العين وسطها * مخففةٍ غبراء صرماء سملق[٩]**

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام، د. السيد عبد العزيز سالم، الناشر مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية بدون، ص ٦٦.

(٢) المخصص تأليف أبي الحسن علي بن اسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي المعروف بابن سيدة، المجلد الرابع، المكتب التجاري، دار صادر، بيروت بدون، . ج٤ ص ١٢٢.

(٣) القاموس المحيط ، مادة برر ، ص٢٨٥.

(٤) لسان العرب، لابن منظور، ج٢، دار صادر بيروت ٢٠٠٠م مادة بس، ص٨٦.

(٥) لسان العرب، ابن منظور، ج٨ ص٢١ مادة (بلقع) .

(٦) ديوان جرير طبعة دار الكتاب اللبناني ، ص ٤١٧.

(٧) المخصص لابن سيدة، ج٤ ص ١٢٢.

(٨) القاموس المحيط ، محي الدين بن يعقوب الفيروزابادي ، دار الجيل بيروت بدون ، ج ١ ص ٣٨٥.

(٩) ديوان زهير بن أبي سلمى ، ص١٨٢ . تحرج : تدهش الحرج في العين الحيرة . مخففة: تخفق بالسراب. صرماء: لا ماء فيها . سملق: لا نبات فيها .

وقال أبو الطيب المتنبئ فيما بعد:

أما الأحبـــة فالبيـــداء دونهـــم * فليت دونك بيـــداً دونهـــا بيـــد**[1]

٧- **التنوفة:** وهي المفازة أو الأرض القفر، وقيل الأرض المتباعـــدة الأطراف والتي لا ماء فيها من الفلـــوات ولا أنـــيس وإن كانـــت معشبة والجمع تنائف[2].

قال امرؤ القيس:

وتنوفـــة جـــدباء مهلكـــة * جاوزتهـــا بنجائـــب فُتـــل**[3]

٨- **التيمـــاء:** وهي الفلاة الواسعة قال الأصمعي[4] التيماء التي لامـــا فيها وأرض تيماء مهلكة[5].

٩- **التيهاء:** هي المفازة. يتاه فيها أي يضـــل ولا يهتـــدي لطريـــق، والأرض الضلة الواسعة لا أعلام فيها ولا جبال ولا آكام[6].

كقول ذي الرمة:

وتيهاء مقفار يكاد ارتكاضـــها * بآل الضحى والهجر بالطرف يمصح**[7]

١٠- **الجدجد:** قال صاحب العين هي الأرض الملساء[8].

١١- **الجوُّ:** قال أبو زيد: هي الوطاء السهل فـــي الأرض، ومـــالان ورقّ وجمعه الجواء[1].

---

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي، ج٢ ، شرح أبي البقاء العكبري والمسمى بالتبيان في شرح الديوان، ضبطه وصححه مصطفى السقا، ابراهيم الأنباري، دار المعرفة بيروت لبنان ١٩٧٨م، ص٣٩.

(٢) لسان العرب لابن منظور، ط١ بيروت دار صادر للطباعة والنشر ٢٠٠٠م ج٢ ص٢٤١ مادة تنف.

(٣) ديوان امرئ القيس، ص١٣٠. الفتل: مفردها فتلاء، وهي الناقة إذا كان في ذراعها فتل وبعد عن جنبها، ويكون ذلك أقوى وأسرع لها في المسير.

(٤) الأصمعي: هو عبدالملك بن قريب واسم قريب عاصم يكنى أبابكر بن عبدالله بن أصمع كان صاحب النحو واللغة والأخبار والملح مولده ووفاته بالبصرة ولد سنة ١٢٢هـــ وتوفي سنة ٢١٦هـــ أخباره كثيرة تصانيفه كثيرة منها الإبل – الأضداد ، شرح ديوان ذي الرمة ـــ انظر الأعلام للزركلي ج٤ ص١٦٢.

(٥) لسان العرب ،لابن منظور ، ج٥، ص٢٠٩. مادة (تيم) .

(٦) لسان العرب، ابن منظور، (تيه)، ص٨٩.

(٧) ديوان ذي الرمة، ص ٨٦. ووردت: أيضاً بيداء في أول البيـــت.مقفـــار: قفـــر. إرتكاضـــها: ركضـــها. الآل:السراب . الهجر: الهاجرة . الطرف: العين . يمصح:يذهب بالعين .

(٨) المخصص ابن سيدة ،ج٤، ص١٢٢.

يقول النابغة الذبياني :

داراً تعفت لا أنيس بجوها * إلا بقايا دمنةٍ وأواري**[٢]

١٢- **الخرق:** وهي الفلاة الواسعة والأرض البعيدة مستوية كانت أو غير مستوية سميت بذلك لإنخراق الريح فيها والجمع خروق[٣].

منها قول امرئ القيس:

وخرق بعيد قد قطعت نياطه * * * على ذات لوث سهوة المشي مذعان[٤]

وقوله :

وخرق كجوف العير قفر مضلة * * * قطعت بسام ساهم الوجه حسان[٥]

١٣- **الخفقة:** مفازة ملساء ذات آل[٦].

١٤- **الدّو:** هي الفلاة الواسعة والمفازة، وقيـل الأرض المسـتوية الملساء يخاف فيها الضلال ويسار فيها بالنجوم[٧].

كقول ذي الرمة:

ودوٍّ ككف المشتري غير أنه * * * بساط لأخماس المراسيل واسع[٨]

وقول امرئ القيس:

ودوية لا يهتدى لفلاتها * * * بعرفان أعلام ولا ضوء كوكب[١]

---

(١) المخصص: ابن سيدة، ج٤ ص ١٢٢.

(٢) ديوان النابغة الذبياني ، ص٩٦. نصب الدار على قوله : (وما استخباري داراً تعفت) .

(٣) لسان العرب ابن منظور، ج٥ ص٥٣ مادة(خرق) .

(٤) ديوان امرئ القيس ، ص١٦٤، نياطه: أوساطه، على ذات لوث: على ناقة كأن بها جنون بسرعتها، سهوه: سهلة المشي مذعان: مطاوعة.

(٥) المصدر السابق ص١٦٤،كجوف العير: خالٍ ، سام: فرس، ساهم الوجه: متغير الوجه ، حسان: غاية الحسن.

(٦) المصدر السابق، ص ١٢٢.

(٧) المصدر السابق ، ج٥ ، ص ٢٣٤. مادة (دوا) .

(٨) ديوان ذي الرمة ص٣٩، الدوية : هي الفلاة المقفرة التي تردد فيها الأصوات والتي لا أعلام لها .شبه الدو في استوائه وانبساطه بكف المشتري إذا بسطه وصفق براحته على راحة البائع عند إمضاء صفقة البيع، المراسيل: الناقة السريعة، أخماس: ورود الماء في اليوم الخامس.

١٥- **دوم:** وهي الفلاة التي يدوم السير فيها[٢].

١٦- **الديمومة والديموم:** وهي الفلاة يدوم السير فيها لبعدها وأرض مستوية لا أعلام بها ولا طريق ولا ماء ولا أنيس وإن كانت مكتلئة، والجمع الدياميم. قال أبو عمرو الدياميم الصحارى الملس المتباعدة الأطراف[٣]. يقول الأعشى:

فوق ديمومة تغوّل بالسفـ * ـر قفار إلا من الآجال[٤]**

١٧- **السبسب:** هو القفر والقفر البعيدة مستوية وغير مستوية وغليظة وغير غليظة لا ماء فيها ولا أنيس، والسبسب الأرض الجدبة والجمع السباسب[٥].

وقول عبيد الأبرص:

إني اهتديت لركب طال سيرهم * في سبسب بين دكداك وأعقاد[٦]**

١٨- **السهب:** وهي ما بعد من الأرض واستوى في طمأنينة وهي أجواف الأرض وبطون الأرض تكون في الصحارى[٧].

وقول الأعشى:

وكم دون ليلى من عدو وبلدة * وسهب به مستوضح الآل يبرق[٨]**

١٩- **السهمج والدهمج:** هي الأرض الواسعة السهلة[٩].

---

(١) ديوان امرئ القيس، ص٣١ .

(٢) لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، مادة دوم ص ٢١٤.

(٣) لسان العرب، ص ١٦٦، (دوم).

(٤) ديوان الأعشى ص١٦٦، تغول: تشبه الغول في إلحاق الأذى بالمسافرين.الآجال: مفردها إجل وهو القطيع من بقر الوحش.

(٥) المصدر السابق مادة سب ص٤٠٥ .

(٦) ديوان عبيد الأبرص،دار صادر للطباعة والنشر طبعة ١٩٥٨م ص٦٢ . الدكداك: ما استوى وتلبد من الرمل، الأعقاد: مفردها عقد بفتح أوله وكسر ثانيه، وفتحه.

(٧) لسان العرب، ابن منظور، ج١، ص ٤٧٦.

(٨) ديوان الأعشى، ص ١٢٢. السهب : الفلاة . ليلى : إبنته

(٩) المخصص: ابن سيدة، ج٤ ص ١٢١.

٢٠- **الصحاصح:** الواحد صحصح وهو ما استوى من الأرض وقيل الأرض السهلة[١].

يقول النابغة:

فيحملها على المكروه همي * * * تخطى الحزن والبلد الصحاحا[٢]

٢١- **الصحراء** : هي الأرض المستوية الواسعة)[٣].

وقول أمرئ القيس :

ترى الفأر في مستنقع القاع لاحباً * على جدد الصحراء من شد ملهب**[٤]

وقول النابغة الذبياني :

جمــع يظــل بــه الفضاء معضلاً * يــدع الإكــام كأنهــن صحــاري**[٥]

٢٢- **الصرداح:** والصرداح والصردحة: هي الصحراء لا شجر فيها ولا نبت، والفلاة لا شئ فيها والجمع الصرادح[٦].

---

(١) لسان العرب لابن منظور ، ج٨ ص٢٠٢ مادة (صحصح) .

(٢) ديوان النابغة الذبياني ص٢٥٢، الحزن: ما غلظ من الأرض.

(٣) معجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس بن زكريا، ج٣ ص ٣٣٣.

(٤) ديوان امرؤ القيس، ضبطه وصححه وحققه الأستاذ مصطفى عبدالشافي منشورات محمد علي دارالكتب العلمية بيروت لبنان الطبعة الخامسة ٢٠٠٤م ص٣٦ .مستنقع القاع : الماء المنتقع في منخفض الأرض، لاحباً: ظاهراً، جدد الصحراء: المرتقع من الأرض . الشد الملهب: العدو الشديد .

(٥) ديوان النابغة الذبياني ، ص ١٠٢. معضلاً: ضيقاً ، الإكام: أصغر من التلال .

(٦) المصدر السابق، ج٣ ص ٣٤٣، طبعة مصورة عن طبعة بولاق، الدار المصرية للتأليف والترجمة.

قال ذو الرمة:

فجاءت كذود الخاربين يشـــلها * مصك تهـــاداه صـــحارٍ صـــرادح**[١]

٢٣- **الصرماء:** هي الفلاة من الأرض لا ماء فيها[٢].

٢٤- **الضّراء:** أرض مستوية يكون فيها السباع وكثير من الشجر[٣].

٢٥- **العربسيس:** قال أبو دريد متن مستو من الأرض، وقـــد يقـــال أرض عربسيس[٤].

٢٦- **الفحص:** ما اتسع من الأرض واستوى والجمع فحوص[٤].

٢٧- **الفدفد:** هي الفلاة التي لا شئ فيها وقيل الأرض الغليظـــة ذات الحصى، وقيل الموضع الصلب والمكان المرتفع فيه صلابة وقيل الأرض المستوية وجمعها فدافد[٥].

يقول النابغة في ذلك :

سقى دار سعدى حيث حلت بها النوى * * * فأفعم منها كل ربعٍ وفدفد[٦]

٢٨- **الفلاة:** وهي القفر. قال أبو حاتم: سُميت فلاة لأنها فُليت مـــن كل خير وقيل هي التي لا ماء فيها والجمع فلا وفلاوات وفليٌّ[٧].

ويقول عنترة بن شداد في وصف محبوبته عبلة :

ورنت فقلت غزالة مذعورة * قد راعها وسط الفلاة بلاء**[٨]

---

(١) ديوان ذي الرمة، ص ١٠٩، جاءت ضمير يعود على الحمر الوحشية، الذود: من ثلاث إلى تسع، وقد يتجاوز العدد الخاربان، الخارب: المفسد، يشلها: يطردها، مصك: قوي، يريد به الحمار الوحشي، تهاداه: ترمي به صحراء إلى صحراء أخرى.

(٢) لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، ج١٢، ص ٣٣٩.

(٣) المخصص: ابن سيدة، ج٤ ص ١٢٢.

(٤) المصدر السابق، ص ١٢٠.

(٤) المصدر السابق، ص١٢٢.

(٥) لسان العرب لابن منظور، ص٢١٩ مادة فدفد .

(٦) ديوان النابغة الذبياني، ص٢٤٦.

(٧) المخصص: ابن سيدة، ج٤ ص ١١٣.

(٨) ديوان عنترة بن شداد ، ص ٧.

ويقول زهير في مدح هرم بن سنان :

يقطعن أميال أجواز الفلاة كما * يغشى النواتي غمار اللج بالسفن**[1]

٢٩- **الفيفاء:** هي الصحراء الملساء والمفازة لا ماء فيها والجمع الفيافي[2].

وقول ذي الرمة[3] في ديوانه:

طواها إلى حيزومها وانطوت لهـا * جيوب الفيافي حَزنها ورمالهـا**[4]

٣٠- قاع وقيعه: وهي الأرض المستوية الملساء يخفق فيها السراب[5].

٣١- **القاع:** جمعها قيعان ويراد بها الصحراء الواسعة[6].

ومنها قول امرئ القيس:

ترى بعر الآرام في عرصاتها وقيعانها * كأنـــه حـــب فلفـــل**[7]

٣٢- الفردد: هي الأرض المستوية[8].

---

(١) ديوان زهير بن أبي سلمى ، صنعة أبي العباس ثعلب قدم له ووضع هوامشه وفهرسه حنا نصر الحتي دار الكتاب العربي طبعة ٢٠٠٤م ص ١٠٩ الميل: القطعة من الأرض مد البصر، أجواز : أوساط ، النواتي : الملاحون، اللج: معظم الماء لا ترى جانبيه .

(٢) لسان العرب لابن منظور، ج٢ ص ٣١٩ مادة فيف .

(٣) ذو الرمة: هو غيلان بن عقبة بن مسعود العدوي بن مضر أبو الحارث شاعر من فحول الطبقة الثانية في عصره وكان شديد القصر دميماً أكثر شعره تشبيب وبكاء أطلال يذهب في ذلك مذهب الجاهليين وكان مقيماً للبادية بحضر إلى اليمامة والبصرة كثيراً عشق مية واشتهر بها له ديوان شعر مطبوع ، توفي بأصبهان سنة ٧٣٥م ــ أنظر الأعلام للزركلي ، ج٥ ص١٢٤.

(٤) ديوان شعر ذي الرمة، غيلان بـن عقبة الـعدوي، عنى بتصحيحه كارليل هنري هبس، عالم الكتب بدون، ص ٥٢٦. طواها: أضمرها راكبها، الحيزوم: الصدر، جيوب الفيافي: مداخلها، الحزن: ضد السهل مكان مرتفع ذو صلابة.

(٥) المخصص: ابن سيدة، ج٤ ص ١٢٢.

(٦) جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، أبي زيد القرشي، تحقيق محمد البجاوي بدون، ص ١١٥.

(٧) ديوان امرئ القيس، ص١١٠.

(٧) المصدر السابق، ص ١٢٠.

(٨) المخصص: ابن سيدة، ج٤ ص ١٢١.

٣٣- **القفــر:** هو الخلاء من الأرض والمفــازة لا مـــاء فيهـــا ولا نبات[١].

قال الأعشى:

وبيــداء قفــرٍ كبــرد الســدير * مشـــــاربها دائـــــرات أجـــــن**[٢]

وقال النابغة الذبياني:

أضحت قفاراً وأضحى أهلها احتملوا * أخنى عليها الذي أخنى على لبد**[٣]

٣٤- **القُنُع:** هي أرض سهلة بين رملٍ تنبت الشجر والجمع أقناع[٤].

٣٥- **المرْت:** هي المفازة لا نبات فيها[٥].

٣٦- **المفازة:** هي البرية، القفر، يقال لها المفاز والجمـــع مفـــاوز، قال ابن الأعرابي[٦] سميت الصحراء مفازة لأن من خرج منهـــا وقطعها فاز وقال سميت المفازة من فوّز الرجل إذا مات[٧].

وقول امرئ القيس:

تبوص وكم من دونها مـــن مفـــازةٍ * ومن أرض جدْب دونها ولصوص**[٨]

---

(١) لسان العرب، ابن منظور، ج٥ ، ص١١٠ مادة قفر .

(٢) ديوان الأعشى، ص٢٠٨. السدير: اسم مكان، البرد: ثوب مخطط، مشاربها: مفردها مشرب وهو موضع الماء الذي يشرب منه، دائرات: مطموسات، أجن: مفردها آجن وهو الماء المتغير الطعم واللون.

(٣) ديوان النابغة الذبياني ص ٥ ، أخنى عليها : أفسد عليها الدهر الذي أفسد على لبد.

(٤) المخصص: ابن سيدة، ج٤، ص ١٢١.

(٥) لسان العرب لابن منظور ج٢، ص ٨٩، مادة (مرت) .

(٦) ابن الأعرابي هو محمد بن زياد المعروف بإبن الأعرابي الكوفي أبو عبدالله راوية لأشعار العرب ولد بالكوفة ١٥٠هـــ وسمع من المفضل الضبي الدواوين ومحصها وأخذ عن الكسائي وابن السكيت وابي العباس أحمد بن يحيي ثعلب من آثاره النوادر ، تاريخ القبائل، معاني الشعر، تفسير الأمثال ـــ أنظر معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة ، ج٣ ص٣٠٧ ـــ أنظر مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان لليافعي أبو محمد عبدالله بن أسعد بن علي بن سليمان ، ط٢ بيروت مؤسسة الأعلى للمطبوعات ١٩٧٠ ص١٠٦.

(٧) لسان العرب، ابن منظور ، ج١١ مادة فوز ، ص٢٣٨ .

(٨) ديوان امرئ القيس، ص٩١.المفازه: الطريق المهلك، وسميت مفازه تفاؤلاً بالفوز من أخطارها.

ويقول تعالى: ﴿ لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(١)، معنى المفازة: هي الفوز والنجاة ، أي لا ينجون من العذاب.

٣٧- **المهلكة:** المفازة لأنه يهلك فيها كثير من يسلكها(٢).

٣٨- **المهمه:** هي المفازة البعيدة والفلاة لا ماء فيها ولا أنيس، والبرية القفر، والجمع مهامه(٣).

قال امرؤ القيس:

فكم كم وكم كم ثم كم كم وكم وكم * قطعت الفيافي والمهامه لم أمل**(٤)

ويقول عنترة :

كم مهمهٍ قفر بنفسي خضته * * * ومفاوز جاوزتها بالأبجر(٥)

٣٩- **موم – الموماة:** وهي المفازة الواسعة الملساء، والفلاة التي لا ماء فيها ولا أنيس والجمع موام(٦).

قال تأبط شراً(٧):

يظل بموماة ويمسى بغيرها * جحيشاً ويعروري ظهور المهالك**(٨)

٤٠- **اليهماء:** المفازة لا ماء فيها ولا يسمع بها صوت، وقيل الفلاة لا ماء فيها ولا علم ولا يُهتدى لطريقها(٩).

قال الأعشى:

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١٨٨.

(٢) لسان العرب لابن منظور، ج١٠ ص٥٠٥ مادة(هلك) .

(٣) لسان العرب لابن منظور، ج٣ ص٢١٧ مادة مهمه.

(٤) ديوان امرئ القيس، ص ١٤٨ .

(٥) ديوان عنترة بن شداد ، ص ٧٠، الأبجر : فرس عنترة .

(٦) لسان العرب لابن منظور، دار صادر، ج١٢، ص ٥٦٦.

(٦) لسان العرب لابن منظور، دار صادر، ج١٢، ص ٥٦٦.

(٧) تأبط شراً : هو ثابت بن جابر بن سفيان أبو زهير الفهمي بن مضر شاعر عداء من فتاك العرب في الجاهلية كان من أهل تهامة قتل في بلاد هذيل وألقي في غار يقال له رخمان نحو ٨ق هـ من آثاره ديوان شعر ـ أنظر الأعلام للزركلي، ج٢ ص٩٧.

(٨) ديوان تأبط شراً، إعداد وتقديم طلال حرب، دار صادر للطباعة والنشر ١٩٩٦م، ص٤٩، جحيشاً: منفرداً، يعروري: يركب.

(٩) لسان العرب لابن منظور ، ج٥ ، ص٩٩ ، مادة (يهم) .

يهماء موحشة رفعت لعرضها * طرفـــي لا قـــدر بينهـــا أميالهـــا**[1]

هذه الأسماء والصفات العديدة تدل دلالة واضحة كيف أن العرب قد عنوا بالصحراء واهتموا بها لذا أتوا بأسماء عديدة حوتها كتب اللغـــة والأدب ذلـــك لتـــأثير البيئـــة الصحراوية في نفس البدوي وفكره إذ نجد أهميتها أن أول شاعر جاهلي كما جـــاء في كتب التراجم هو امرؤ القيس واسمه مشتق من الأرض وهو حُندج بن حجر بن الحارث "والحندج بضم الحاء والدال بينهم ساكنة في الأصل رملة طيبة تنبت ألوانـــاً من النبات"[2]، (ولم يكن تأثيرها في الفكر والأدب فحسب بل "في الأجسام والحواس الظاهرة والباطنة والصور والأخـــلاق والقـــوة ولهجـــة اللســـان وســـماحة اليـــد والشجاعة)[3].

---

(1) ديوان الأعشى ، ص١٥٢.

(٢) لسان العرب ابن منظور ، ج٤ ص٢٤٤ مادة (حندج) ، الحندج والحندجة رملة طيبة تنبت ألواناً من النبات وقيل الحندجة الرملة العظيمة .

(٣) بلوغ الإرب في معرفة أحوال العرب، تأليف السيد محمود شكري الألوسي، ص ٤٣٤.

الفصل الثاني

أهمية المكان عند البدوي في الصحراء

أهمية المكان عند البدوي في الصحراء

لما كان موضوع البحث يتحدث عن ظرف مكاني "الصحراء" في الشعر الجاهلي رأيت أن أبدأ بأهمية المكان في الشعر الجاهلي وما برز من انفعال به في قصائدهم، ولما كان للشعر الجاهلي من تصوير مخلص ووفي لتلك البيئة الصحراوية وعكس حياتهم ونفسياتهم، كان من الضروري أن أعقد الصلة بين أهمية المكان وبروزه في أشعارهم من خلال بيئة الصحراء وما كان لهم من عادات وقيم ومثل مثلت تلك البيئة، فتحدثوا عن الدار والمنزل والطلل والظعن والترحال وكلها تتحدث عن المكان وقد وردت آيات في القرآن الكريم تبرز أهمية المكان عند المسلمين يقول تعالى﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾(١)، ويقول تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً﴾(٢).

تتشابه بيئات الصحراء في كثير من نواحيها وتتنوع وديانها ومنحدراتها وسهولها ورمالها ومنخفضاتها ولذلك أتى هذا السحر الذي تغنى له الشعراء ويقصدون تلك الأماكن بأسمائها من خلال امتداد الصحراء .

ولذا برزت أهمية المكان بصورة كبيرة في تبلور فكر وثقافة وتركيبة الأمم (ومن أبلغ آثاره على الكلمات سوى اختلاف معانيها وتنوع مدلولاتها من موضع إلى موضع ما يضفيه على الكلمة الواحدة من لون حسن أولون قبيح من دون تأثير كبير في جوهر مدلولاتها"(٣).

وجاء في لسان العرب لابن منظور تحت مادة "كون" أن الكون هو الحدث، وقد كان كوناً وكينونة والمكان الموضع، والجمع أمكنة وأماكن(١). وجاء أيضاً في لسان العرب تحت جذر مكن فقال: المكان والمكانة

---

(١) سورة الحج الآية ٢٦.

(٢) سورة يونس الآية ٨٧.

(٣) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، د. عبد الله الطيب، مطبعة جامعة الخرطوم للنشر، الطبعة الرابعة، ١٩٩١م، الجزء الثاني، ص ٣١-٣٢.

(١) لسان العرب ، لبن منظور دار صادر ج١٣ ص٣٦٣ مادة كون .

واحد وهو تقدير للفعل مفْعل لأنه موضع لكينونة الشئ فيه غير أنه لما كثر أجــروه مجرى فعال فقالوا مكناً له وقد تمكن(٢).

ولذا أتى ذكر المكان في معظم أشعار الجاهليين وتحديده له أهميته في نفــس الشاعر وتسميته وتعديده لأن وقوفهم على هذه المواقع يدخل السرور في نفوســهم، وقد جرت الأسماء في أشعارهم لأماكن وقوفهم عليها كوصفهم للإطلال أو الوقوف عندها أو وصف أماكن السراب أو في المديح أو الرحيل والظعن، ومكــان وقــوف المحبوبة أو أماكن النبات والعشب، أو قطع مفاوز الناقة وقوتها وســرعتها، ولــيس كل من يسافر في الصحراء يعرف الوصول إلى مكانه وهدفــه لاتســاعها وتشــابه أماكنها. قال الأعشى:

يقول الــدليل بهــا للصــحاب * لا تخطئــوا بعــض أرصــادها**(٣)

فالشعر الجاهلي تاريخ سجل كل الأماكن والصور فهو أصل الأدب العربي وجــذره الذي منه نبت وفرّع وأزهر، وقد أكثر معظم الشعراء من ذكر أسماء أمــاكن فــي الصحراء، منهم امرؤ القيس ووردت في أشعاره أسماء أماكن مثــل: (الــدخول – حومل – توضح – المقراة– سحام – الهضب) ، وغيرها، وجاءت في العديــد مــن قصائد القدماء كطرفة، عنتر، زهير، النابغة، وفي شعر عبيد إبن الأبــرص، ولــذا ارتبط المكان عند الشاعر ارتباطاً حسياً ووجدانياً به.

وقد تتبع الشعراء الأثر في الأرض لأهميته عندهم في سبل حيــاتهم والــذي ارتبط بمكان الأرض المنبسطة فقد شبه لبيد الأثر في الأرض بالكتابة على الأحجار ورسمها

ومن ذلك قوله:

فمدافع الريان عُــرى رســمها * خلقاً كما ضمن الوحى ســلامها**(١)

---

(٢) المصدر السابق ، ص٣٥٦ مادة مكن .

(٣) ديوان الأعشى، ص ٥٩. إرصادها: الأعلام في الطرق.

(١) ديوان لبيد بن أبي ربيعة، العامري، ص ١٦٣.

ويشبه زهير بن أبي سلمى رسوم الدار الدارسة برقٍ مكتوب قد أتى عليه الدهر فأذهب معالمه فيقول:

أمن آل ليلى عرفت الطلولا * بذى حرض ماثلات مثولا؟**[1]

ويشبه بشر بن أبي خازم[3] ما بقي من آثار الديار بالألواح المزخرفة كقوله:

فكأن أطلالاً وباقي دمنة * بجدود ألواح عليها الزخرف**[4]

فالصحراء العربية متنوعة التضاريس فيها رمال ووديان ومرتفعات ومنخفضات، (وقد قسم اليونان والرومان بلاد العرب قديماً لثلاثة أقسام طبيعية تتفق مع الناحية السياسية التي كانت عليها بلاد العرب في القرن الأول الميلادي هي: "بلاد العرب الصخرية وتقع شمال بادية العرب إلى بادية الشام بلاد العرب السعيدة والمقصود بها بلاد اليمن أو الأرض الخضراء بلاد العرب الصحراوية وكانت تطلق على بادية الشام ثم شمل اسمها البادية الواسعة في المناطق الصحراوية التي تسكنها القبائل المبتدئة)[5].

والعرب فتحت الحياة في هذه البقعة الوسطية وأشعلوا فيها جزوة الحياة بكل ما تحمله من مكونات وأسدت الصحراء لها طابع القوة والعزيمة والإصرار والتحدي فاشتعلت شمعة مضيئة تحمل التحدي والفكر والدراية والأدب نبراساً (فكان موقع الصحراء في الجزيرة العربية الذي يقع في هضبة كبيرة مكونة من جبال وصحارى رملية، أما الصحارى فأهمها صحراء السماوة أو صحراء النفوذ وتشمل معظم شمال الجزيرة ورمالها وعثاء يصعب فيها السير وتسوح فيها القدم وسكانها بدو رحل يقيمون فيها شتاء ويرحلون منها صيفاً إلى التخوم الشمالية طلباً للماء والكلأ، وصحراء الربع الخالي وفيها بلاد الأحقاف وهي شمالي حضرموت ومع

---

(١) ديوان زهير بن أبي سلمى، ص ١٥٤. حرض:اسم وادي لبني قطفان، ماثلات: منتصبات، مثولا: انتصابا

[3] بشير بن ابي خازم: هو عمرو بن عوف الأسدي أبو خوفل شاعر جاهلي من الشجعان من أهل نجد من بني أسد بن خزيمة له قصائد في الفخر والحماسة توفي قتيلاً في غزوة أغار بها على صعصعة بن معاوية سنة ٢٨ قبل الهجرة له ديوان شعر حققه الدكتور عزة حسن في دمشق ــ أنظر الأعلام للزركلي ج٢ ص٥٤.

(٤) المفضليات المفضل الضبي كلية اكسفورد بيروت ١٩٢٠،ص٦٦٣.

(٥) تاريخ العرب قبل الإسلام، د.السيد عبد العزيز سالم ، ص ٦٦.

هذه الصحراء جزء يسمى الدهناء شمالي مهرة، وتتصل هذه الصحراء ببادية السماوة وتمتد شرقاً إلى الخليج الفارسي وأرضها مستوية صلبة مجدبة، وقد ينزل بها مطر قليل[١].

نظر علماء الفلسفة والاجتماع وعلماء الأدب والكتاب إلى المكان من منطلقات مختلفة ، ورؤى متفاوتة ، لهذا كان للمكان أهمية بارزة في الوصول للمكونات إذ أن العمل الأدبي حين يفتقر المكانية فهو يفقد خصوصيته وبالتالي أصالته، فالمكانية طريقة لرؤية النص من الداخل والخارج معاً ويمكننا فهم النص من خلال الشاعر والمجتمع ، ولذلك نجد المكان الأداة الأكثر وضوحاً لمعاني النص والمعاني المراده الأخرى، ولذلك جاء الحديث عن الصحراء المكان في الشعر الجاهلي وهذا يتطلب معرفة المكان ومناخه والتطورات الاجتماعية وعلاقاته مع أشيائه.

ولذا (نجد أن اللغة من حيث طبيعتها هي أداة زمانية تتكون من مجموعة من الأصوات ، والمقاطع المحددة ، وكذلك أن الجانب الصوتي هو النافذة لسائر التأثيرات في القصيدة ، وأن الشاعر حينما يستخدم اللغة للتعبير عما يدور في نفسه فإنما يشكل بنية زمانية مكانية متعانقة التأثير ذات نسق نفسي ودلالي خاص)[٢].

وبذا جاء شعر البدوي في الصحراء حاوياً وعارفاً بجميع تفاصيله الصغيرة منها والكبيرة ولا يعرفه إلا من تجذر فيه وارتبط به ارتباطاً وثيقاً وجعله فاهماً لطبيعة الأشياء وأماكنها وفجّرت الصحراء فيهم ينابيع الشعر على ألسنتهم وملهمة لهم حيث عاشوا في كنفها منذ امرئ القيس ومن بعده، فقد كانت الصحراء هدفاً رئيساً من أهدافهم وموضعاً شعرياً مهماً عندهم فوصفوا امتدادها ورمالها وحرّها وقرّها وحيواناتها وكل مخلوقاتها وهذا ليس غريباً لتجذرهم العميق في رمالها تجذراً أهلهم لأن يفهموا مكنوناتها، فأتى إحساسهم بها إحساساً صادقاً وزاوجوا بين حبهم للصحراء وحبهم للمرأة وكل متعلقات المكان، وجعلوا الحديث عن المكان في كثير

---

(١) قصة الأدب في الحجاز في العصر الجاهلي، تأليف عبد الله عبد الجبار محمد عبد المنعم خفاجي، الناشــر مكتبة الكليات الأزهرية، ١٩٨٠م، ص١٣.

(٢) التفسير النفسي للأدب : تأليف د.عزالدين اسماعيل الناشر مكتبة غريب العامة الطبعة الرابعة ١٩٦٣م ، ص١٥٥.

من الأحيان كما ذكرنا من قبل للتعبير عن مشاعرهم ووصف كل ما يحيط بهم فأنتقوا المرأة رمزاً لذلك، وجعلوا المكان الخاص بالمرأة من الأمكنة المهمة فتحدثوا عن الظعن والطلل والأرض وسمرات الحي، ولذلك وصفوا مكانها وصفاً دقيقاً ومؤثراً وكثيراً ما بكوا تلك الأماكن بكاءً حاراً، وامرؤ القيس استوقف رفيقيه للبكاء بقوله:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل * بسقط اللوى بين الدخول فحومل**(١)

ولذلك نجد تعلق العرب بالمكان تعلقاً بيناً في أشعارهم فمزجوا بين حبهم للمكان الصحراء وممارسة حياتهم وعاداتهم عليه ولنتبين ذلك لنقف عند ثلاث ساحات تأثرت وتأثر بها المكان أولاها رحلة الظعن، ثانيها رحلة الشاعر، وثالثها رحلة الصيد في الصحراء وقد أفردنا للوقوف على الأطلال فصلاً في الباب الثالث.

وإذا كانت الرحلة والترحال في الصحراء أخذت حيزاً كبيراً في أشعار الجاهليين نتيجة لمؤثرات وتأثيرات الصحراء يجدر بنا أيضاً أن نقف على رحلة وترحال خص ذكره الشعراء في قصائدهم وهو الظعن والظعينة وهو ركب يرحل في بوادي الصحراء لأغراض شتى. يقول تعالى: (واللهُ جَعَل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم)(٢) وقد أكثر الشعراء الحديث عن الظعن في قصائدهم واصفين فيه أشواقهم وحبهم لمحبوباتهم على الجمال وهيئة الظعن، وما يصاحبه من لوعة وألم، ولعل من وسائل تخفيف سطوة الزمن وبعث الأمل في الحياة التفات الشاعر مباشرة بعد الأطلال إلى الظعائن وما فيها من جمال وما تحمل من آمال وآلام، فرحلة الظعائن تأتي غالباً في قصيدة الشاعر بعد الأطلال، وبذلك لابد أن تكون هي الأخرى نتاجاً ومؤثراً طبيعياً لطبيعة الصحراء فهي فكرة حالة طبيعية اجتماعية كان يحياها، وعندما يصف الشاعر الظعن وهو واقف على الأطلال ، يرى أهله وأحبابه رحلوا عن هذه الديار ، وتركوها عرضة للظروف الطبيعية الصعبة فتلاعبت بها وتغيرت ملامحها وتسرح فيها الأشباح،كقول النابغة:

---

(١) ديوان امرئ القيس ، ص١١٠.

(٢) سورة النحل، الآية ٨٠.

فلمـــا أن رأيـــت الـــدار قفراً * وخــــالف بــــال أهـــل الـــدار بــــالي**
نهضـــت إلـــى عذافرة صحوت * مـــــذكرةٍ تجـــل علـــــى الكـــــلال[(١)]**

فالظروف الطبيعية هي التي تجبر البدوي للرحيل والتجوال من قسوة المناخ وقلة الماء وذهاب ما يؤكل من العشب للحيوانات فهذه الأسباب وغيرها هي التي جعلت العربي دائم الترحال يبحث عن مكان آخر ينتجع فيه مخلفاً وراءه في الصحراء مكانه الأول. يقول لبيد مصوراً جانباً من ذلك:

شاقتك ظعن الحي حين تحملوا * فتكنسوا قطنـــاً تصـــر خيامهـــا[(٢)]**

وهنا يقف عمرو بن كلثوم[(٣)] مخاطباً وملتمساً الحبيبة التي تنوي الرحيل فيقول لها أيتها الحبيبة قفي قبل أن ترحلي وقبل أن نفترق لكي نحكي لك مؤكدين بما قاسينا ولاقينا من آلام الهوى ونيران الجوى قفي نحكي كل تصاريف الهوى وجراح الحب:

قفي قبل التفـــرق يـــا ظعينـــا * نخبـــــرك اليقينـــــا وتخبرينــــــا[(١)]**

ويذكرها قفي أيتها الحبيبة: قبل الرحيل نسألك هل دعتك سرعة الفراق المؤلم إلى الظعينة وإلى أن تخوني حبيبك الذي أوفى لك بالعهد:

قفي نسألك هل أحدثت صـــرماً * لوشك البين أم خنـــت الأمينـــا[(٢)]**

---

(١) ديوان النابغة الذبياني ، ص ١٣٨.

(٢) ديوان لبيد، ص١٦٦. ويروى يوم تحملوا ، شاقتك: أثارت شوقك.

(٣) عمرو بن كلثوم: هو بن مالك بن عتاب من بني تغلب أبوالأسود شاعر جاهلي من الطبقة الأولى ولد فـــي شمال الجزيرة العربية في بلاد ربيعة وتجول فيها وفي الشام والعراق ونجد وهو الذي قتل الملك عمرو بن هند مات سنة ٤٠ق هـــ ـــ أنظر الأعلام للزركلي ج٥ ص٨٤.

(١) شرح القصائد العشر تأليف أبي زكريا بن علي بن محمد بن الحسن بن محمد بن موسى الشيباني المعروف بالخطيب التبريزي، حقق أصوله وضبط غرائبه وعلق حواشيه محمد محمي الدين عبدالحميد الناشر مكتبة محمد علي صبيح وأولاده ميدان الأزهر مصر الطبعة الأولى ١٩٦٢م ص ٢٨٨. ظعينا: مرخمة أصلها ظعينة، وهي المرأة في الهودج أو في بيت زوجها.

وهكذا نجد الصراع في جوف الصحراء يؤدي بساكن المكان إلى تركه والارتحال عنه وغالباً ما يكون هذا في أول الصيف حيث تجف مصادر المياه وييبس النبات، فالطبيعة متأثرة بالزمان وتعاقب الفصول التي أدت إلى تهدم المكان، ولذا يقف الشاعر ضعيفاً أمام سطوة الطبيعة التي تقوم بإجباره على الارتحال عن المكان وتركه عرضة للرياح وغيرها من العناصر الأخرى المختلفة التي فرضت عليه الترحال والصراع والمصير المجهول والحب المشتت. وقد بدأ الشاعر طرفة ابن العبد معلقته بالنواح والاحتجاج ثم عبر عن الحزن وكان سببه الوطن المتنقل والطلل البالي والإنسان المرتحل "الظعن"، والرحيل الذي تتبعه الشاعر يوحي له بتتابع الحياة، فالطلل دلالة على الرحيل والتحول ثم رحيل الظعائن الذي يشير إلى الهجرات الجماعية في الصحراء ثم يصبح الموت الذي لا مفر منه وهو الرحيل الذي لا يخطئ شخصاً قال طرفة:

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي * عقيلــة مــال الفــاحش المتشــدد**

أرى الدهر كنزاً ناقصاً كــل ليلــة * وما تنقص الأيــام والــدهر ينفــد**

لعمرك أن الموت ما أخطأ الفتــى * لكالطول المرخي وثنيــاه باليــد**(٣)

فالشاعر يصور في رحلة الظعن كل ما هو جميل فيصف الرحل وصفاً دقيقاً جميلاً ويتمنى لمحبوبته كل ما هو أحسن في الصحراء ولكن عندما يصور رحلته نلحظ أنها غالباً ما تشوبها الصعاب والمعاناة والكدر، وناقته التي تئن من طول الطريق وصعوبته وفي اعتقادي أن وصفه لمحبوبابته والظعن الذي يرحل بغير ما يصف به رحلته ربما لأن الظعن فيه رجال أشداء يحمونه من آفات وأهوال الصحراء وما تلاقيه أو أن الظعن لا تجابهه متاعب ومصاعب أصلاً وتكون هي عادة من عادات العرب قديماً في الصحراء أو لأنه يحمل المرأة وهي تمثل له جانباً ومتنفساً لمعاناته في الصحراء.

---

(٢) المصدر السابق، ص ٢٨٨. صرما: الصرم هو القطيعة، الوشك: هو السرعة، البين: هو الفراق، الأمــين: المأمون الوفي.

(٣) ديوان طرفة بن العبد، ص٢٩، الطول: الحبل، ثنياه اليد: ما انثنى على يديه منه.

وفي ترحالهم عادة ما ينزل العرب في شكل جماعات بعضهم إلى بعض فيصور لنا الشنفرى[١] أصواتهم وجلبتها في قوله:

كأن وغاها حجرتيـــه وحولـــه * أضاميم من سفر القبائـــل نـــزّل**[٢]

فالشاعر يتتبع رحلة الظعائن بتفاصيلها باعتبارها امتداداً للمكان فيصف شكل الظعن ومعانيه ولونه وما يخطر بباله من صفات يضفيها عليه من جمال المنظر وروعة المشهد والتفاؤل والأمل بمواصلة الرحلة. يقول لبيد:

شاقتك ظعن الحي حين تحملوا * فتكنســـوا قطنـــاً تصـــر خيامهـــا**

من كل محفوف يظـــل عصـــيه * زوج عليــــه كلـــــة وقرامهـــــا**

حفزت وزايلها السراب كأنهـــا * أجزاع بيشة أثلهـــا ورضـــامها**[٣]

فقد وصف لبيد وصول الظعن للوادي الخصيب الأخضر فليس من المعقول أن يخرج من حالة اليأس إلى حلم غير جميل، والنزوع إلى المثال ظاهرة مألوفة في الشعر العربي القديم في العصر الجاهلي، ولم نجد شاعراً يحيد عن ذلك ويصور المرأة ومحبوبته في أبهى صوره.

ويقول امرؤ القيس معبراً عن حبه للصحراء وارتباط المكان في وجدانه:

ترى بعر الآرام في عرصـــاتها * وقيعانهـــا كأنـــــه حــــب فلفـــل**

كأني غداة البين يوم تحملـــوا * لدى سُمرات الحي نـــاقف حنظـــل**

---

(١) الشنفرى: هو عمرو بن مالك الأزدي من قحطان شاعر جاهلي يماني من فحول الطبقة الثانية وهـــو أحـــد الخلعاء الذين تبرأت منهم عشائرهم وهو صاحب لامية العرب، وقد شرحها الزمخشري في أعجب العجب توفي سنة ١٠٠ق هـــ ــ أنظر الأعلام للزكلي ج٥ ص ٨٥ ــ تاريخ الأدب العربي ألفه بالألمانية كارل بروكلمـــان أشرف على الترجمة محمود فهمي حجازي الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣م ج١ ص١٦٣.

(٢) لامية العرب للشنفرى. دراسة نقدية ابداعية. د.محمد علي أبوحمده دار عمار للنشر والتوزيع الطبعة الثانية ٢٠٠١م، ص ١٠.

(٣) ديوان لبيد، ص ١٦٦. الظعن: جمع ظعينة وهي المرأة في الهودج، التكنس: دخول الكناس والظعن جمـــع ظعنة وهو الجماعة، الصرير: صوت الباب، العصى: عيدان الهودج، الزوج: نمط من الثياب، الكلـــة: الســـتر الرقيق.

وقوفاً بها صحبي على مطيهم * يقولون لا تهلك أســىً وتجمــل**(١)

فالشاعر يشبه اشتياقه وانهمار الدموع من عيونه بصورة أخرى مستمدة من المكان والطبيعة الصحراوية بناقف الحنظل في سيلان الدموع لكليهما فالمكان له أهمية إذ يطبع الفكر والثقافة والألفاظ والمعاني بجاذبية سحرية إيحائية تستمد أنفاسها وروحها من وحيه.

وأما رحلة الشاعر في الصحراء وجه من وجوه البطولة ومظهر من مظاهر الشجاعة والقوة ومقدرة على مواجهة الأهوال والنصب وهذه المعاني نجدها تقترن عند الشعراء مع معاني السخاء وبسط اليد والمروءة والنجدة والشجاعة لملاقاة الأعداء وتكبد المشاق، وأن الشاعر كثيراً ما يذكر هذه المعاني عند وقوفه مفتخراً بنفسه وقوته، وأن الرحلة في وجدان الشاعر تمثل إحدى فضائله ومفاخره، والرحيل عند الشاعر قد يكون رحيلاً فعلياً صاغه في قصيدة فيصف متاعبه وما لاقاه من نصب أو رحيلاً ذهنياً تخيل الشاعر أن كل شئ أمامه فيقوم بنسج ما يترآى له في مخيلته فيروي متاعب ناقته وما وجدته من تعب في مجاهل الصحراء. يقول النابغة الذبياني واصفاً إحدى رحلاته في الصحراء:

بانت سعاد وأمسى حبلها إنجــذما * واحتلت الشرع فالحيين مــن أضــما**
غرّاء أكمل من يمشي علــى قــدم * جسماً وأحسن من حاورته الكلمــا**(١)

ويقول النابغة أيضاً:

أفد الترحــل غيــر أن ركابنــا * لمــا تــزل برحالهــا وكــأن قــد**
في إثر غانية رمتك بســهمها * فأصاب قلبك غير أن لم تقصــد**(٢)

---

(١) ديوان أمرئ القيس ص١١١.

(١) ديوان النابغة الذبياني، ص١٠٥-١٠٦. أضما: موضع، حبلها: عهدها.

(٢) المصدر السابق،ص٣٠، أفد: دنا وقرب، كأن قد: كأن قد زال.

وطبيعة الصحراء التي عاش فيها البدوي أثرت في حواسه وصقلتها، فكان قوى التكوين لترحاله المستمر حديد البصر سريع العدو، جاف العود، يتنبأ بالخطر في تلك الربوع الواسعة قبل قدومه ويتنبأ عن الطبيعة وأحوالها وتقلباتها، وقد ورد ذلك في كثير من أشعارهم وكان للرياضة أثرها في حياة أهل الصحراء فأصبحت لديهم هواية ومتعة. وامرؤ القيس يشيد بقدرة فرسه على صيد الوحشي وتمكنه منه في رحلته في الصحراء:

فعن لنا سرب كأن نعاجه * عذارى دوار في ملاء مذيل**

فأدبرن كالجزع المفصل بينه * بجيد معمّ في العشيرة مخول**

فألحقنا بالهاديات ودونه * جواحرها في صرة لم تزبل**(٣)

وقد يتنقل المرء فيغادر للصحراء عندما تأتيه هموم الحياة فهي متنفس فيبوح فيها بكل شئ كامرئ القيس يركب فرسه قبل استيقاظ الطيور من وكناتها على حصانه العربي الكريم الأصل القوي، فهو مدرب على الكر والفر والإقبال والإدبار كميت اللون ضخم الجسم، ضامر قصير الساق، طويل، وظهره أملس في عدوه تتابع وسهولة، واتزان وسرعة تشل حركة الأوابد فيقذف براكبه الخفيف ويمزق ثياب الثقيل. يقول واصفاً رحلته وفرسه:

وقد اغتدي والطير في وكناتها * بمنجرد قيد الأوابد هيكل**

مكر مفر مقبل مدبر معاً * كجلمود صخر حطه السيل من عل**(٢)

وفي أثناء هذه الرحلة التي يقوم بها الشاعر راكباً فرسه يعرض لهما سرب من البقر الوحشي كأن هذا القطيع نساء عذارى ولا تغير الشمس من ألوانهن ولم يستطع القطيع الفرار لسرعة فرسه، ولما كثر الصيد أصبح ا لطهاة ينضجون اللحم غلياً وشياً. يقول:

فعن لنا سرب كأن نعاجه * عذارى دوارٍ في ملاء مذيل**

فظل طهاة الحي من بين منضج * صفيف شواء أو قدير معجل**

---

(٣) ديوان أمرئ القيس، ص ١٢٠.الجزع:الخرز فيه أبيض وأسود، المفصل: الذي يفصل بينه اللؤلؤ، الهاديات: المتقدمات من البقر، الجواحر:المتخلفات من الوحش، الصرة: الصيحة والضجة، لم تزيل: لم تتفرق.

(٢) ديون أمرئ القيس، ص ١١٨-١١٩.

كــأن دمـــاء الهاديـــات بنحـــره * عصـــارة حنّـــا بشـــيب مرجـــل**[٢]

وعند العودة هناك كثير من المشقة والتعب ففي أثناء العودة تتلبد السماء بالغيوم في السماء ويظهر البرق وتهطل المطر فيصور لنا امرؤ القــيس هــذا المشـــهد فـــي الصحراء بقوله:

أصاحِ ترى برقاً أريــك وميضـــه * كلمع اليــدين فـــي حبـــي مكلـــل**

يضئ سناه أو مصــابيح راهــب * أهـــال الســليط بالــذبال المفتـــل**

قعدت وصحبي له بــين ضـــارج * وبـــين العـــذيب بعــدما متـــأملي**

علا قطناً بالشيم أيمـــن صـــوبه * وأيســـره علـــى الســـتار فيـــذبل**

وأضحى يسح الماء عن كل كتيفة * يكب على الأذقان دوح الكنهبـــل**[٣]

فالشاعر يصور كل هذه المشاهد في قصيدته في رحلته في الصحراء وبعد هطـــول الأمطار التي اقتلعت بعض الأشجار والمنازل، وكان هناك خيراً فاخضرت الأرض اليباب وظهر العشب الأخضر فتلونت الأرض كالتاجر الذي أتى بـــألوان الأقمشـــة المختلفة وصاحت الطيور تغني لهطول الأمطار فرحة طربة يقول:

كـــأن مكـــاكي الجـــواء غديّـــة * صبحن ســـلافاً مـــن رحيـــق مفلفـــل**

وألقى بصحراء الغبـــيط بعاعـــه * نزول اليماني ذي العياب المحمـــل**[١]

وهذه الرحلة التي حوت عدداً من المشاهد الخلابة المستقاة من مشـــاهد الصـــحراء وطبيعتها من وصف لفرسه وهو وسيلته للرحلة وتشبيهه ببعض مظـــاهر الطبيعـــة التي حوله كالحجر وهو جلمود في سرعة انحداره ولحاقه بالقطيع وصـــيده، وعنـــد العودة كيف أن الطبيعة أصبحت خلابة بعد نـــزول الأمطـــار واخضـــرارها فهـــذه الصورة المرتبة في شكلها تصور لنا رحلة في الصحراء وكيف أن الشاعر صاغها

---

(٢) المصدر السابق، ص ١٢٠-١٢١.

(٣) المصدر السابق،ص١٢، ضارج والعذيب:مكانان، بعدما متأملي: ما أبعدها تأملت.

(١) ديوان امرئ القيس، ص١٢١-١٢٢، صحراء الغبيط: الحزن وهي أرض بني يربـــوع، بعاعـــه: ثقلـــه ، مكاكي: هو طائر كثير الصفير ، الجواء: البطن من الأرض.

على هذا النسق مبدياً أثر الصحراء في معانيه وكان أثرها البين في كل بيت من أبيات القصيدة.

وللشاعر لبيد كثير من الأشعار التي تتحدث عن الرحلة وهي خير علاج لشدة الشوق للسفر بذاك الطيف في ربوع تلك الصحراء، فقد كان في الجاهلية أغلب السفر للغارة أو المرعى أو بحثاً عن الكلأ كما ورد في أشعارهم. يصف لبيد في إحدى قصائده ذاك الطريق الممتد الذي سلكه بناقته مع طيف الحبيبة حتى أهلكه وأنه طريق ممتد واسع فهو كالثوب الأبيض الهاجري الصنع يذهب بين الآكام ثم يرتفع فوق النجاد والغوائل وكم من مسافر ضلّ الطريق فيها لاتساع نواحيها وبعدها، ولكن الناقة فيها نشطة مسرعة تنازع أطراف الآكام خفافها ثم تحاول أن تخلعها منها بجانب أنها ظلت على طول امتداد الطريق ووعورته تباري زمامها من سرعة السير حتى ذاك الماء الذي لم يطرقه أحد منذ زمن، هذا طريق السفر في الصحراء فهو يصف ناقته في ذاك الطريق الطويل يقول:

فكلفتها وهماً" كأن نحيزه * شقائق نساج يومٌ المناهلا**
فعديتها فيه تباري زمامها * تنازع أطراف الإكام النقائلا**
منيفاً كسحلٍ الهاجري تضمه * إكام ويعروري النجاد الغوائلا**

فسافت قديماً عهده بأنيسه * كما خالط الخل العتيق التوابلا**(١)

ولم يقف الشاعر عند تصوير بعض المعالم الموجودة في الصحراء فحسب ولكنه وصف في شعره جمال ربوعها ووديانها وما تضمه من وحش وطير ووصف النجم والظلمة ورفاقه في الليل، والقمر والهدوء الشامل ويتخلله عزيف الريح وما يتوهمه

(١) ديوان لبيد، ص١١٢-١١٣.كلفتها: جشمتها، الوهم: الطريق الواسع، النحيز: الطريق، الشقائق: جمع شقة وهي قطعة النساج، تباري: تحاذي وذلك من نشاطها، النقائل: جمع نقيلة وهي الخف أي أنها تحاول أن تخلص أخفافها من أطراف الإكام. منيفاً: غالباً، السحل: الثوب، الهاجري: المنسوب إلى هجر، يعروري: يسلك، الغوائل: التي تغول من يمشي فيها.

الساري من أصوات وما يلوح من نيران المضارب وما يراه من البروق. يقول في ذلك:

أصاح ترى بريقاً هب وهناً * كمصباح الشعيلة في الذبال**
أرقت له وأنجد بعد هدء * وأصحابي على شعب الرحال**
يضئ ربابه في المزن حبشاً * قياماً بالحراب وبالإلال**
كأن مصفحات في ذراه * وأنواحاً عليهن المآلي**
فأفرع في الرباب يقود بلقاً * مجوّفة تذّب عن السخال**
وأصبح راسياً برضام دهر * وسال به الخمائل في الرمال**
وحط وحوش صاحة من ذراها * كأن وعولها رمك الجمال**(١)

ويأت على حجر فتخالط نفسه أشواقها وحنينها ويذكره معلماً وثيق الصلة بماضي تجاربه يقول لبيد:

فوقفت أسألها وكيف سؤالنا * صماً خوالد ما يبين كلامها**
عربت وكان بها الجميع فأبكروا * منها وغودر نؤيها وثمامها**
شاقتك ظعن الحي يوم تحملوا * فتكنسوا قطناً تصر خيامها**(٢)

فحياة الصحراء ميزها التنقل والترحال المستمر فقد ارتبط عندهم الزمن فصاغوا له أسماء ومعاني، فحساب الزمن في هذه الأرض الفسيحة يحتاج إلى فترات راحة وقيلولة من عناء الترحال، فخبروا الأنواء والنجوم (ولهم صفات وأسماء

---

(١) المصدر السابق، ص١٠٩. أفرع: أسال ما فيه من ماء، الرباب: أرض بين ديار بني عامر وبني الحارث ابن كعب، البلق: جمع بلقاء ويعني السحابة، مجوفة: غمر جنوبها وبطونها البياض، تذب عن السخال: تدافع عن أولادها، راسياً: ثابتاً، الرضام: الحجارة، ، صاحه: اسم جبل، رمك: سود والمفرد أرمك.

(٢) ديوان لبيد، ص ١٦٥-١٦٦. الصم: الصخور، الخوالد: البواقي يقول: كيف نسأل ما لا يفهم ما يبين كلامها: أي ليس لها كلام فيتبين، والمعنى أنه ليس بها من الأثر ما يقوم مقام الكلام فيبين لنا قرب العهد أو بُعده، عربت: أي خلت من أهلها، النؤى: حاجز يجعل حول الخباء لئلا يصل السيل إليها، الثمام: نبت، شاقتك: أي دعتك إلى الشوق: تحملوا: ارتحلوا بأحمالهم، تكنسوا: دخلوا في الهودج.

أطلقوها عليها "فالساعة الأولى من ساعات الليل الغسق، والثانية العتمة، والثالثة العشوة، والساعة الأولى من ساعات النهار الشروق، والثانية الرأد، والثالثة المتوع"(١).

والرحيل في الصحراء كما أسلفت ظاهرة اتسمت بها الحياة الاجتماعية في ذاك المكان وذلك لأسباب ذكرت آنفاً، ونجد معظم الشعر قيل في الرحل والترحال ولذا كان التداول بين القصائد في الصحراء بين الناس أسرع ما يمكن ، وهناك عبارات النشر والتبليغ أو الإعلام عن فحوى قصيدته فهي كالنشر الصحفي الذي يذيع الخبر والمقصد منها كقول زهير يمدح هرم بن سنان في معلقته:

فمن مبلغ الأحلاف عني رسالة * وذبيان هل أقسمتم كل مقسم؟**(٢)

ويقول أيضاً:

أبلغ بني نوفل عني فقد بلغت * مني الحفيظة لما جاءني الخبر**(٣)

ويقول امرؤ القيس:

وقد اغتدي والطير في وكناتها * بمنجرد قيد الأوابد هيكل**(٤)

ويقول النابغة الذبياني:

أفد الترحل غير أن ركابنا * لما تزل برحالها وكأن قد**(٥)

وقد ذكروا وسائل الرحلة في أشعارهم فهي عادة على الناقة والفرس فوصفوها وأعطوها العديد من الصفات الحميدة. وتلك عبارات تدل على الترحال المستمر يقول أمرؤ القيس:

على قلص يظل مقلدات * أزمتهن ما يعدقن عودا**(٢)

---

(١) الأدب الجاهلي قضاياه أعلامه فنونه، د. غازي طليمان، عرمان الأشقر . دار الفكر المعاصر دمشق سوريا الطبعة الأولى ٢٠٠٢م ص ٨٨.

(٢)ديوان زهير بن أبي سلمى، ص ٤٢.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٢٢، الحفيظة: الغضب يقال أحفظته، نوفل: من بني أسد.

(٤) ديوان امرئ القيس، ص ١١٨.

(٥) ديوان النابغة الذبياني، ص ٣٠. أفد: دنا وقرب. كأن قد: قد زال .

(٢) ديوان امرئ القيس ص٥٥. القلص: الناقة الشابة، مايلعقن :مايجمعن.

على كل مقصوص الذنابي معاود * يريد السرى بالليل من خيل بربـرا**(٣)
على هيكل يعطيك قبل سـؤاله * أفانين جـرى غيـر كـرّ ولا وانٍ**(٤)

ويقول زهير أيضاً ذاكراً رحلته ووسيلته:

على لاحب مثل المجرة خلتـه * إذا ما علا نشزاً من الأرض مهرق**(٥)
على كل صهباء العشانين شامذ * جماليـة فـي رأسـها شـطنان**(٦)

ويقول عنترة أيضاً:

على مهرةٍ منسـوبةٍ عربيـةٍ * يطير إذا ما اشتد الوغى بالقوائم**(٧)
فكم ليـلٍ ركبـت بـه جـواد * وقد أصبحت في حصن حصـين**(٨)
وقد لاقيت في سـفري أمـوراً *** **تشيب من له في العهـد عـام**(٩)

فالرحلة في الصحراء أصبحت لها معانٍ ودلالات في قصائدهم وكان لانتشار القبائل وتفرقها في الصحراء أثر وسبب في تلك الرحلة فحياتهم حياة كد وجد ومصير وراء متطلبات الحياة وبذلك جعلت البدوي إنساناً مرتبطاً بالأرض في شؤون حياته جميعاً فربما علاقاته الاجتماعية سبب لذلك أو حياته الاقتصادية أو ربما جـادت السـماء فاخضرت الأرض وربع الناس في طمأنينة، والتقت العشائر والقبائل علـى مـوارد المياه ومنابت العشب فاتصلت بينهم الأسباب وجرت بينهم المودة وتبودلت الأخبـار فإذا انتهى الخريف وجفت موارد المياه ومجامع العـيش حملـوا يطـوون النجـود بالرحيل إلى أماكن أكثر استقراراً وخصباً فإذا بدأ الرحيل هاجه الشـوق والحنـين والهوى إلى ما كان بينهم (لقد كانت الرحلة تقليداً شعرياً أمدتهم بثروة عريضة مـن

(٣) المصدر السابق ص ٦٤ . مقصوص الذنابي: محذوف الذيل، معاود: معتاد، بربر: قبيلة .
(٤) المصدر السابق ص١٦٤. أفانين جرى: ضروب من السير، كذ: منقبض، لاوان: ليس به فتور.
(٥) ديوان زهير ص ١٨٩. النشز: الارتفاع عن الأرض، مهرق: صحيفة .
(٦) المصدر السابق، ص٢٦١. العشون: الشعر الذي تحت لحي الجمل. شامذ: رافعة ذنبها. جمالية: عظيمة، شطنان : حبلان .
(٧) ديوان عنترة ص ١٣٤.
(٨) المصدر السابق ص ١٤٩.
(٩) المصدر السابق ص١٣٥.

معاني الفرقة، والبعد فجمعوها بإحساس البخيل وأنفقوها بعقله وبرهنوا بذلك على قدرة عقلية عالية"(١).

فكانت رحلة الظعن على الراحلة والتي انتشرت كانتشار القبائل بأشكالها في سوح الصحراء الممتدة فهي حياة ومصير وكد وجد وراء متطلبات الحياة (وكانت رحلة الشاعر إلى الممدوح شاقة تختار إليه الناقة السريعة التي لم تكن بحاجة إلى من يستحثها أو يستعجلها"(٢).

فالعربي لا يسير وحده في الصحراء إلا للضرورة وأغلب السفر مع الأصحاب أو القافلة، وإذا أراد الشاعر أن يعلم ممدوحيه أنه وصله وحيداً كقول الأعشى:

وخرق مخوف قد قطعت بجسرة * إذا خب آل فوقه يترقرق**

هي الصاحب الأدنى وبيني وبينها * مجوف علاقيّ وقطع ونمرق(٣)**

وإذا قطع الصحراء الجرداء العمياء الموحشة المذاهب والأطراف تاه في مسالكها. يقول الأعشى أيضاً:

فدع ذا ولكن رب أرض متيهة * قطعت بحرجوج إذا الليل أظلما(١)**

أيضاً من أسباب الرحلات في الصحراء الطرد والصيد فهي وسيلة للرزق والمتعة، وهي عادة متوارثة من قديم الزمان، ويبدو أن الصيد لم يكن من عادة شرفائهم وفرسانهم إنما للفقراء منهم من العرب ولذلك لم يرد دلالة على الفروسية والبطولة فقال الجاحظ: "لقد وجدنا العرب يستذلون الصيد ويحقرون الصياد كما جاء في قصيدة عمرو بن معد يكرب يهجو بها قوماً يعيشون على الصيد

---

(١) الرحلة في القصيدة الجاهلية: د.وهب رومية مؤسسة الرسالة الطبعة الثالثة ١٩٨٢م ص٢١.

(٢) تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام د.نوري حمودي القيسي. مصطفى عبداللطيف ١٩٧٩م دار الحرية بغداد ص ١٩٥.

(٣) ديوان الأعشى ص١١٨.خرق:الصحراء الواسعة، جسر: الناقة الضخمة، خبء: خفق، الآل: السراب، يترقرق: يجيء ويذهب، مجوف: العظيم الجوف، العلاقي: الرجل العظيم، النمرق: وسادة تلقى على الرحل.

(١) ديوان الأعشى، ص ١٨٧.

أبني زيـــاد أنـــتم فـــي قـــومكم * ذنب ونحن فـــروع أصـــل طيـــب**
نصل الخميس إلى الخميس وأنتم * بـــالقهر بـــين مريّـــق ومكلّـــب**
ولا يحسبن بنو طليحـــة حربنـــا * سوق الحميـــر نجاتـــه فالكوكـــب**
حيدٌ عن المعروف سعى أبـــيهم * طلب الوعول بوفضـــة وأكلـــب(٢)**

ولكن الحارث بن حلزة(٣) يفتخر بأنه صاحب لهو وشرب وصيد في قوله:

ومدامـــة فرّعتهـــا بمدامـــةٍ * وظباء محنية ذعـــرت بســـمحج(٤)**

ويصف امرؤ القيس الصياد وهو لاصق بالأرض يخفي نفسه من الصيد كي لا تفر وهو مشهد متداول لديهم في الصحراء يقول:

بعثنا ربيئـــاً قبـــل ذاك مخمـــلا * كذئب الغضى يمشي الضراء ويتقي**
فظلّ كمثل الخشف يرفع رأسه * وســـائره مثـــل التـــراب المـــدقق**
وجاء خفياً يسفن الأرض بطنه * ترى الترب منه لاصقاً كل ملصق(٢)**

وكان بعضهم يفخر في صبره بعدم مخاتلته ويجاهد وينادي من بعيد لسرعة فرســـه الذي يلاحق الوحش مهما كانت سرعته. يقول علقمة بن عبده الفحل(٢):

---

(٢) الأغاني أبو الفرج الأصفهاني، طبعة جديدة ممقحة شرح وكتب هوامشه الأستاذ سمير جـــابر دار الكتـــب العالمية بيروت ١٩٩٥، ج١، ص٩.

(٣) الحارث بن حلزة بن مكروه بن يزيد اليشكري الوائلي شاعر جاهلي من أهل باديـــة العـــراق وهـــو أحـــد أصحاب المعلقات ارتجل معلقته بين يدي عمرو بن هند الملك بالحيرة ، توفي في نحو ٥٠قبل الهجرة من آثاره ديوان شعر ــ أنظر الأعلام للزركلي، ج٢ ص١٥٤.

(٤) ديوان الحارث بن حلزة، جمعه وشرحه وحققه د.امين بديع يعقوب الناشر دار الكتاب العربي الطبعة الأولى ١٩٩١م ص ٤٢. المدامة: الخمر، فرّعتها: مزجتها، المدامة: الثانية ماء السحاب، وجعله مدامه لطـــول لبثـــه واتصال مطره، المحنية: منعطف الوادي، ذعرت: أخفت، السمحج: الطويل، المقصود به الفرس الطويل.

(٢) ديوان امرئ القيس، ص١٠٥، الربيء: الرقيب المتشوق، مخملاً: متستر بأوراق الشجر لئلا يراه الصـــيد فيفر، الغضى:شجر ضخم، يمشى الضراء: يختفي بالشجر ، فظل كمثل الخشف: يرفع رأسه : يعنى أن هذا الرقيب الذي بعثناه كان يزحف على أربعته كالخشف وهو ولد الظبي يرفع رأسه تارةً ويخفضه تارةً أخرى مثل التراب للصوقه بالأرض، يسفن الأرض: جاء وكأنما يقشر الأرض لزحفه على بطنه وقد لصـــق بـــه التراب فهو لا يكاد يبين.

إذا ما اقتنصنا لم نخاتل بجنــة * ولكن ننادي من بعيــد ألا أركــب**
أخاثقة لا يلعن الحيُّ شخصــه * صبوراً على العلات غير مسبب**[٣]

ويقول زهير حول هذا المعني:

إذا ما غدونا نبتغي الصيد مرة * متــى نــره فإننــا لا نخاتلــه**[٤]

وكانت وسائل الصيد عندهم الخيل والكلاب وغيرها فيطردون بها الصيد لمعاشــهم، وقد ورد تصوير الخيل كثيراً . يقول امرؤ القيس في طرده بالخيل ولحاقها به:

كأن دمــاء الهاديــات بنحــره * عصارة حنّــاء بشــيب مرجــل**[٥]

أما الأسلحة التي كانت تستخدم للصيد فهي السهام والنبال والرمــاح[٦]. وإذا يئس الصياد من بلوغ السهام أرسلوا الكلاب، قال لبيد مصوراً ذلك:

حتى إذا يئس الرماة وأرســلوا * غضفاً دواجــن قافلاً أعصامها**[١]

ولذلك استطاع الشعراء تصوير هذه البيئة الصحراوية أجود تصوير لما فيها من متع الحياة في الطرد الذي يمتد مع امتداد الصحراء فخبروا وسائله وطرقه وأماكنه أيما معرفة. ولامية الشنفرى والتي مطلعها:

أقيموا بني أمي صدور مطــيكم * فإني إلى قــوم ســواكم لأميــل**[٢]

---

(٢) علقمة بن عبده (بفتح العين والباء) بن شاره بن قيس من بني نميم شاعر جاهلي من الطبقة الأولى كانت له مساجلات مع أمرئ القيس له ديوان شعر شرحه الأعلم الشنتمري توفي نحو ٢٠ قبل الهجرة ــ أنظــر تــاريخ الأدب العربي كارل بروكلمان ، ج١ ص١٥٤ ــ الأعلام للزركلي ج٤ ص٢٤٧.

(٣) علقمة بن عبده الفحل، تأليف عبدالرازق حسن المكتب الإسلامي بيروت الطبعة الأولى ١٩٨٦م ص٥٣.

(٤) ديوان زهير ص١١٦. أي نحن مدركون بفرسنا ما نبتغيه فنحن لا تخاتل الصيد ولكننا نجاهره .

(٥) ديوان أمرئ القيس، ص١٢١.

(٦) الطبيعة في الشعر الجاهلي، د.نوري حمودي القيسي ،ص٣١٠.

(١) ديوان لبيد ، ص١٧٤، يقول حتى إذا يئس الرماة من البقرة أن ينالها نبلهم أرسلوا الكلاب المسترخية الآذان الضاريات التي يبست قلائدها في أعناقها من التعود .

(٢) لامية العرب للشنفرى ،ص٩.

والتي يصور فيها حياة الصحراء تصويراً صادقاً وعاكساً ثقافتها الاجتماعية، وقد تحدث بعض الفلاسفة والكتاب عن المجال المكاني ليس هناك ثمة فصل بين الزمان والمكان في سعيهما إلى معرفة النصوص الأدبية ولذلك نجد ارتباط الإنسان بالمكان وإحساسه به شيئا فطرياً، والمكان يثمثله الشاعر فيصف كل ما فيه من حيوان وجماد، فالشاعر البدوي لجأ للمكان في كل أشعاره من خلال وصفه للصحراء بكل مكوناتها وجزيئاتها التي وردت في ثنايا قصائدهم الشعرية من خلال ارتباط روحي ووجداني متعلق بالبيئة والمكان. يقول امرؤ القيس:

ترى بعر الآرام في عرصاتها * وقيعانها كأنه حب فلفل**(٣)

فقد تتبع الشاعر كل شئ في المكان الذي يصفه، ولذلك فالمكان يطبع الفكر والثقافة والألفاظ والمعاني بجاذبية سحرية إيحائية توحي به وإليه، فالأدب في البيئة الحضرية بالطبع يختلف عن الأدب البدوي فلكل واحد سمات وأصالة وفكر وعمق وإحساس الشاعر في كلٍ.

(٣) ديوان أمرئ القيس، ص ١١١.

ذكر بعض أسماء الأماكن التي وردت في أشعارهم ومدلولاتها:

ولما كان الشاعر العربي ينطق بلسان قومه في حربهم وسلمهم في فخـــرهم وهجائهم، أيضاً تناول الشاعر أغراض الشعر الأخرى متناولاً العديد مـــن عـــادات البدو في الصحراء ولذلك جاءت من الأسماء التي وردت في أشعارهم فكثر ذكرهـــا في الغزل بتناولهم لأماكن محبوباتهم والوقوف على الأطلال ومسيرهم في الصحراء وأماكن الماء والكلأ، ووردت في الحروب وأيام العرب فتـــأتي القصـــيدة مفصـــلة للمكان وذاكرة ومفصلة له بكل مكوناته، ولو تتبعنا الشعر العربـــي القـــديم لوجـــدنا أسماء لا تحصى لأسماء الأماكن والمواضع وأحسب أن ذكر تلك الأسماء وتحديدها يريد الشاعر منها الإيضاح والتحديد وذلك لاتساع الصحراء وعدم معرفة الأمـــاكن إلا بتحديدها وتمييزها أيضاً ما يخطر للشاعر من حب وسلوى.

وأورد لبيد في قصائده العديد من الأماكن والمواقع التي حملت معانيها فـــي أغراض مختلفة ولمواقف متباينة فهي وصف للصحراء بكل مواقعها وتعتبر أشعاره في العديد منها بمثابة إيجاد صورة متكاملة لبيئات الصحراء العربية ونـــذكر منهـــا قوله:

غلب تشـــذر بالـــذحول كأنهـــا * جنَّ البـــدِّي رواســـيا أقـــدامها**(1)

البدي: هو موضع ماء لبني عامر بنجد.

ويقول:

بأحزة الثلبـــوت يربـــأ فوقهـــا * قفر المراقـــب خوفهـــا آرامهـــا**(2)

الثلبوت: وهو ماء لبني ذبيان أو وادي بين قبيلة طي وذبيان.

ويقول:

بمشارق الجبلـــين أو بمجحّـــر * فتضـــمنتها فـــردة فرخامهـــا**(3)

فردة: جبل منفرد، فردة ماء بالثلبوت.

---

(1) ديوان لبيد، ص ١٧٧. الغلب: الغلاظ الأعناق، تشذر: أي يوعد بعضهم بعضاً، تشذرت: الناقة إذا شـــالت بذنبها، الذحول: جمع ذحل وهو الحقد، البدي: البادية، الرواسي: الثوابت.

(2) المصدر السابق، ص ١٦٩.

(3) المصدر السابق، ص ١٦٧.

ويقول:

حُفزت وزايلها السراب كأنهـا * أجزاع بيشة أثلهـا ورضـامها**[1]

بيشه: اسم وادي من أودية تهامة.

ويقول:

عفت الديار محلهـا فمقامهـا * بمنى تأبـد غولهـا فرجامهـا**[2]

منى- الغول: أسماء جبال، الرجام: جبل طويل وهضاب ببلاد بني عامر.

وقوله:

فمدافع الريان عـرى رسـمها * خلقاً كما ضمن الوحيَّ سـلامها**[3]

الريان: جبل في ديار طىء وواد في أرض كلاب.

ويقول عنتر بن شداد ذاكراً بعض الأماكن المعهودة لهم:

وتحل عبلة بـالجواء وأهلنـا * بـالحزن فالصـمان فـالمتثلم**[4]

قال أبو جعفر: الجواء: بنجد، الصمان: موضع وقيل جبل[5].

ويقول عنترة أيضاً:

كيف المزار وقد تربـع أهلهـا * بعنيـزتين وأهلنـا بـالغيلم**[6]

---

(١) ديوان لبيد، ، ص ١٦٦. حفزت: دفعت واستحثت في السير، زايلها السراب: دفعها سراب إلى سراب، السراب: لمعان الشمس في الفضاء، بيشة: موضع، الأثل: شجر، الرضام: صخور عظام يجتمع بعضها إلى بعض [المعنى هذه الجمال لما زايلها السراب تبينت كأنها شجر قد ضربته الريح فهو يخفق أو كأنها جبال صغار].

(٢) ديوان لبيد، ص ١٦٣. عفت: درست، تأبد: توحش، المحل: حيث يحل القوم من الدار، المقام: حيث طال مكثهم فيه، منى: موضع، الغول والرجام: جبلان.

(٣) المصدر السابق، ص ١٦٣. المدافع: مجاري الماء وهي التلاع، الريان: وادي بالحمى، عرى رسمها خلقاً: أي ارتحل عنه، فعرى بعد أن أخلق لسكونهم إياه، والوحى: الكتاب [المعنى أن آثار هذه المنازل كأنها كتابة في حجارة لأنه لا يتبين من بعيد لأن نقشه ليس بشئ مخالف للونه كأنما يتبين لمن يقرب منه]، السلام: الحجارة.

(٤) ديوان عنترة، ص ١١٨. الحزن: جبل لبني يربوع، الصمان: لبني تميم، مثلم: مكان.

(٥) المصدر السابق، ص١١٨.

(٦) المصدر السابق، ص١١٨، تربع القوم: نزلوا في الربيع، كيف أزورها وقد بعدت عني بعد قربها وإن كان زيارتها.

عنيزتان والغيلم: موضعان.
ويقول أيضاً :

شربت بماء الدحرضين فأصبحت * زوراء تنفر عن حياض الـديلم**(١)

الدحرضين والدحرضان: اسم موضع.

وكثرت ديار العرب التي تغنى بها الشعراء وأوردوها في قصائدهم "وقديماً كانت هي الحجاز التي تشتمل على مكة والمدينة واليمامة ومخاليفها، ونجد الحجاز متصلة بأرض البحرين وبادية العراق وبادية الجزيرة وبادية الشام، واليمن المشتملة على تهامة، ونجد اليمن وعمان وبلاد صنعاء وعدن"(٢).

يقول الحارث بن حلزة:

بعد عهد لنا ببرقة شماء * فأدنى ديارها الخلصاء**(٣)

ببرقة شماء: اسم هضبة، الخلصاء: بلد بالدهناء معروف، وقيل أرض بالبادية فيها عين.

ويقول الحارث بن حلزة أيضاً يصف موضعاً :

فالمحياة فالصفاح فأعناق * فتاق فعاذب فالوفاء**(٤)

المحياة، الصفاح، أعناق، فتاق، عاذب، الوفاء، كلها أسماء أماكن .

ويقول أيضاً:

فرياض القطا، فاودية الشر * بب فالشعبتان فالأيلاء**(٥)

أيضا: رياض القطا، أودية الشربب، الشعبتان، الأيلاء: كلها أسماء مواضع.

ويقول أيضاً:

---

(١) ديوان عنترة ص١٢١، الدحرضان: اسم موضع ، الديلم:الأعداء .

(٢) كتاب صورة الأرض، لابن حوقل أبي القاسم بن حوقل النصيبي، منشورات دار مكتبة الحياة، لبنان، ١٩٩٢م، ص ٢٩.

(٣) ديوان الحارث بن حلزة،ص١٩. العهد: اللقاء يقول أذنتنا بفراقها بعد ان لقيتها ببرقة شماء، وخلصاء التي هي أقرب ديارها إلينا.

(٤) المصدر السابق، ص ٢٠.

(٥) المصدر السابق، ص ٢٠.

وبعينيــك أوقــدت هنــد النــا * ر أخيــراً نلــوي بهــا العليــاء**[1]

العلياء هنا يشير للمكان العالي أو المرتفع وهو يريد الحجاز، وما يليه من بلاد قيس.
وكقوله:

فتنــوّرت نارهــا مــن بعيــد * بخزازى هيهات منــك الصــلاء**[2]

خزازى: جبل بين منعجن وعاقل.
وكقوله أيضاً:

أوقدتها بين العقيق فشخصــين * بعــودٍ كمــا يلــوح الضــياء**[3]

العقيق وشخصان: موضعان.
ويقول في مستهل قصيدة أخرى:

ولــو أن مــا يــأوى إلــيّ * أصــاب مــن ثهــلان فنــدا**[4]

ثهلان: اسم جبل باليمن وقيل جبل بالعالية.
ويقول امرؤ القيس:

وتحسب سلمى لا تزال كعهدنا * بوادي الخزامى أو على رس أوعال**[5]

وادي الخزامى: موضع وادي، رأس، بئر: أوعال: هضبة يقف بها فارتبط المكــان بمحبوبته سلمى.
وما ذكرت هنا من مواضع على سبيل المثال وهذه شذرات من عــدد كبيــر مــن الأماكن التي وقف عندها الشعراء تارة يقفون عند جبال وأخرى وديــان وأخــرى مواضع آبار وأخرى هضاب أو رمال أو أشجار وغيرها من الأماكن التي يحــددها الشاعر في قصيدته يقصد من خلالها تعيين المكان الذي ارتبط غالباً بمكان إقامته أو محبوبته أو أماكن الأطلال وغيرها من الذكريات التي يجترها الشاعر وهو يجــول

---

(١) ديوان الحارث بن حلزة، ص ٢٠.
(٢)المصدر السابق، ص ٢١.
(٣) المصدر السابق، ص٢١.
(٤) المصدر السابق، ص ٤٥.
(٥) ديوان امرئ القيس، ص ١٢٣.

بنفسه أو بخياله في ربوع الصحراء الممتدة كيف لا وهم الذين خبروهـا فـي كـل أرجائها في وديانها وقيعانها على الرغم اتساعها وهذا يدلل علـى كثـرة التجـوال والمعرفة اللصيقة لتلك الأماكن التي حفظ الشعر أسماءها، وهناك بعض المواضـع التي لم يحفظها التاريخ المدون، ولذلك نجد أهمية هـذه الأمـاكن المـذكورة فـي أشعارهم من حيث التوثيق لتلك البيئة الصحراوية الممتدة ولولا حب هؤلاء الشعراء لأماكنهم لما ذكروها بهذه الصورة ولارتباطهم الوثيق بالأرض التـي كانـت هـي أساس لكل هذا الإرث العظيم سواء كان في العادات والتقاليـد السـمحة أو لـلأدب والشعر الذي أصبح المعين أو لتلك الأخلاق والنخوة العربية الكريمة.

الفصل الثالث

المنـــــــــــــــاخ

بيئة الصحراء : مناخها وخصائصها

لبيئة الصحراء وخصائصها أثر كبير في تشكيل نمط الحياة بصفة عامة وطبيعة وسلوك الإنسان في شكل وخصائص ونمو أشجارها وأعشابها ونمط حياة حيواناتها. "والبيئة تتألف من المكان والزمان والظروف الاجتماعية والاقتصادية والمناخية فالطبيعة من ريح ومطر وحر وبرد لها أثر كبير على واقع حياة الإنسان وتكوينه[١].

والبيئة لما لها من أثر أخذت حيزاً كبيراً عند الأدباء والكتاب في عرض صورها وتأثيراتها "فإذا أردنا تشبيه البيئة بشكل هندسي فأشبه الأشكال بها هو المكعب ويكون الزمان والمكان بمنزلة الطول والعرض، ويكون المجتمع بطبقاته المتمايزة بمنزلة الارتفاع، والإنسان الواحد واقع تحت أبعاد البيئة الثلاثة معاً وهي تحدد موضعه من الدنيا ويضاف إلى كل ذلك نفسه وذاته وبها يتميز عن سواه ممن ينتمون إلى عصره ومكانه وطبقته الاجتماعية"[٢].

ويظهر مناخ الصحراء وطبيعتها من خلال أشعارهم فقد تناولوها في ثنايا قصائدهم في المديح والترحال والطلل والكرم. والشجاعة... إلخ "نجد أن شبه الجزيرة العربية يسودها الجفاف والمطر يندر سقوطه ولذلك فأن أكثرها صحراوية"[٣].

يقول علقمة الفحل مصوراً حرارة الصحراء في إحدى قصائده:

وقد علوت قتود الرحّل يسفعني * يوم تجئ بـه الجـوزاء مسـموم**

حامٍ كـأن أوار النـار شـاملة * دون الثياب ورأس المرء معموم**[٤]

(١) النقد الأدبي الحديث، علي جابر المنصوري، دار عمار الطبعة الأولى بدون ص ٢٢٢.

(٢) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، د. عبد الله الطيب،ج٢ ص ٢٦.

(٣) تاريخ العرب قبل الإسلام، د. السيد عبد العزيز سالم، ص ٧٥.

(٤) ديوان علقمة الفحل، تحقيق مفتي صقال ودرية الخطاب، ط١ دار الكتاب العربي حلب ١٩٦٩م ص٢١٠.

ويذكر أيضاً الأعشى هاجرة الصحراء وسمومها في قوله:

تدلت عليه الشمس حتى كأنها * من الحرّ ترمي بالسكينة قورها**[1]

ويقول أيضاً الأعشى عن شدة حرارة الصحراء:

ووديقـــــةٍ شـــــهباء ردّ * ئ أكمهـــــــا بســـــــــرابها**

ركـــدت عليهـــا يومهـــا * شـــــمس يجـــرٌ شـــــهابها**

حتــــى إذا مـــا أوقـــدت * فـــالجمر مثـــل ترابهـــا**[2]

أيضاً: يصف الشنفرى في لاميته طقس الصحراء الذي تتململ منه الأفاعي من شدة الحرارة وهذا دلالة على أن الصحراء يغلب عليها طقس الحرارة نهاراً في الصيف. في قوله:

ويوم من الشعرى يذوب لوابه * أفاعيه فـــي رمضـــائه تتململ**[3]

وكثيراً ما يتأخر هطول المطر في تلك البيئة الصحراوية ويعم الجـدب أرجاءهـا، والغيث هو حياتهم ولذلك تغنوا بطقس الصحراء الحار فكان الغيث فأل لهم ولـذلك سموا آباءهم بأسماء ومعاني المطر والماء (ومنها المنذر بن ماء السماء[4]، وسموا سحاباً، وغيثاً، وغياثاً، ومطراً والغوث وهو بطن من طى وغوث قبيلة من اليمن[5].

وينعم الناس في فصل الخريف بالخير وتفرح الأرض ويأتي النعيم وتتغيـر الأرض والسماء بالسحب الملبدة بالغيوم.

يقول طرفة بن العبد يصف يوماً من أيام الخريف:

---

(١) ديوان الأعشى، ص٦٨. القور: الواحدة قارة وهي الأرض ذات الحجارة السوداء.

(٢) المصدر السابق، ص ٢١. الوديقة: الحر الشديد أو الوقت الذي يشتد فيه الحر أثناء النهار، شـهباء: أي قاحلة.

(٣) لامية العرب الشنفرى، ص١١.

(٤) المنذر بن ماء السماء بن امرئ القيس الثالث بن النعمان بن الأسود اللخمي وماء السماء أمه واسمها ماوية بنت عوف بن جشم بن هلال بن ربيعة بن زيد مناة وهو ثالث المناذرة ملوك الحيرة وما يليها من جهات العراق في الجاهلية وكان له ضفيرتان من شعره ويلقب بذي القرنين بهما . انتهى إليه ملك الحيرة بعد أبيه نحو سـنة ٥١٤م وهو باني قصر الذوراء في الحيرة . قتل في موقع يقال له عين أباغ على طريق الفرات إلى الشام سنة نحو ٦٠ قبل الهجرة ــ أنظر الأعلام للزركلي ج ٧ ص٢٩٢ .

(٥) المطر في الشعرالجاهلي: د. أنور أبوسويلم ، دار عمار عمان، الطبعة الأولى١٩٨٧م، ص٣١.

إنا إذا ما الغيم أمســى كأنــه * سماحيق ثرب وهي حمراء حرجف**
وجاءت بصراد كــأن صــقيعه * خلال البيــوت والمنــازل كُرْسُــفُ**
وجاء قريع الشول يرقص قبلها * إلى الدفئ والراعي لها متحرف(١)**

ويعبر عن ذات الموضوع عنترة بن شداد بقوله:

إذا الريح جاءت بالجهام تشله * هذاليله مثــل القــلاص الطرائــد**
وأعقب نوء المــدبرين بغبــرة * وقطر قليل الماء بالليــل بــارد(٢)**

وقد عبر الأدب عن البيئة الصحراوية أصدق تعبير وصورها أجود تصوير ونقلهـا نقلاً صادقاً نسي التاريخ الكثير منها، كما ذهب لذلك كثير من الأدباء، ولــذلك أتــى الشعر البدوي في الصحراء عفوياً تلقائياً يحمل براءة تدفقه واختراعه من غير تكلف وافتعال "وجاءت براعة المزج بين الأحاسيس النفسية ومناظر الطبيعة جعلت معظم الشعر دافق تدفق الطبيعة بعفوية الصحراء رائعة كما هو التصفح للوجود"(٣).

تأتي أبيات القصيدة تعبر عن الغرض المعني فيها ولكنها تحمــل أحاســيس الشاعر في نقل طبيعة ومناخ الصحراء فهو لا يستطيع الانفكاك من تلك البيئة التــي يحمل حبها في وجدانه فكانت توجه سلوكه الذي لا ينفك عنه فهي ظرف ومكــان، وتركت فيه أثراً لا تمحوه الأيام من ذاكرة الإنسان في تكوين حياته وبناء حضارته، والإنسان ابن الصحراء ترعرع وانطلق وشيد حضارة الكون وأضاف لبنات أساسية في صرح شموخها وتوجهها فقد أكسبته العديد من المزايا فبعثت فيه العزيمة والقوة والصبر عندما يشتد الهجير نهاراً وهو في سفره وترحاله وظعنه، وأكسبته الــذهن الثاقب والسماحة والمروءة والكرم والذكاء بطول فصول السنة شتاءً وصيفاً وخريفاً .

(١) ديوان طرفة بن العبد، ص١٢٦، سماحيق: شحم رقيق على ثرب الشاة ، الثرب: الشــحم الــذي يغطــي الإمعاء، حرجف: شديدة، كرسف:القطن، قريع الشول: فحل الإبل، متحرف: بعيد.

(٢) ديوان عنترة بن شداد، ص٤١. الجهام: سحاب لا ماء فيه، تشله: تسوقه، هذاليله: القطع المتفرقة، القلاص: الإبل الشابة، الطرائد: ما يطرد من الإبل عند الغارة، النوء: النجم إذا مال للمغيب .

(٣) في العبور الحضاري للامية الشنفرى، دراسة نقدية إبداعية، د. محمد علي أبو حمده، دار عمــار للنشــر والتوزيع، الطبعة الثانية، ٢٠٠١م، ص ١٣.

فالطبيعة من أهم مصادر الإلهام للشعراء يلجأون إليها فتمد قلوبهم بمشاعر الغبطة والفرح والحزن والرجاء والخوف فيزاوجون بين كل هذه المشاعر مجتمعة فيأتي الشعر معبراً عن كل هذه المعاني.

واختلاف بيئات الصحراء قليلاً في أطرافها ووسطها نسبة لتواجد بعض المرتفعات والمنخفضات والوديان والسهول والرمال والحجارة كل ذلك له أثره في الطقس "وقد يظهر أثر قلة المطر في كثرة الصحارى بشبه الجزيرة ويقتحم هذه الصحارى إقليم الحجاز فإذا هو بقاع قاحلة جرداء إلى جانب مناطق غنية خصبة وليس مظهر هذا التناقض هو ذاك فقط، وإنما نجده واضحاً من الناحية الجغرافية أيضاً فبينما نجد الجبال العالية التي تتجمد قممها"نجد أقصى درجات الحرارة في منخفضاتها[١].

والصحراء كما ذكرت فضاء رحب يمنح العقل سعة في التفكير والتدبير والتأمل والنضوج وهي متعة للعين والنفس فيها راحة روحانية، في كل بيئاتها وطبيعتها (ويبدو أن طبيعة الظاهرة الجغرافية في الصحراء لم تكن مثل اليمن التي تغمرها السيول والفيضانات إلا نادراً هذا إلى جانب أن أكثر أهل الحجاز كانوا بدواً لم يصلوا من الحضارة إلى درجة التحكم في هذه السيول والانتفاع بها"[٢].

وهكذا نرى البيئة الصحراوية العربية بين طبيعة يجود فيها الغيث حيناً ويشح حيناً آخر، وتخضر وديانها في مواضع وتقحط في مواضع أخرى، وتنساب النسائم رقيقة خفيفة منعشة في بعض المرتفعات، وتقسو حرارة الهجير في البعض، ولذلك نجد البدوي عرف الصحراء قبل معرفته بالبحر ومنابع المياه، ورأى نباتاتها وحيواناتها وزرقة الماء فيها، ولامس أديمها جلده دون حائل، وجال في حزونها وسهولها وجبالها وسرّح أنعامه في أفيائها، وشم أريج أزهارها ونبتها، واستنبط الماء من جوفها للشاربين، وافتن في شئون الحياة على ظهرها في صيفها وشتائها وخريفها.(وكلمة العرب تنبئ عن الصحارى والغفار والأرض المجدبة التي لا ماء

(١) شعر الهذليين في العصرين الجاهلي والإسلامي، تأليف د. أحمد كمال زكي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٩م، ص ١١.

(٢) الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، د. يوسف خليف، دار المعارف بمصر بدون، ص ٦٧.

فيها ولا نبات وقد أطلق هذا اللفظ منذ أقدم العصور ... ولجزيرة العرب أهمية بالغة من حيث موقعها الطبيعي والجغرافي فإنها في وضعها الداخلي محاطة بالصحارى والرمال من كل جانب ولأجل هذا صارت الجزيرة حصناً منيعاً لم يستطع الأجانب أن يحتلوها)(١).

ولعل الطقس الحار الذي غلب على الصحراء أخذ حيزاً كبيراً في ثنايا قصائد الشعراء نتيجة للتجوال والترحال الذي أصبح ديدنهم وكثيراً ما يصف الشاعر الجائع والملهوف ممن قذفت بهم الصحراء في فم الموت يطرقون البيوت بحثاً عن الشراب والطعام فتأتي الأبيات معبرة عن هذه الموقف ومصورةً حرارة الصيف أو برودة الشتاء.

الفضاء الواسع في الصحراء جعل الطقس شتاء أو صيفاً يغطي كل مساحاتها ففي فصل الشتاء يكون البرد شديداً فيجمد الماء ويقل الجدب، ويضطر البدو إلى تقريب بيوتهم إلى بعضها ليخفف من شدة البرد عليهم. يقول طرفة:

إني من القوم الذين إذا * أزم الشتاء ودوخلت حُجره**

يوماً ودُونيت البيوت له * فثنى قبيل ربيعهم قرره**

رفعوا المنيح وكان رزقهم * في المنقيات يُقيمه يسره**(٢)

ويقول لبيد يصف يوماً بارداً في الصحراء وكيف أن البرد دفعه لذبح الجذور :

ذعرت قلاص الثلج تحت ظلاله * بمثنى الأيادي والمنيح المعقب**(٢)

---

(١) الرحيق المختوم تاليف صفي الرحمن المباركفوري الطبعة السابعة عشر ٢٠٠٥م دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع المنصورة ،ص٢١ .

(٢) ديوان طرفة بن العبد، ص ١٢١.أزم: اشتد، حجره: غرفه، دوخلت: جعلت واحدة داخل أخرى يسكن فيها من البرد، دونيت: قرب بعضها من بعض، ثنى: عطف، قرره: الواحدة قره وهي البرد، المنيح: قدح مستعار لا يأخذ صاحبه شيئاً، المنقيات: النوق السمينة، يسره: القوم المجتمعون على الميسر.

(٢) ديوان لبيد، ص٣١، ذعرت قلاص الثلج : أي دفع البرد عن الناس بإطعامهم ،مثنى الأيادي: مافضل من الجذور، المعقب: فهو المجبر الذي انكسر وجبر، المنيح المعقب : القدح المشدود بالقصب علامة عليه .

ومن علامات الشتاء أن تصبح أياديهم سوداً من نار التدفئة فيصور عروة إبن الورد ذلك في أبيات بعد أن تحدث عن كرمه، ويأتي دائماً ذكر الشتاء مقروناً مع القِرى والكرم والعطاء. يقول عروة معبراً عن ذلك:

قعيدك – عمر الله هل تعلمين * كريماً إذا اسودَّ الأنامل أزهرا**

صبوراً على رزء الموالي وحافظاً * لعرض حتى يؤكل النبت أخضرا**

أقبّ ومخماص الشتاء مرزأ * إذا أغبرّ أولاد الأذلة أسفرا[(١)]**

ويقول: إذا جاء الشتاء واشتد البرد غشي الناس النيران فاسودت أناملهم ومعاصمهم من الوقود، وأنه يصون عرضه عن الذم ولم يزل يقري ويكرم إذا جهد الناس حتى تخرج السنة ويورق الشجر ويقبل الخصب فيعود العود أخضر بعد يبسه.

"وكانت معاناة العربي من الطبيعة الكئود عظيمة سواء في يسرها أم في عسرها فإذا أجدبت جاءت بالعذاب وإن مطرت صبت الموت الزؤام فيشتد بردها حتى يجمد المطر على أهداب عيوب الإبل ويتلظى حرّها حتى تكاد تزهق الأنفس من سعيرها"[(٢)].

وصف الشعراء الصحراء بكل مكوناتها من نبات وجماد وحيوان "وبلغ من احتفالهم بالحيوان أن كنوه كما يكنى الإنسان فقالوا للأسد أبا الحارث، وللثعلب أبا الحصين، وللفرس أبا مضاء، وللنعامة أم رئام"[(٣)]. وهذا دلالة على إعزازهم للحيوان ومشاركتهم له في أماكن تواجده فاجتمعوا كلهم داخل بقعة الصحراء.

بل وصفوا الرياح التي تحمل المطر ورياح الشتاء ووردت إشارات كثيرة في دواوينهم تعبر عن هذه الرياح وقسوتها ورطوبتها وشدتها وللرياح مواقيت يعرفون بها فصول السنة فيتفاءلون من بعضها ويتشاءمون من أخرى، فعندما تهب الريح من الجنوب أو اليمانية واتجاهها من اليمن يقترن ذكرها بالأمطار في حديث الشعراء فإذا تحدثوا عنها كان الحديث عن الخصب والخير والخضرة.

---

(١) ديوان عروة بن الورد، جمع وشرح كرم البستاني، دار صادر، بيروت، ص ٣٤.. رزء الموالي: أي منالتهم، حافظاً لعرضي: يقول أصون عرضي عن الذم وأعرضه للحسد، مرزأ: أي ينال ويصاب الخير، ولا يخيب على أحد، الأذلة: الواحد ذليل، أي اللئيم.

(٢) المطر في الشعر الجاهلي، د. أنور أبو سويلم، ص ٢١.

(٣) الأصول الفنية للشعر الجاهلي، د. سعد إسماعيل شلبي، القاهرة، مكتبة غريب، طبعة ١٩٧٧م ص ٢٣٦.

قال طرفة يصف ريح الجنوب وهي تستدر السحاب لينزل الماء على ديار حبيبته:

مرته الجنوب ثم هبت له الصبا * إذا مسّ منها مسكناً عُدْمُلا نزل**(١)

وفي نهاية فصل الخريف بدأ البدو بالرحيل والتفرق في أرجاء الصحراء وكان يبعث في نفوسهم الحسرة والحزن والألم، ومن هنا جاء ذكر الظعن والرحيل والبكاء وراء الراحلين في العديد من كتب الأدب والأشعار وهي تفيض بالألم والحسرة، وقد اقترنت هذه الفترة بريح السموم ولهيب شمس الهاجرة ولكن رغم قساوتها فهي غنية بالجمال الأصيل ومليئة بالمحاسن المطبوعة والصفات الموروثة فلا يجد إلا اتساعاً في الطبيعة، وأفقاً ممتداً وصفاءً في اللون، وانطلاقاً في الحياة، فهذه الطبيعة لها تأثيراتها من كل جوانبها.

تحدث الجاحظ عن البدوي في الصحراء فقال: "ولحاجته يعني العربي إلى الغيث وفراره من الجدب وضنّه بالحياة اضطرته الحاجة إلى تعرّف شأن الغيث ولأنه في كل حال يرى السماء وما يجري فيها من كواكب، ويرى التعاقب بينها والنجوم الثوابت فيها وما يسير منها مجتمعاً وما يسير منها فارداً وما يكون منها راجعاً مستقيماً"(٢).

والمطر في البيئة الصحراوية هو الحياة ولذلك جاء النواح عليه أبرز ألحان الحزن والحنين، وعندما تهب عليهم ريح السموم تصبح الأرض جحيماً لا يطاق، وبذا أصبح الترحال سمة من سمات البدو فيلجأ لأماكن الرعي وتعرض له الأطلال وأماكن الحل والترحال.

يقول زهير بن أبي سلمى:

وبلدةٍ لا ترام خائفة * زوراء مغبرة جوانبها**

تسمع للجن عازفين بها * تضبح من رهبة ثعالبها**

يصعد من خوفها الفؤاد ولا * يرقد بعض الرقاد صاحبها**

---

(١) ديوان طرفة بن العبد، ص ٨٦. عدملا: سحاب عظيم كثيف، مرته – استدرته ، نزل: أمطر.

(٢) الحيوان، عمرو بن بحر (الجاحظ)، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، بدون تاريخ، ص ٣٠.

كلفتهـــا عرمســـا عـــذافرة * ذات هباب فعمـــاً مناكبهـــا**(١)

وقد صور كثير من الشعراء امتداد الصحراء وترامي أطرافهـــا ويـــذكر المـــرقش الأكبر في إحدى قصائده واصفاً إياها بتراميها ووحشتها وصور أحد لياليها قائلاً:

قطعت إلى معروفهـــا منكراتهـــا * بعيهامـــة تنســـلُّ والليـــل دامـــس**
تركت بها ليلاً طـــويلاً ومنـــزلاً * وموقد نار لـــم ترمـــهُ القـــوابس**
وتسمع تزقاءً من البوم حولنـــا * كما ضربت بعد الهدوء النـــواقس**
فيصبح ملقى رحلها حيث عرّست * من الأرض قد دبّت عليه الروامس**
وتصبح كالدوداة نـــاط زمامهـــا * إلى شُعب فيها الجواري العـــوانس**
ولما أضأنا النار عنـــد شـــوائنا * عرانا عليها أطلس اللـــون بـــائس**
نبذت إليه حـــزةً مـــن شـــوائنا * حياءً وما فحشي على من أجـــالس**
فآض بها جزلان ينقض رأســـه كما آب بالنهب الكمي المجـــالس(٢)

هذا التصوير البديع الذي صوره الشاعر له دليل وصورة حية لحـــال الصـــحراء ومناخها فقد وصف ربوعها المترامية الأطراف وألجأته رحلته الطويلة أن عـــرس فيها مدة أوقد فيها ناره وظل وحيداً وكانت الرياح تعصف به فعند تحوله من مكـــان لآخر لا يجد أثر ناقته لشدة الرياح، وقد أتى إليه ذئب عند نزولـــه لشـــواء لحمـــه فأكرمه المرقش بقطعة من لحم فرجع مسروراً كأنه فارس ظفر بغنيمة، وكلما ظهر جبل اختفى آخر من السراب الذي يغطيها.

---

(١) ديوان زهير بن أبي سلمى، ص١٩٤، زوراء: ليس طريقها بمستقيم ، مغبرة: من الجدب ، عرمساً : ناقـــة شديدة ، عذافرة: غليظة ، هباب ، ذات نشاط ، فعماً : ممتلئاً .

(٢) المفضليات ،الضبي، ص٤٤٦ . العياهمة: الناقة السريعة الصلبة، القوابس: جمع قابسة وهي التي تطلـــب الثأر، التزقاء: صوت الطائر، عرست: التعريس النزول آخر الليل في مكان للاستراحة فيه، الـــروامس: جمـــع رامسة وهي الريح التي تدفن الآثار، الدوداة: الأرجوحة، العوانس: جمع عانسة وهي التي كبرت ولم تتـــزوج. أطلس اللون: في لونه غبرة إلى سواد يقصد الذئب، نبذت: رميت، حزة: قطعة، آب: رجـــع، جـــزلان: فـــرح، الكمي: الفارس في كامل عدته.

ونجد أن البدوي تعامل مع مكونات البيئة الصحراوية التـي أهدتـه القـوة والصبر والجلد ولم يقنع بالضعيف أو نصيب الواهن فهو ينظر للمعالي مثل طرفـة بن العبد الذي يقول:

أنا الرجل الضرب الذي تعرفونه * خشاش كراس الحيـة المتوقـد**[١]

يضاف لذلك فكر ثاقب وعقل مدبر وحركة دائبـة لا تعـرف الخمـول والقنـوع والاستجمام عرف مجاهل الصحراء وسهولها فكشف ذلك في تجاربه فانساقت حكماً وقولاً شعرياً وسردها بلغة رصينة وأخذ ذلك مشافهة من البيئة بتعابير ومعان قويـة وتصوير بديع، ووصف خلاب يأخذ بمجامع القلوب، فقد أخذ من وقع أقـدام الإبـل التي تضرب في الصحراء الجرداء، فتابع الأثر ووصف الرحل والرمـل والظعـن والحجر، فقد وصف مشي الإبل فأتى شعراً منقولاً فتنشط ثم تسرع للسير في الرحلة ثم تحولت إلى مقطوعات قصيرة موزونة تدرجت إلى قصائد وكانت نواة للشعر.

لذلك " نجد أن للبيئة أثرها الجوهري في خلق الشخصية وتنمية الملكة وصقل الوجدان وطبع الشعور بطابع الرقة أو الغلظة وتنشئة الإنسان على نحو من صرامة الطبع أو لينه"[٢].

لذا نجد أن الصحراء هي أساس فكر وفهم خطـوات الشـعر بعـد أن مـرّ بمراحل متنوعة ولذلك أتى إلينا هذا الشعر يحمل لغة ولون وروح ورائحـة وذوق وأثر وطابع الصحراء، فأتى في تصويره يحمل سـمات الصـحراء مـن طقسـها وطبيعتها الرملية منها والحجرية، برودتها وحرارتها، خريفها وقحطهـا، ووظـف الشعراء شعرهم حاملاً لكل هذه المعطيات دون أن تكون هناك أدنى مقومات العلـم والتعليم الآن يعتبر النواة والمرجع للأدب عامة، فقد زاوجت الطبيعة بـين الحـزن والفرح، والخوف والرجاء، فأتت كل هذه المشاعر معبرة عن البيئة تعبيراً صـادقاً يحمل صفات وأسماء ومعاني الصحراء، فالرياح في ثقافته لها دلالات وفهم وإدراك يعرفون بها مواقع الأمطار وسقوطها وبداية ونهاية الفصول، وريح الشـمال التـي يتشاءمون منها ويعتبرونها نذير شؤم وجدب قال زهير:

---

(١) ديوان طرفة بن العبد ، ص ٤٥.

(٢) في مرآة الشعر الجاهلي، فتحي احمد عامر،مطبعة دار الشروق بيروت لبنان ١٩٧٧م، ص ٨.

فلما أن تحمـــل أهـــل ليلـــى * جرت بينـــي وبيـــنهم الظبـــاء**
جرت سنحاً فقلت لها أجيزي * نوى مشمولة فمتى اللقـــاء؟[1]**

فالمناخ الصحراوي والبيئة عموماً وطبيعتها لها أثر كبير في حياة الناس وتـــوجيههم وطبيعة حياتهم، ومعاشهم، وسفرهم، وترحالهم، وفكرهم وثقافاتهم، ونظرتهم للحياة، ونشاطهم الاجتماعي، وعاداتهم وتقاليدهم، وموروثاتهم، وانعكـــس كـــل ذلـــك فـــي أشعارهم التي هي انعكاس واضح وبيِّن لطبيعة مناخ الصحراء.

(١) ديوان زهير بن أبي سلمى ص٧١.

الباب الثاني

الحياة الاجتماعية في الصحراء

الفصل الأول

تكوين القبيلة وأثرها في الحياة الاجتماعية

تكوين القبيلة وأثرها في الحياة الاجتماعية

كان للبيئة الصحراوية أثرها الواضح في تزويد وتنوع الحيـــاة الاجتماعيـــة بمظاهرها الطبيعية منها والمكتسبة، وقد انعكس ذلك في إثراء مفردات القصيدة التي ولدت فيها وتدفع الشاعر بأن يطوف بـــين الذهنيـــة الإبداعيـــة الجاهليـــة والبيئـــة الصحراوية في نسج الصورة الشعرية من معالم الصحراء الواسعة كالجبال ومواقع النبات وحيوان البادية بجانب اتساع مراحبها وتغاير معالمها ولم تقتصر على ذلـــك بل للصحراء أثر في تركيبة المجتمع البدوي من حيث التكوين القبلـــي والعشـــائري والاجتماعي في ظعنهم وترحالهم وحلهم في أكلهم وشربهم في صيدهم وطردهم في رعيهم وكسبهم لرزقهم في معايشة الواقع الاجتماعي والأدبي والنفسي وفي بلـــورة أفكارهم وأخيلتهم في تفكيرهم وإدارة شؤونهم وسبل حياتهم في النظرة الجماعية لكل لما هو ماثل أمامهم في حربهم وإغارتهم وسلمهم وفي شرب الخمر والمؤانسة وفي كل عاداتهم الاجتماعية وتفاصيلها، فالجماعة هي النظرة الطبيعية لكل بـــدوي فـــي الصحراء ولا توجد لديهم الفردية إلا ما ندر في سلوكياتهم الخاصة، أو مـــا يحملـــه بيت القصيد في حمل المعنى متكاملاً وانعكست هذه الروح في الأدب والشعر علـــى وجه الخصوص فالقصيدة مجتمعة ترمي لمقصد وهدف.

فاتساع الرقعة الصحراوية وقلة منابت العشب وتفرق أماكن تواجـــد الطـــرد والصيد وتواجد الوحوش وقطاع الطرق وتباعد تجمعات البدو في الصـــحراء، مـــع تناسب امتدادها جعل من الجماعة هي المصـــير المحتـــوم والشـــئ المعلـــوم، بـــل وارتبطت بكثير من الصفات والعادات والتقاليد والخلق القويم والنفوس القوية الأبية، فالكرم ديدنهم والمروءة والنجدة مخبرهم وإغاثة الملهوف وجمع الفقـــراء عـــادتهم والقوة والشجاعة والصبر أكسبتها لهم وسادت العفة والحكمة، وتغنوا بها مع كثيـــر من صفات النخوة والإباء. ونجد أن لكل قبيلة منازل في الصيف ومنازل في الشتاء وإذا تنقلت في الصحراء تنقلت في رقعة جغرافية معروفة.

فالبادية الصحراوية تحمل كثيراً من المعاني والدلالات فقد عكس الشاعر كل ما يدور فيها من جمال ذلك الواقع أحياناً وبؤسه أحياناً أخرى، وهى أشـــد لصـــوقاً وعلوقاً بالنفس لأن أكثر ما تقوم على القبيلة والأسرة والوطن وحياة الصحراء أشـــد

إيغالاً في هذا المعنى من أصناف الحياة البدوية فالصورة عند الشاعر تأتي متكاملة لعكس الواقع فيصور لنا لبيد يوماً من أيام الصحراء بقوله:

ويوم هوادي أمره لشماله * يهتك أخطال الطراف المطنب**
ينيخ المخاض البرك والشمس حية * إذا ذكيت نيرانها لم تلهب**
ذعرت قلاص الثلج تحت ظلاله * بمثنى الأيادي والمنيح المعقب**
وناجية أنعلتها وابتذلتها * إذا ما اسجهرّ الآل في كل سبسب**
فكلفتها وهماً فأبت ركية * طليحاً كألواح الغبيط المذأأب**
متى ما أشأ أسمع عراراً بقفرة * تجيب ذماراً كاليراع المثقب(١)**

فانتظم الناس في الصحراء في جماعات تمت عن طريق التكوين القبلي العشائري "فالعوامل الطبيعية والظروف القاهرة لتلك البيئة هي التي تدفع البدو أن يكونوا وحدات اجتماعية يطلق على كل واحدة منها اسم قبيلة، والقبيلة تجمع العمائر والعمارة تجمع البطون والبطون تجمع الأفخاذ، والأفخاذ تجمع الفصائل"(٢).

وأن هذه التشكيلات الاجتماعية لا تقعدها صلتها بالفرع الذي تفرعت عنه... فكانوا يذهبون جماعات إلى مواطن الكلأ والماء أينما وقع وغلبوا عليه بقول الأخنس التغلبي:

ونحن أناس لا حجاز بأرضنا * مع الغيث ما نُلقي ومن هو غالب(٣)**

---

(١) ديوان لبيد بن أبي ربيعة، ص٣١-٣٢، هوادي الأمر : أوائله، الشمال: الريح الشمالية، يهتك أخطال الطراف: أي يقطع حبال البيت وهي من أدم ، المطنب: مشدود الحبال ، ينيخ المخاض: ينيخ الحوامل من الإبل لتبرك، ذكيت : أوغدت، ذعر قلاص الثلج: أي دفع البرد من الناس بإطعامهم: قلاص الثلج: السحاب، مثنى الأيادي: مافضل من لحم الجذور، المنيح المعقب: القدح المشدود بالعقب، ابتذلتها: اتخذتها للركوب، اسجهر الآل: انبسط السراب، الوهم : الطريق الضخم، ركية: مهزولة، طليح: ضامرة، الغبيط المذأأب : مركب يوضع على ظهر البعير ذوفرجة في مقدمه، العرارة: صوت النعام ، اليراع: ذمارة من القصب، الذمار: صوت أنثى النعام .

(٢) العمدة في محاسن الشعر وآدابه تصنيف أبي علي الحسن بن رشيق القيرواني الطبعة الأولى ١٩٣٤م مطبعة حجازي القاهرة ج٢ ص١٨٢.

(٣) المفضليات:المفضل الضبي ، ص ٢٠٠.

والقبيلة تسمى غالباً باسم الأب كالأوس[1]. وقليلاً ما تنسب إلى الأم لمكانتها وشهرتها كبجيلة[2] ومزينة[3].

وقد رتب وقسم القبيلة إلى قبائل محمد بن أسعد النسابة المعروف بالحراني فقال: "حِزم ثم جمهور ثم شعب ثم قبيلة ثم عمارة ثم بطن ثم فخذ ثم عشيرة ثم فصيلة ثم رهط ثم أسرة ثم عترة ثم ذرية"[4].

وكان رئيس القبيلة يتمتع بمكانة عالية في مجتمعه لأنه يتميز بصفات دفعته إلى الصدارة فيوقره الأفراد ويقدمونه في فصل الخصومات حسب عادات القبيلة وتقاليدها ولها بجانب رئيسها حكام امتازوا بأصالة الرأي وحصافة العقل وصدق النظر يفزع إليهم في الخصومات الأدبية كالمفاخرة في النسب ونحوها [5].

ولذلك يعبر لبيد ابن أبي ربيعة عن قومه ورئيسهم الذي يتحدث بلسانهم والصفات الواجب توفرها في رئيس القبيلة بقوله:

إنا إذا التقت المجامع لم يزل * منا لزاز عظيمة جشامها**

ومقسم يعطي العشيرة حقها * ومغذمر لحقوقها هضامها**

فضلاً وذو كرم يعين على الندى * سمح كسوب رغائب غنامها[6]**

فهذه صفات الرجل الذي يقنع الخصوم عند الجدال قوي الشخصية يحكم بين الخصوم فيعطي كل عشيرة حقها أما نفسه فلا يأخذ نصيب من الغنيمة، ويفعل ذلك

---

(١) معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، تأليف عمر رضا كحالة، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٦٨م،ج١ ص ٤٩.

(٢) المصدر السابق، ص ٦٣.

(٣) المصدر السابق، ص٨٣.

(٤) بلوغ الإرب في معرفة أحوال العرب، السيد محمود شكري الألوسي البغدادي، ، الجزء الثاني، ص ١٨٩.

(٥) الحياة الأدبية في العصر الجاهلي، محمد عبد المنعم خفاجي، الطبعة الأولى، ١٣٦٨هـ - ١٩٤٩م، ص ٤٢.

(٦) ديوان لبيد، ص١٧٩. اللزاز:الذي يعتمد عليه، الجشام: المتكلف للأمور القائم بها، المغذمر: الذي يضرب بعض حقوق الناس ببعض، الهضام الذي يعطي القوم ويوثقوا به، المجامع: الأماكن التي يلتقي فيها العرب فيتفاخرون.

فضلاً منه دون عطاء، وكان أهل الجاهلية لا يسودون إلا من تكاملت فيه شتى خصال، السخاء، النجدة، الصبر، والحلم، والتواضع والبيان[1].

وكما ذكرت هناك أسباب عدة حتمت تكتل الناس مع بعضهم مكونين مجتمع القبيلة، فكان الاعتداء على حقوق الآخرين ونهب أموالهم وقتل أرواحهم وأسر لنسائهم في الحرب وأن القوة ليست كافية بل لابد من ممارستها لكل فرد لكي تمنع كيد الطامعين بالسيف أو القصيدة . والعصبية أخذت دوراً كبيراً في القبيلة والانتماء لها كقول عنترة بن شداد :

أحب بني عبس ولو هدروا دمي * محبة عبدٍ صادق القول صابرِ**

وأدنوا إذا ما أبعدوني والتقي * رماح العدا عنهم وحر الهواجر[2]**

ولكن كانت هناك كثير من الأعراف القبلية في المجتمع البدوي ومنها ما يعرف بالحلف فيما بينها ليحمي بعضهم بعضاً في السلم، وأحياناً تكتب هذه المحالفات في صحف كالتي كانت بين تغلب وبني بكر والتي ذكرها الحارث بن حلزة في معلقته بقوله:

أذكروا حلف ذي المجازر ما * قدم فيه العهود والكفلاء**

حذر الجور والتعدي وهل * ينقض صافي المهارق الأهواء[3]**

وتكوين القبيلة نتاج لتأثير البيئة الصحراوية على المجتمع البدوي وانعكس ذلك في تناول الشعراء في قصائدهم لحياة الناس فجرت الألفاظ والمعاني تحمل تلك الصورة في الشكل والمضمون فكان لخشونة العيش وحرية الفكر وطبيعة الطقس وسذاجة البدو وتكوينهم العشائري دافع لبلورة شكل ومضمون القصيدة القديمة، فالصدق والسليقة والرؤية الواضحة لكل أشكال وجوانب الحياة فانعكس ذلك في الشعر فكان هناك تمثيل حقيقي للطبيعة، فلا تجد كلفاً بالزخرف ولا تكلفاً في الأداء فكثر الإيجاز وقل المجاز وندرت المبالغة، ولذا كان النقد عند أدباء العرب البيت ثم القصيدة التي تجمع العديد من الأفكار فيها، ولذلك يقال أشهر بيت وأبلغ بيت... إلخ. فكان استعمال الغريب ومتانة التركيب وجزالة اللفظ وتأثرهم بمظاهر الغلظة والقوة في

(١) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب للألوسي، الجزء الثاني، الطبعة الثالثة، ص ١٨٧.

(٢) ديوان عنترة بن شداد،ص٦٨.

(٣) ديوان الحارث بن حلزة، ص٣٦.

طبائعهم ونظام اجتماعهم، فبدأوا القصيدة بذكر الأطلال والديار والآثار وكلها تشير للجماعة وحياة المجموعة لأنهم أهل خيام ومضارب فلا يكاد يمر الشـاعر بمكـان حتى يذكر عهداً قضاه فيه وأحبه ورحل عنه فتهيجه الذكرى وتبكيه.

ولذا نجد نفس الجماعة في الحياة الصحراوية من خلال تلك القصائد التي حملت كل معطيات الظواهر التاريخية والاجتماعية في الجزيرة العربية وعيشهم في مجموعات أفرز عدداً من تلك الصفات فالصدق مثلاً لم يكن ظاهرة اجتماعية خاصة بـل هـو ظاهرة اجتماعية عامة أفرزتها البيئة الصحراوية مثلاً الفقـراء لا يشـكلون طبقـة محدودة بل هم أغلب أفراد المجتمع البدوي وقد وردت كثيراً في ثنايا شعرهم، فالفقر في المجتمع البدوي ظاهرة مقبولة، ولهذا تتعادل معاني الفقر والغنى ولـذلك كـان الفخر بالكرم وإكرام الضيف والمعتر يقول عروة بن الورد مخاطباً زوجه:

سلي الطارق المعترّ يا أم مالك * إذا ما أتاني بين قدري ومجـزري**

أيسفر وجهي أنه أول القـرى * وأبذل معروفي له دون منكـري**(١)

فالمجتمع البدوي في الصحراء من خلال تكوينه القبلي يخضع لضـروب التكافـل الاجتماعي والمسئولية الجماعية ففي أحياء القبيلة كما جاء فـي شـعر ورد هنـاك معدمون ليسوا مهيئين تهيئاً لاستخدام القوة في كسب أرزاقهم وحياة التنقل في البحث عن الكلأ والماء ولقمة العيش ولذا نجد القصيدة العربية تبحر في هذا الاتجاه، فهـي رحلة فكرية ذات مراحل يتنقل فيها الشاعر بين آفاق الأفكار يبدأ ببكـاء الأطـلال فيصف الطريق الذي يمر به فإذا مرَّ بالديار ورسم المحبوبة ووقف بـين الأطـلال وتذكر وأنشد وتغنى بمرابع الصبا ومفاتن الحبيبة، ثم يمضي بطبعه في تلك الوهـاد الوحشية غير رفيق سوى ناقته ويقارنها بما يرى من الوحش والظباء ثم يفخر بنفسه ومحامد قومه وعشيرته مباهياً بتلك الأيام.

وأيضاً نجد حلفهم في ساعة الحرب بين المجموعات القبلية والمهادنة ولكـن الإغارة من سمات ذاك المجتمع في الصحراء ويصور ذلك قول القطامي:

ولكن إذا أغرنا علـى جنـاب * وأعـوذهن نهـب حيـث كانـا**

---

(١) ديوان عروة بن الورد، ص ٤٤. الطارق: الآتي ليلاً، المعتر: الآتي للمعروف من غير أن يسأل، المجزر: المكان الجزر "المسلخ"، يسفر: يشرق، المنكر: ضد المعروف.

أغرن من القباب على جناب * وضبة إنه من حان حانا**

وأحياناً على بكرٍ أخينا * إذا لم نجد إلا أخانا**[1]

(فالقبائل لا تقيم وزناً للأخوة وللنسب فإذا اختلفت المصلحة فلا تجد القبائل عندئذ أي غضاضة في الانفصال عن قبيلة مواخية لها لتتحالف مع قبيلة غريبة عنها في النسب، ومحاربة أختها التي انفصلت عنها كتحالف ذبيان مع تميم على عبس، وتحالف عبس مع بني عامر في حرب البسوس على ذبيان وهي أختها[2].

ولذلك نجد الحياة القبيلة والعشائرية التي سادت في تلك الصحراء لها أثرها في الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والأدبية بل هي نتاج مؤثر لتلك البيئة الصحراوية فحمل الأدب العربي تلك الأفكار وصاغها في قوالب شعرية أصبحت مرجعاً للأدب واللغة والتاريخ، فالمعلقات تحمل طابعاً عاماً متكاملاً.

لذا نجد أن التكوين القبلي أحد مؤثرات الصحراء للأسباب التي ذكرناها فأفرزت نتائجها الإيجابية في المجتمع الصحراوي وعندما جاء الإسلام استفاد منها في توطيد قواعده وفي الفتوحات في العراق والشام في بداية الدعوة وأيضاً كانت عاملاً مساعداً في تهيئة الجو النفسي والاجتماعي بين القبائل بحمايته أو عدم إيذائه.

---

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٠م،ج٤ ص٣٤٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٤١.

مكانة الشاعر بين قومه في الصحراء:

كان للقبيلة دور بارز في شكل المجتمع البدوي وأيضاً دورها في بث الأدب فجاء قوياً يطغى عليه طابع الرصانة وكان الفخر والتعصب يحمل هــذه المعــاني والمفردات التي تعبر عن ذلك الكيان فتأتي الكلمات التي تحمل نبرات قوية وسمات الشجاعة ومعلقة عمرو بن كلثوم شاعر تغلب خير دليل على ما ذكرنا فهــي تبــدأ بمقدمة عن الخمر وتأثيرها على شاربها وعن صاحبته التي تسقيه، ولكنه لا يطيــل فيتحدث عن قومه ومفاخرهم حديثاً ينسى فيه نفسه نسياً تاماً فيصف قومه بشجاعتهم وأيامهم الغر الطوال ويذكر مجدهم التليد الذي ورثوه عن آبائهم وأجدادهم الكــرام، وكيف أنهم دافعوا عنه، وفي خواتم قصيدته يأتي ببيت تفيض فيــه روح العصــبية والقبلية والجاهلية يقول:

ألا لا يجهلـــن أحــد علينـــا * فنجهل فــوق جهــل الجاهلينــا**(١)

فقد عبر الشاعر عن قبيلته تغلب فجاءت هذه النزعة القوية العصبية وكان الشــاعر الجاهلي يذود بكل السبل عن قبيلته ولذلك كان المجتمع الجاهلي يقوم على الجماعــة والعصبية، فالشعر هو لسان حال قبيلته وصوتها الذي يذيع مفاخرها ومآثرهــا فــي المجتمع العربي وهو الذي يرفع من قدر عظائمها.

يقول عنترة بن شداد في ذلك :

ولولا سناني والحسام وهمتــي * لما ذكرت عبس ولا نالها فخــر**(٢)

ولذا جاءت أهمية الشاعر بين قومه في المقدمة وللقبيلة نظم وأعراف وتقسيمات (فيتألف مجتمع القبيلة من ثلاث طبقات الطبقة الأولى طبقة الأحرار التي تشكل من السادة الأشراف وعملهم القتال لحماية الحمى، وطبقة العبيد الذين جمعهم الأسر والاسترقاق بالشراء والاختطاف وعملهم الرعي والسقي والاحتلاب والاحتطاب وخدمة الأفراد، وطبقة الموالي التي كانت تلوذ بالقبلية القوية مستنجدة بها ومنزلتها دون الأحرار وفوق العبيد شرفاً وعملاً)(٢).

---

(١) شرح القصائد العشر، التبريزي، ص ٣٢٣.

(٢) ديوان عنترة بن شداد، ص٧١.

(٢) الأدب الجاهلي قضاياه، أغراضه، أعلامه، فنونه، د. غازي طليمان عرمان الأشقر، ص ٣٨١.

وعندما يفخر الشاعر بنفسه فهو يعني القبيلة التي ينتمي إليها في قوتها وسلطانها ونجد عنترة يفاخر بتوليه القيادة وحاجة القوم إليه لنجدتهم وبتفريقه الأعداء بضربة فيصل، وبخبرته الحربية، فهو يعلن عن نفسه وسط المحيط البدوي الذي يعيش فيه وهنا يفخر بهذه الأبيات في قوله:

بكرت تخوفني الحتوف كـــأنني * أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل**

فأجبتهـــا إن المنيـــة منهـــل * لابـــد أن أســـقى بكـــأس المنهـــل**

إن المنيـــة لـــو تمثـــل مثلـــت * مثلى إذا نزلـــوا بضـــنك المنـــزل**[١]

وقد ترك النظام القبلي أثره في الأدب العربي وأغراضه وفنونه إذ رفع الشعر إلى تسعير الخصومة بين القبائل وحملت الأمثال والقصص، والشعر معاني البطولة والحرب والأخذ بالثأر، حتى أصبح الأدب الذي نشأ في الصحراء وما فيه من القوة والبطولة، ومعاني الحرب والمفاخرة والمنافرة ذخيرة متفردة تذخر بفيض من المعاني الحماسية والبطولة المعنوية فهذا المجتمع بتكويناته الصغيرة والكبيرة كإمارة كنده التي كان حُجر والد امرئ القيس آخر أمرائها، وإمارات الغساسنة والمناذرة التي سادت ردحاً من الزمان وجد الشعراء في ظل هذه الكيانات منتجعاً يقصدونه ويروجون فيه بضاعتهم، ويتنافس فيه الفحول من الشعراء كالنالبغة الذبياني والأعشى وعلقمة الفحل والمرقش الأكبر[٣]، وغيرهم، فقد تأثر المجتمع البدوي في الصحراء بالحياة الاجتماعية والاقتصادية والحياة اليومية، فالماء في فلواتهم المتسعة يسيل في أودية ويجتمع في غدران وكلما جادت السماء على الأرض أخضرت وكثرت المراعي والعشب، وكلما أحبس المطر جفت الموارد ويبس العشب وظمئ الناس والحيوان، فارتحل القوم إلى منتجع آخر ولذا يظهر أسلوب السلب والنهب والغارة، ويعدونه من شيم الأبطال، وقد قنع البدو بهذه الحياة الطبيعية دون غيرها،

---

(١) ديوان عنتره بن شداد، ص٩٩.بكرت: أي عاذلته.

(٣) المرقش الأكبر : هو عوف بن سعد بن مالك بن ضيعة من بني بكر بن وائل شاعر جاهلي من الشـــجعان عشق ابنة عمٍ له اسمها أسماء وقال فيها شعراً كثيراً وشعره من الطبقة الأولى ضاع أكثره ولد بـــاليمن ونشـــأ بالعراق واتصل بالحارث بن شمر الغساني ونادمه ومدحه واتخذه الحارث كاتباً له وتزوجت عشيقته برجلٍ من بني مراد فمرض المرقش زمناً وهو عمر المرقش الأصغر – أنظر الأعلام الزركلي ج٥ ص٩٥.

وكثر التحالف بين القبائل والتعاون في حرفة التجارة فأفادوا من احترام العرب للكعبة وأقاموا أسواقاً ينشدون فيها الشعر كسوق عكاظ، وذو المجاز، والمجنة... الخ.

ولذلك ترك هذا النمط من الحياة أثراً على الأدب الذي أخذ لون ورائحة الصحراء فقد صور الشاعر البدوي نزعه إلى الإبداع وحب الجمال والشوق إلى التسامي عن الواقع بعد تصويره في أجود وأدق الصور، وكان يمثل الشعر في الصحراء آنذاك السمو الفكري الذي رسم لنا خطوط ومفاصل الحياة البدوية في الصحراء فحمل الحكمة والأمثال ومآثر تلك القبيلة، وسيد القبيلة هو الذي يمثل هؤلاء ويحتكم الناس إليه وكانت منزلته رفيعة كمنزلة شاعر القبيلة فهم منارات بين الناس فيشهد الشاعر المواسم والأسواق فيأتي شعره معبراً عن حال قبيلته فيتناقله الناس، ويعددون مآثره فيدفع عن قومه هجوم الأعداء وفريتهم ويصبح كلامه قضاء لا يرد، وتسير أبياته في الآفاق وإن أتى الملوك كان سفيراً لدى قومه، يتحدث بلسانهم ويذب عنهم كالنابغة والأعشى كما جاء في بعض قصائدهم.

يقول عمرو بن العلا: "كان الشاعر في الجاهلية يُقدم على الخطيب لفرط حاجتهم إلى الشعر الذي يقيد عليهم مآثرهم ويفخم شأنهم ويهوّل على عدوهم ومن غزاهم ويهيب من فرسانهم ويخوف من كثرة عددهم"(١).

وفي مضمار الحرب يحارب الشاعر بسلاحين لسانه وسيفه، فيكون مثلهم في الحرب، وعندما تغمد السيوف يظل مشهور اللسان يرثي قتلاه ويهجو أعداءه، فعمرو بن كلثوم يفخر بقومه ويهجو ويقلل من مكانة عمرو بن هند يقول:

بأى مشيئة عمرو بن هند * تطيع بنا الوشاة وتذدرينا**

بأى مشيئة عمرو بن هند * تكون لقيلكم فينا قطينا**(٢)

---

(١) البيان والتبيين، الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مطبعة المدني، الطبعة الخامسة، القاهرة، ١٩٨٥م، الجزء الأول، ص ٢٤١.

(٢) شرح القصائد العشر، التبريزي، ص ٣٠٦-٣٠٧. بأي مشيئة: بأي حال: قيلكم: ما دون الملك من الــولاة، قطينا: الخدم، تطيع: تسمع، الوشاة: النمامون، تذدرينا: تحتقرنا.

وكانت الأسواق كسوق عكاظ مكان لميلاد كثير من الأشعار المشهورة التي وردت، وقد اختلفوا في عدد المعلقات هل هي سبع أم عشر، وعلى كل هي أعطت دورها في ذلك الزمان ونقلت الحياة البدوية في الصحراء بكل تفاصيلها، وأصبحت مرتكز الأدب العربي فيما بعد، (وكان للتأثيرات الاجتماعية في البيئة هي التي تدفع الفنان إلى التفكير والتأمل وتحفزه إلى الإبداع فتغذي موهبته وقدرته وتنمي فنه)(١).

فالبدوي في جولته في الصحراء يضرب في الأرض أينما وجد العشب والماء فيضرب فيها خيمته ومن معه من عشيرته فيزود الشاعر عنهن بكل مرتخص ونفيس، ويصبح المكان موطنهم لحين ترعى حيواناتهم ويصيدوا صيدهم من طير وحيوان فتتكامل حياتهم فيرث أبناؤهم كل هذه العادات والتقاليد، وترتبط بها، ومن هنا كان بكاؤهم على الطلل حتى أصبح الشعر يتناقله الناس فهو سلوان وتحفيف وسمر في تلك البيئة، فيربط بين الماضي والحاضر ارتباطاً وجدانياً وعاطفياً، ومن ثم في شكل قصائد تتناقله الأجيال جيلاً بعد جيل، تعبر عن وجدان وأفكار وآراء وحياة أهل البادية في تلك الفلوات عن نزعة الشجاعة والقوة والفخر يقول عمرو بن كلثوم في معلقته:

وأيـــام لنــــا غــــر طـــوال * عصينا الملــك فيهــا أن نــدينا**(٢)

وكان للشعراء مكانة فتفتح لهم أبواب القصور وتوطأ لهم صدور المجالس فيؤاكل الكبراء وينادمهم ويسعى في مصالح قبيلته، ويستعطف ويستعدي ويخالف من يتوسم في مخالفته نصرة قومه، فإذا عرّض به أو بقومه أمير أو حاول انتقاص شرفه ملك تحدي وتوعد وثأر لشرفه كما ثأر عمرو بن كلثوم من عمرو ابن هند(٣).

فقد تميزت القبيلة في الجاهلية بالترابط القوي وحماية وإغاثة أي فــرد فيهــا وذلك حفاظاً على كيان القبيلة، وبروز قوتها والتعايش مع الآخرين بأسلوب القــوى، وللقبيلة عادات وتقاليد ومثل ينضوي تحــت لوائهــا أي فــرد، ولا تخــالف هــذه الأعراف، ومن يتخطها يُطرد من القبيلة وبهذه المعطيات المكونة لعناصــر البيئــة

---

(١) قصيدة المديح في الأندلس قضاياها الموضوعية والفنية عصر الطوائف . د.أشــرف محمــود نجــا، دار المعرفة الجامعية الطبعة الثانية ١٩٩٨م، ص١٥.

(٢) شرح القصائد العشر، التبريزي، ص ٢٩٤. ندينا : نتذلل

(٣) الأدب الجاهلي قضاياه أغراضه أعلامه فنونه، د. غازي طليمان عرمان الأشقر، ص ٦٧.

الصحراوية خلقت نوعاً من الانسجام بين الأفراد حيث الحياة القاسية والبحث عن الرزق والظل والعيش والماء للإنسان والحيوان.

ولذلك كان للشاعر مكانة عظيمة، والقبيلة إذا نبغ فيها شاعر تصنع الولائم وتقيم الأفراح وتهنئها القبائل(١).

وكان لجودة الشعر اهتمام بين الملوك وأصحاب المكانة، وما قصيدة الحارث بن حلزة التي أنشدها أمام الملك عمرو بن هند إلا دليلاً على ذلك والتي مطلعها:

آذنتنا ببينها أسماء * رب ثاوٍ يمل منه الثواء**

ويقال أنه ارتجلها بين يديه في شئ كان بين بكر وتغلب بعد الصلح، وكان ينشده من وراء سبعة ستور، فأمر برفع الستور عنه استحساناً لها(٢).

وبلغ من تأثير الشعر أنه يخرج الضغينة من قلب القاسي ويرفع الظلامة عن المظلوم ويعفو عنه، فالشاعر استطاع أن يلعب دوراً بارزاً في حياة المجتمع، يقال: أن الحارث(١) ابن أبي شمر الغساني لما قتل المنذر الأكبر "ابن ماء السماء" في يوم وأسر جماعة من أصحابه فيهم شأس بن عبدة في تسعين رجلاً من بني تميم فقصده علقمة بن عبدة ومدحه بقصيدته التي مطلعها:

طحا بك قلب في الحسان طروب * بعيد الشباب عصر حان مشيب**

وشفع في أخيه شأس بقوله:

فلا تحرمني نائلاً عن جنابه * فإني امرؤ وسط القباب غريب**

وفي كل حي قد حظيت بنعمة * فحق لشاس من ذراه ذنوب**

---

(١) تاريخ الأدب العربي، د. أحمد حسن الزيات، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٠م، ص ٤٥.

(٢) الشعر والشعراء، أبي محمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة، طبعه وحققه وفهرسه قسم وتوزيع دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٩٦٤م، ص ٢.

(١) الحارث بن أبي شمر الغساني من أمراء غسان في أطراف الشام كانت إقامته بغوطة دمشق أدرك الإسلام فأرسل إليه النبي (ص) كتاباً مع شجاع بن وهب مات في عام الفتح سنة ٨هـ أنظر الأعلام للزركلي ج٢ ص ١٥٥.

فقال الحارث: نعم وأذنبه، وأطلق شاساً وأسرى بني تميم ومن سأل فيه الشاعر أو عرفه من غير بني تميم(٢).

واهتمام القبيلة والعشيرة بالشعر عندهم سبب في علو مرتبة قائله وقبيلته، فقد قيل في الشعر أنه (يرفع من قدر الوضيع الجاهل مثلما يضع من قدر الشريف الكامل، وإنه أسنى مروءة الدني وأدنى مروءة السوي)(٣).

فالشاعر في نظر القبيلة أمير الكلام ولسانها وذو الرأي الصائب والحكيم يستعان به عند الشدائد، يخافون لسانه الحاد، ولذا امتاز على غيره بصفات لأنه يخاطب الملك باسمه وينسبه إلى أمه، ويخاطب بالكاف، كما يخاطب أقل السوقة فلا ينكر ذلك عليه(٤).

ولذا اهتم العرب بالشعر غاية الاهتمام وكانت له جملة من المظاهر منها حفظه وروايته ومدارسته إذ عُرف لكل شاعر كبير راو يصحبه ويحفظ شعره ثم ينقله في الأمصار، ويُروى به في المحافل من ذلك (أن زهيراً ابن أبي سلمى كان راوياً لأوس بن حجر(١) والحطيئة راوياً لزهير ابن أبي سلمى).

وفي ذلك يقول ابن قتيبة، الشعراء المعروفون بالشعر عند عشائرهم وقبائلهم في الجاهلية والإسلام أكثر من أن يحيط بهم محيط أو يقف من وراء عددهم واقف ولو أنفذ عمره في التنقيب عنهم(٢). فهذا يدل على كثرة هؤلاء الشعراء وكثرة أشعارهم التي لم تنقل إلينا بسبب موت أصحابها أو ضياعها.

فالشاعر فخر لقبيلته وعشيرته ويفتخر الشاعر بتثبيت عنصر القوة وسمو المكانة والعشيرة وللرهبة أحياناً يقول عمرو بن كلثوم في معلقته مفتخراً:

كأن سيوفنا منا ومنهم * مخاريق بأيدي لاعبينا**

---

(٢) العمدة، ابن رشيق، الجزء الأول، ص ٣١. خبط: أعطى، ذنوب: حظ ونصيب

(٣) المصدر السابق، ص ٤٠.

(٤) المصدر السابق، ص ٢٢.

(١) أوس بن حجر بن مالك التميمي أبوشريح شاعر تميم في الجاهلية أو من كبار شعرائها في نسبه اختلاف بعد أبي حجر كان كثير الأسفار عمر طويلاً ولم يدرك الإسلام في شعره حكمة ورقة وكانت تميم تقدمه على سائر شعراء العرب له ديوان شعر ــ أنظر الأعلام للزركلي ج٢ ص٣١ .

(٢) الشعر والشعراء، ابن قتيبة، ص ٩.

كــأن ثيابنــا منــا ومــنهم * خضــبن بــأرجوان أو طلينــا**(٣)

وكذلك يقول طرفة:

إذا القوم قالوا من فتى خلت إنني * عُنيت فلــم أكســل ولــم أتبلــد**(٤)

وفي نفس هذا المعنى يقول الشاعر عامر بن الطفيل شاعر بني عامر مفتخراً:

يا اسم أخت بني فزارة إننــي * عــارٍ وإنّ المــرء غيــر مخلّــد**

وأنا ابن حرب لا أزال أثبتهــا * سَعْرا وأوقــدها إذا لــم توقــدَ**(٥)

والعصبية في الجاهلية على الرغم من الجوانب السالبة فيها على الصعيد الاجتماعي ولكن كان لها أثراً في نفاذ الشعر وقوته وتميزه بالجرس القوي الذي ينافح ويــدافع عن اسم وشرف القبيلة التي كانت تتمتع بالأعراف والتقاليد المتوارثة، فالحلف بــين القبائل متعارفاً وأن تتعهد القبائل فيما بينها على عدم الحرب فهذا يكــون دســتوراً متعارفاً بينهم يجب الالتزام به يقول الحارث بن حلزة في معلقته:

وأذكروا حلف ذي المجاز ومــا * قُــدّم فيــه العهــود والكفــلاء**

حذر الجــور والتعــدي وهــل * ينقض ما في المهارق الأهــواء**(٤)

فنجد كثيراً من المعلقات المشهورة منها كان نتاج عصبية أو حمية أو دفاع عن قبيلة وعشيرة وفخر بها فأتت القصيدة تحمل أقوى المعاني والدلالات والألفاظ وجــاءت معبرة عن التمسك بوحدة القبيلة والفخر بها، فالشاعر لا يخرج عــن طــوع وفهــم ومقصد القبيلة فهو مقيد وفق القوانين والأعراف المتداولة ولــذا أتــت كثيــر مــن القصائد المختلفة في مواضيعها تحمل مفهوماً واحداً ومعاني متقاربة، ولذا أدت كــل

(٣) شرح القصائد العشر، التبريزي، ص ٣٠٠-٣٠١.

(٤) ديوان طرفة بن عبد، ص ٤٧.

(٥) ديوان عامر بن الطفيل، رواية أبي بكر محمد بن القاسم الأنباري، عن أبي العباس أحمد بن يحى ثعلــب، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٩م، ص ٧. أثبتها سعراً: ناراً، ويسمى العود الذي تحــرك بــه النار المسعرة.

(٤) ديوان الحارث بن حلزة، ص ٣٦. الحلف: العهد، ذو المجاز: موضع جمع فيه المنذر بين بكــر وتغلــب فأصلح بينهما وأخذ منهما المواثيق والرهائن الذين قصدهم بقوله "العهــود والكفــلاء"، الجــور: الظلــم، المهارق: جمع مهرق وهو الصحيفة، يقصد بعد الصلح الذي كتب كيف نقضته أهواؤهم.

عناصر تأثير الصحراء على الحياة العامة في تشكيل المفهوم العام للجماعة في الحرب والسلم، وجلوسهم للهو، وسيرهم في ترحالهم وفي حلهم، فأتى دور الشاعر الذي عبر عن كل هذه المفاهيم بأسلوب فني بديع وربط بين كل هذه المعطيات، فالعصبية هي جزء من الحياة لتأمين عيشهم والزود عن حماهم، ولذلك كانت هي مزجاً بين البطولة والرغبة والانتقام والمروءة والحرص على الثأر.

الفصل الثاني

الحروب

الحروب والثأرات في البيئة الصحراوية

كثير من العادات والتقاليد الاجتماعية التي انتشرت في الصحراء وأصبحت ظواهر سار عليها المجتمع البدوي في الجاهلية ولقد كان لهذا المجتمع خصائص ثلاث هي : العصبية القبلية ، والغزو والشعر .ومن هذه العادات التي كثرت عندهم الحروب والثارات، والحرب طاحونة دم كبرى تطحن الرجال والزرع والضرع والرزق والأهل ويتناسب حجم الطاحونة وقطرها مع عدة الحرب كماً ونوعاً تناسباً طردياً، وتحدث الشاعر عمرو بن كلثوم عن الحرب في معلقته المشهورة وأن الحرب ورحاها وما أتت به من شر وهلاك ودماء وأنهم قادرون على نقل الحرب إلى حيث يوجد الأعداء فيشهد ميدان المعركة حرباً شعواء، يقول عمرو بن كلثوم:

متى ننقل إلى قوم رحانا * يكونوا في اللقاء لها طحينا**[١]

ويأت زهير بن أبي سلمى بلفظ يدل على مفهوم الطحن العراك مثل فتعرككم عرك الرحى في قوله:

فتعرككم عرك الرحا بثقالها * وتلقح كشافاً ثم تنتج فتتئم**[٢]

فالحياة القاسية التي ارتبطت بها حياة العرب في الصحراء ولدت تلك المعاناة فكانت تلك السجايا المتفردة لإنسان الصحراء المتفرد فيعرف كيف تكون القوة والإقدام والغارات بين القبائل لكسب العيش والظفر بمتطلبات الحياة وبين الكرم الدفاق وإغاثة الملهوف وإباء الضيم ميزان لا يوجد إلا في هذه البيئة الصحراوية. إذن الحروب هي إحدى إفرازات الصحراء وبيئتها بكل مكوناتها.

ولنشوب الحروب أسباب عدة فتقوم لأقل الأسباب أهمية ومنها الجدب فإذا أخلفت السماء أمحلت الأرض ودفعهم الجدب إلى الحرب لجلب الماء والرزق، فإذا قلنا أن من أسباب الحروب الماء والكلأ ورغبتهم في الاستيلاء على أكبر مساحة من المرعى كذلك كان العربي شديد الاعتزاز بقبيلته لا يهنأ إذا اعتدى شخص على أحد

(١) شرح القصائد العشر التبريزي،٢٩٦.

(٢) ديوان زهير بن أبي سلمى، ص ٤٣.

أفرادها إلا ينال بأكثر مما فعل، كذلك نجد أن كل قبيلة تحظى بتوسيع حماها ليعظم سلطانها، أيضاً من أسباب تلك الحروب الطاحنة في الصحراء (العداء المستحكم بين عرب الشمال العدنايين وعرب الجنوب القحطانيين)(١).

ونجد من أسباب الحروب فكر وأدب الصعاليك الذي نقلته كتب الأدب أسـهم أيضاً، في تلك الحروب وعدم الاستقرار، إضافة لطبيعة حياة الصحراء (فـالعربي تطبع بطابع أخلاقي ونفسي مميز فكان العربي سريع الانفعال عصبي المزاج تثيـره الكلمة وتغضبه أدنى إشارة)(٢).

وهذه الثورة العارمة في نفس البدوي والتعبير عن الشدة والقوة والظلم أحياناً والتي جاء الإسلام بعد ذلك ونهى عنها كانت فخراً لديهم إذ يظنون انهم يتحكمـون في الدنيا بمن فيها ويبطشون بالناس وإن لم يلحق بهم ظلم قال عمرو ابن كلثوم:

لنا الدنيا ومـا أمسـى عليهـا * ونبطش حـين نـبطش قادرينـا**
نسمى ظـالمين ومـا ظلمنـا * ولكنـا سـنبدأ ظالمينـا**(٣)

فقد كان كسبهم على أسنة رماحهم فإذا لم يجدوا أغاروا على الأقرباء من أهليهم

كما قال القطامي(١) :-

وأحيانـاً علـى بكـرٍ أخينـا * إذا لـم نجـد إلا أخانـا**(٢)

---

(١) شعر الحرب على الجندي، المكتبة الأنجلو مصرية، ١٩٦٣م، ص ١٦.

(٢) عناصر الإبداع الفني في شعر عنتره د.ناهد أحمد السيد الشعراوي . دار المعرفـة الجامعية ١٩٩٦م، ص ١١٤.

(٣) شرح القصائد العشر التبريزي، ص٣٢٢، ويروى بغاة ظالمين.

(١) القطامي هو ابن عمرو بن عباد من بني جشم بن بكر التغلبي الملقب بالقطامي أبوسعيد شاعر غزل كان من نصارى تغلب في العراق وجعله ابن سلام في الطبقة الثانية من الإسلاميين وأسلم، من آثاره ديوان شعر، توفي نحو ١٣٠هـ ـ ٧٤٧م ـ أنظر معجم المؤلفين عمر رضا كحالة ، ج٢ ص٥٨٦.

(٢) الحياة العربية من الشعر الجاهلي، د. أحمد محمد الحوفي، دار النهضة، مصر للطباعة والنشر، الفجالـة، القاهرة، الطبعة الخامسة بدون، ص ٢٣٠.

وكثرت الحروب وأيامها حتى ارتبطت أيام العرب بالمواقع والأنساب فكثرت الأشعار التي قيلت في هذه الأيام وذكرت في الحماسة والهجاء والفخر والرثاء وارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالحياة الصحراوية.

ويدلل شعر عنترة بن شداد على تلك الروح القتالية التي اتسمت بها الحياة العربية كقوله :

أسمعاني نغمةً الأسياف حتى تطرباني *
أطيب الأصوات عندي حسن صوت الهندواني ***
وصرير الرمح جهراً في الوغى يوم الطعان
وصياح القوم فيه وهو للأبطال داني*** [٣]**

ونجد أن معظم الحروب العربية قديماً تنشأ حول الماء وذلك لقلته في الصحراء وتفرق العشب أدى للترحال المستمر فقد اقتتلت عبس وكلب على ماء يقال له "عراعر" فقتلت عبس من كلب جمعاً كثيراً كما جاء في أخبارهم، وقد أنشد عنترة ابن شداد قصيدته التي مطلعها:

ألا هل أتاها أن يوم عراعر * شفى سقماً لو كانت النفس تشتفي[٤]**

ويشير معاوية بن دومان في قصيدته إلى أسباب حرب همدان وقضاعة وكانت بسبب الماء فقال:

أراد طفيل يمنع الماء زلة * ولم يك منعه الماء لو عقل
ففارقت البيض الخفاف غمودها *** ولاحت بأيديهم مصابيح كالشعل
حسبت رجالاً أن تجف حلوقها *** وأنت على ريّ وفي راحها الأسل[١]**

(٣) ديوان عنترة بن شداد، ص١٤١.

(٤) المصدر السابق،ص٨٦، عراعر: موضع ماء لبني كلب.

(١) الهمدانيون: شعر همدان وأخبارهم، جمع وتحقيق حسن أبو يسن، طبع دار العلوم، الرياض، ١٩٨٣م، ص٣٠٨.

فالماء في البيئة الصحراوية هو الروح ولذلك ورد ذكره في كثير من أشعارهم تناولوه بصور مختلفة يقول امرؤ القيس في إحدى قصائده مصوراً الحمار الوحشي وورده للماء وهذا دلالة على عظمتها عندهم يقول:

فأوردها من آخر الليل مشرباً * بلائق خضراً ماؤهن قليص**[٢]

وحول هذا المعنى أيضاً يصور زهير أهميته في قوله:

عزم الورود فآب عذباً بارداً * من فوقه سد يسيل وألهب**[٣]

وحول نفس هذه الصورة يقول الأعشى:

فأوردها عيناً من السيف ريّة * بها برأُ مثل الفسيل المكَمّم**[٤]

ورأوا أن الإقدام لا يدني الأجل وأن الحياة الجديرة بالبقاء إنما هي حياة المجد والشجاعة. قال الحصين بن الحمام:

تأخرت استبقي الحياة فلم أجد * لنفسي حياة مثل أن أتقدما**
فلسنا على الأعقاب تدمى كلومنا * ولكن على أقدامنا تقطر الدما**[٥]

(ولذلك كان الغدر عندهم صفة ذميمة وقد حتمتها عليهم ظروف الصحراء، وقالوا: كان الرجل في الجاهلية إذا غدر رفعوا له في مجامعهم لواء ليعرف الناس أنه غادر)(٥).

فحياة العرب في الصحراء اتسمت بالترحال المستمر وهذا ساعد على الحروب واصطدام مصالح هذه القبائل والعشائر مع بعضها البعض فالغزو وسيلة مشروعة لكسب الرزق وبذلك أصبحت الصحراء ميداناً فسيحاً يقاتل فيه الناس بعضهم بعضاً، ولذلك كانت شريعة الغزو والنهب هي المقدسة.

---

(٢) ديوان امرئ القيس، ص٩٣. قليص: قليل.

(٣) ديوان زهير بن أبي سلمى، ص٢٧٠. آب الماء ورده ليلاً، السد: الجبل، الحاجز بين الشيئين.

(٤) ديوان الأعشى، ص١٨١، السيف: ساحل البحر، البراء:واحدة برأة وهو بيت الصائد، الفسيل: النخيل الصغير، المكمم: الذي غطي ليقوى.

(٥) الحياة العربية من الشعر الجاهلي، الحوفي، ص ٢٣١.

(٥) قراءة في الأدب القديم، د. محمد أبو موسى، الطبعة الأولى، ١٩٧٨م، دار الفكر العربي، ص ٣٠.

يقول زكي المحاسني "إن العرب في جاهليتهم لم يحاربوا قوماً خارجين عنهم فما عرف التاريخ أنهم جهزوا جيشاً لمحاربة فارس والروم خارج الجزيرة العربية إلا بعد الإسلام وإنما كانت حروب الجاهلية بين قبائلها فحسب" [١]. ولكن وردت إشارات في بعض أشعارهم توحي بمعرفة فارس والروم لقوة تلك القبائل الصحراوية، يقول عنترة بن شداد موضحاً ذلك في قصيدة يخاطب قبيلة بني شيبان:

وأخذ مال عبلة بالمواضي * ويعرف صاحب الإيوان قدري**[٣]

وقوله :

وإذا جيوش الكسروي تبادرت * نحوي وأبدت ما تكن ضلوعها**[٤]

ونشأت الحياة في الصحراء على الجمع والجماعة وليس للفرد فيها محل وأسست على العداء وعلى المحالفة وسبي النساء في الحرب والمزاحمة على الماء والكلأ، وكثيراً ما تنشب الحروب بنزاع بين اثنين على الكلأ أو الرعاة على الماء فيشترك معهم ساداتهم وكبراؤهم "ولذلك نجد أن البدو أقرب للشجاعة من أهل الحضر وذلك لأن أهل الحضر ألفوا جنوبهم على مهاد الراحة والدعة، وانغمسوا في النعيم والترف ووكلوا أمرهم في المدافعة عن أموالهم وأنفسهم إلى واليهم"[١].

فالحروب منذ قديم الزمان وإن تباينت صورها وأسبابها وأساليبها وأماكنها ووسائلها فهي ظاهرة بشرية امتدت ولازمت حياة الناس فالبيئة البدوية الصحراوية وظروفها الحيوية كانت منطلقاً واسعاً وميداناً فسيحاً لقيام الحرب وبيئة مهيئة لها.

قال أبو عبيدة "إن دريد بن الصمة سيد بني جشم وفارسهم وقائدهم غزا مائة غزوة ما أخفق في واحدة منها" [٢]. وهذا بالطبع دلالة على الدربة والممارسة "فقد

---

(١) شعر الحرب في أدب العرب، زكي المحاسني، دار المعارف بمصر بدون، ص ٢٥.

(٣) ديوان عنترة بن شداد ،ص٧٣. صاحب الإيوان كسرى.

(٤) المصدر السابق ص٨٣، الكسروي: نسبة إلى كسرى بالكسر والفتح.

(١) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، تأليف السيد محمود شكري الألوسي، ص٤٣٥.

(٢) الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، الجزء الأول، ص ٥.

كان العرب قديماً في الصحراء يعتمدون في عيشهم على رعاية الإبل ثم الغزو والصيد وحراسة القوافل" (٣).

وهذه الحروب المتصلة أوجدت للشعراء الجاهليين دوافع كثيرة لقول الشعر منها الدافع القبلي إذ تعتبر كل قبيلة وحدة قائمة بذاتها وكل فرد فيها بمثل لبنة في بنائها العام، أيضاً نجد الدافع الذاتي فكان الشاعر شديد الإحساس فهو فرد قائم بذاته شديد التأثر بما يجري من حوله وهو أسرع انفعالاً بمظاهر قوتها وبأسها وخير من يصور مفاخرها ويزيع شهرتها، فكان هناك دافع تنافس بين الشعراء في تجويد صور قصائدهم وإبداعاته وأن يشيع أن قبيلته سيدة الموقف في المعركة. قال عنترة:

فوارسنا بنو عبس وإنا * ليوث الحرب ما بين البريه**

نجيد الطعن بالسمر العوالي * ونضرب بالسيوف المشرفيه(٤)**

وقد اشتهر في الجاهلية جماعة من الفرسان أظهروا بطولات نادرة في حربهم (وكان لكل قبيلة فارسها أو فرسانها الذين يتدربون على ركوب الخيل طويلاً وكيف يشهرون سيوفهم ويلوحون برماحهم وكيف يسددون ضرباتهم إلى أعدائهم (١).

وجاء في العقد الفريد اشتهر عدد من الفرسان في الجاهلية منهم عنترة الفوارس، وعيينة بن الحارث بن شهاب وأبو يراء عامر بن مالك ملاعب الأسنة

---

(٣) أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام حياتهم وآثارهم، بطرس البستاني، طبعة منقحة، دار نظير عبود، طبعة ١٩٨٩م، ص١٥.

(٤) ديوان عنترة بن شداد، ص١٥٦.

(١) العصر الجاهلي، شوقي ضيف، دار المعارف بمصر ١٩٧٦م ص ٣٦٦.

وزيد الخيل وبسطام بن قيس[٢] والأحيمر السعدي وعامر بن الطفيل[٣] وعمرو ابن عبدوُدّ، وعمرو بن معد يكرب [٤].

ومن أصدق الأمثلة لوصف الحرب معلقة عنترة الشهيرة التي نجد من أهم ركائزها فخره وحماسته لقوله:

هلاّ سألت الخيل يا ابنة مالك * إن كنت جاهلةً بما لم تعلمي**
يخبرك من شهد الوقيعة أنني * أغشى الوغى وأعف عند المغنم[٥]**

وأجمل ما فيها مخاطبته عبلة مظهراً فروسيته في قوله:

ولقد ذكرتك والرماح نواهل مني * وبيض الهند تقطر من دمي**
فوددت تقبيل السيوف لأنها * لمعت كبارق ثغرك المتبسم[٦]**

ولذلك نجد الحروب وأيام العرب أخذت حيزاً كبيراً في الشعر العربي الجاهلي معبرة عن ذلك الواقع بكل مكوناته الاجتماعية التي جعلت من الحرب رمزاً للقوة والفروسية والدفاع عن كيان القبيلة، وبذا أفرزت حياة اجتماعية يسودها التكتل والعيش في شكل جماعات بحثاً عن الأمن وارتياداً لأسباب العزة والفخر وأضحت معياراً لميزان القوة والضعف بين العشائر والقبائل بل مع أحلاف القبائل مع بعضها وهي إحدى آثار الصحراء وطبيعتها الممتدة الجافة التي تقل بها أسباب الحياة

---

(٢) بسطام بن قيس بن مسعود الشيباني أبو الصهباء سيد شيبان ومن أشهر فرسان العرب في الجاهلية يضرب المثل بفروسيته أدرك الإسلام ولم يسلم قتله عاصم بن خليفة بعد البعثة النبوية نحو ١٠ قبل الهجرة ــ أنظر الأعلام للزركلي ج٢ ص٥١ .

(٣) عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر العامري من بني عامر بن صعصعه فارس قومه وأحد فتاك العرب وشعرائهم وساداتهم في الجاهلية كنيته أبو علي ولد ونشأ بنجد سنة ٧٠ قبل الهجرة وتوفي سنة ١١هـــ ادرك الإسلام شيخاً . وفد على النبي (ص) يريد الغدر به فلم يجرؤ عليه فدعاه إلى الإسلام فاشترط أن يجعل له نصف ثمار المدينة وأن يجعله ولي الأمر من بعده فرده. وهو ابن عم لبيد الشاعر توفي سنة ١١ هجرية ــ أنظر الأعلام للزركلي ج٣ ص٢٥٢.

(٤) العقد الفريد، تأليف الفقيه أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، تحقيق الدكتور محمد قميحة، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٨٢م ج١، ص ١٠٥.

(٥) ديوان عنترة، ص ١٢٣

(٦) المصدر السابق، ص١٢٣.

الكريمة، وجعلت نوعاً من الحراك الاجتماعي الذي قدَّس الحرب في كثير من الأحيان بقول عمرو بن كلثوم مخاطباً عمرو بن هند:

نطاعن ما تراخى الناس عنا * ونضرب بالسيوف إذا غشينا**(١)

ولذلك امتدت القوة إلى ما بعد العصر الجاهلي وما خطبة الحجاج بن يوسف(٢) ببعيدة عن الأذهان (إني لأرى أبصاراً طامحةً وأعناقاً متطاولة ورؤوساً قد أينعت وحان قطافها وإني لصاحبها)(٣). حتى صارت الحرب ثقافة لكثير من الشعوب بعد ذلك وستظل هكذا إلى أن تقوم الساعة فهي صراع بين الحق والباطل أحياناً ولكنها صراع بين الإنسان والإنسان في موارد وفكر وفلسفة وثقافة الحياة بينهم.

لكن في تلك البقعة الصحراوية نجد من يحذر من الحرب ويوضح شرورها وما تؤدي إليه من دمار وهلاك قال زهير:

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم * وما هو عنها بالحديث المرجم**

متى تبعثوها تبعثوها ذميمة * وتضر إذا ضريتموها فتضرم**

فتعرككم عرك الرحا بثقالها * وتلقح كشافاً ثم تنتج فتتئم**(١)

ولكن كانت الشجاعة عرفاً اجتماعياً والإقدام لديهم خلق وعرف وفضيلة "فيتمادحون بالموت قصيعاً ويتهاجون بالموت على الفراش ويقولون فيه مات حتف أنفه" (٢).

فيقال مات فلان قصعاً إذا أصابته ضربة ورمية فمات مكانه، وكذلك قال حارثة بن بدر مفاخراً باستعذابهم الموت في المعارك:

وشيّب رأسي واستحق حلومنا * برعود المنايا فوقنا وبروقها**

---

(١) شرح القصائد العشر التبريزي ،ص٢٩٨، غشينا: دنا بعضنا من بعض.

(٢) الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفي أبوه محمد قائد داهية سلطان ولد ونشأ في الطائف بالحجاز ولد سنة ٤٠هـ وتوفي ٩٥هـ انتقل إلى الشام فلحق بروح بن زنباع عبدالملك بن مروان فكان في عديد شرطته قلده عبدالملك أمر عسكري وأمره بقتال عبدالله بن الزبير ــ أنظر تهذيب تاريخ دمشق لابن عسكر ج٤ ص٥١ ــ الأعلام للزركلي ج٢ ص١٦٨.

(٣) جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة العصر الأموي تأليف أحمد زكي صفوت الطبعة الأولى ١٩٣٣م شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ج٢ ص٢٧٥.

(١) ديوان زهير، ص٤٢/٤٣.

(٢) العقد الفريد، بن عبد ربه، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٢م، الجزء الثاني، ص ١٠١.

وإنا تستحي المنايا نفوسنا * وتترك أخرى مرة ما تذوقها**

رأيت المنايا بادئات وعوداً * إلى دارنا سهلاً إليها طريقها[٣]**

أما الثأر فقد أخذ حيزاً في شعرهم وهو من العادات التي تفشت في المجتمع البدوي في الصحراء فأدى إلى هلاك الناس والرزق الأرض. "والثأر يقضي بالانتقام لقتل القريب من القاتل نفسه أو من أحد أقاربه الذكور حتى الدرجة الخامسة"[٤]. وقد كان للمرأة دور في إشعال فتيل الثأرات فقد أثارت البسوس خالة جساس[٥] الحرب التي سميت باسمها بالكلمة مرة وبالشعر مرة أخرى "دارت الحرب عندما رمى كليب[٦] ناقة البسوس بسهم فأصاب ضرعها ولها عجيج حتى بركت بفناء البسوس فلما رأتها صاحت وا ذلاه فقال لها جساس أسكتي فلك بناقتك ناقة أعظم منها فأبت أن ترضى حتى زادوا لها إلى عشر فلما كان الليل أنشأت تقول تخاطب شعراً أخا جساس وترفع صوتها تسمع جساساً:

ودونك أزوراري إليك فإنني * محاذرة إن يغدروا ببناتي**

لعمرك لو أصبحت في دار منقذ * لما ضيم سعد وهو جار لأبياتي**

ولكنني أصبحت في دار معشرٍ * متى يعدُ فيها الذئب يعدوُ على شاتي**

---

(٣) الأغاني أبو الفرج الأصفهاني، بيروت، الجزء ٢١، ص ٤٤.

(٤) تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، د. ريجيس بلاشير، ترجمة د. إبراهيم الكيلاني، دار الفكر، دمشق، ص٣٩.

(٥) هو جساس بن مرة بن ذهل بن شيبان من بني بكر بن وائل شاعر من أمراء العرب في الجاهلية وهو الذي قتل كليب وائل وكان سبباً لنشوب حرب طاحنة بين بكر وتغلب دامت أربعين سنة قتل جساس في أواخرها نحو ٨٥ق هـ ــ أنظر الأعلام للزركلي ج٢ ص١١٩.

(٦) كليب هو كليب بن ربيعة بن الحارث بن مرة التغلبي الوائلي سيد الحيين بكروتغلب في الجاهلية ومن الشجعان الأبطال كانت منازله في نجد وأطرافها وبلغت هيبته أنه كان يحمي مواقع السحاب فيقول ما أظلت هذه السحابة في حماية وهو أخ مهلهل بن ربيعة وخال أمرؤ القيس بن حجرالكندي قتله جساس بن مرة البكري الوائلي فثارت حرب البسوس أطول حرب عرفت في الجاهلية بين بكر والتغلب ويقال اسمه وائل كليب ــ أنظر الأعلام للزركلي ج٥ ص٢٣٢.

فلما سمعها جساس قال لها، أسكتي لا تراعي: إني سأقتل جملاً أعظم من هذه الناقة سأقتل غلالاً"[١]. ثم دارت المعركة بعد ذلك سنين عدداً كما أوردتها كتب الأدب.

وهكذا كانت تدور الحروب في الصحراء وهذه الأبيات التي تحمل نفس وزهو الصحراء في ظلماتها وبيئتها وترحالها وإجارتها وبجانب إثارتها الرجال كانت المرأة وكلماتها تحمل وتشعل نار الثورة والغضب وتثير الهياج في قلوب الأبطال وقد أشار حسان بن ثابت إلى شهود المرأة في الحروب في فتح مكة:

تظل جيادنا متمطرات * تلطمهنّ بالخمر النساء**[٢]

والثأر عندما يطلبه البدوي يبدي عدم الانسياق للصلح أو الدية وبعضهم يحرض لعدم قبول الدية وطلب الثأر كقول لبيد:

ولم تحم أولاد الضباب كأنما * تساق بهم وسط الصريمة أبكر**

أجدكم لم تمنعوا الدهر تلعة * كما منعت عرض الحجاز مبشر**

لو شكان ما أعطيتني القوم عنوة * هي السنة الشنعاء والطعن يظأر**[٣]

وفي حالات قليلة كانت صلة الرحم تتغلب على رغبة الثأر للعزيز القتيل فيكون العفو عن القاتل حفاظاً على وحدة القبيلة، وحقناً للدماء "يقول الحارث بن وعلة الجرمي وقد فجعه قومه في أخيه:

قومي هم قتلوا أميم أخي * فإذا رميت يصيبني سهمي**

فلئن عفوت لأعفون جللاً * ولئن سطوت لأوهننّ عظمي**[٤]

---

(١) أيام العرب في الجاهلية، تأليف محمد أحمد جاد المولى علي حمد البجاوي محمد أبو الفضل إبراهيم، الجزء الأول، ص ١٤٥.

منفذ: أبو البسوس. غلالاً: فحل إبل كليب. سمى العرب هذه الأبيات بالموثبات لأن البسوس لما أنشدتها أوغرت الصدور.

(٢) ديوان حسان بن ثابت، دار صادر بيروت بدون ص٨.

(٣) ديوان لبيد بن أبي ربعية، ص٦١.أولاد الضباب : أولاد معاوية بن كلاب ، الصريمة: مجموعة الإبل .

(٤) ديوان الحماسة لأبي تمام حبيب بن أوس الطائي شرح العلامة التبريزي، علّق عليه وراجعه محمد عبدالمنعم خفاجي الطبعة الثانية ١٩٥٥ م مطبعة محمد علي صبيح ج١، ص ١٠٠.

(فقد عاش العرب في العصر الجاهلي حياة دامية قطعت أرحامها دماء القبائل التي سالت على سيوف أبنائها ورماحهم في وقائع لا تكاد تنتهي حتى تبدأ لأن صيحات الثأر بعد كل معركة كانت وما تزال تلاحق أصحابها)[١]. وهناك العديد من القصائد التي قيلت في إثارة القوم للأخذ بالثأر وتحتوي على الشعور بالحسرة على الفقد والثورة والتصميم على الثأر كقول المهلهل في بكائه على قبر أخيه كليب:

أتغدو يا كليب معي إذا ما * جبان القوم أنجاه الفرار**

أتغدو يا كليب معي إذا ما * حلوق القوم يشحذها الشفّار**

أقول لتغلب والعدّ فيها * أثيروها لذلكم انتصار**

خذوا العهد الأكيد عليّ عمري * بتركي كل ما حوت الديار**

وهجري الغانيات وشرب كأس * ولبسي جُبّة لا تستعار**

ولست بخالع درعي وسيفي * إلى أن يخلع الليل النهار**

وإلا أن تبيد سراة بكرٍ * فلا يبقى لها أبداً أثار**[٢]

وقد ثارت هذه العادة في الصحراء نسبةً لعدم وجود حكم أو قواعد منظمة لحياة الناس فالقبيلة والعشيرة هي التي تقدر شؤونها وكلما يراق لها من حرب أو سلم ولذا كان انفراط عقد النظم في كثير من الأحيان وحتى أفراد القبيلة جلهم لا يربطهم ارتباط نظمي في كلمة القبيلة ولذا أتى الثأر في تلك المناطق الفسيحة، فهو أحد إفرازات الصحراء وقد ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالفهم العام للحياة واصبحت جزءاً من ثقافة تلك البيئة وأثر تأثيراً سالباً على الحياة ولكنه أتى بنتاج أدبي أصبح جزءً من فهم وطبيعة تلك البيئة "فالشجاعة عندهم فخر ويمدح بعضهم بعضاً بموتهم في القتال ويتهاجون بالموت على الفراش ويقولون فيه مات فلان حتف أنفه" [٣].

يعزز ذلك الحارث بن حلزة في دعوته للثأر بقوله:

---

(١) دراسات في الشعر الجاهلي، د. يوسف خليف، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، ص ١٩٧.

(٢) أيام العرب في الجاهلية، البجاوي ، ص ١٥٢.

الشفار: جمع شفرة وهي السكين أو النصل. أنجاه الفرار: أي في الحرب.

(٣) بلوغ الإرب في معرفة أحوال العرب، للألوسي، الجزء الأول، ص ١٠٤.

إن نبشتم ما بين ملحة فالصـــا * قب فيـــه الأمــوات والأحيـــاء**[1]

يقول: إن نبشتم بين هذين الموضعين وجدتم أن قتلاكم أموات لأنه لـــم يثـــأر لهـــم، وقتلانا أحياء لأننا ثأرنا لهم.

(١) ديوان الحارث بن حلزة، ص ٢٧. ملحة والصاقب: موضعان.

صورة الموت والفناء في شعرهم:

امتدت الصحراء في مساحة مترامية الأطراف والعيش فيها يحتاج إلى مشقة في الرزق والحصول على الماء والكلأ أو مقابلة بعضهم بعضاً في المناسبات الاجتماعية المختلفة إضافة لبعض العادات السائدة كالثأر أو الحروب التي تنشأ بين القبائل المختلفة أو تلك الحيوانات المتوحشة التي تعيش في تلك البيئة خلقت نوعاً من التوتر وعدم الارتياح النفسي الذي أصبح عادة وسلوكاً نفسياً انطبع في مخيلة ونفس البدوي وبذا أثرت هذه العوامل والعناصر في الحياة عامة وفي الألفاظ والمعاني والصفات والعادات والتقاليد والأخلاق وفي النظرة العامة للحياة التي تتسم بالجدية في كثير منها ووضوح الرؤيا والشفافية والصدق، وعدم المبالغة والنظر لكل ما هو موجود بمنظار مباشر يطبع الصورة ويصبغها بصبغة القوة والخشونة (ولذلك نجد أن بعض صور الحياة والموت مأخوذة مباشرة من الطبيعة والواقع كتصور الدهر رامياً بصيد الإنسان)(١) .

فلو تنقلت في كل أغراض الشعر العربي القديم من غزل إلى وصف إلى فخر وغيره أو تصوير المثل الأخلاقية فستجد صورة واحدة تقابلك هي صورة الصراع بين الحياة والموت، فقد كانت هناك جملة عوامل ذكرناها آنفاً فكانت مجابهة الحياة ومكابدتها والعمل على استنفاد كل طاقة من أجل البقاء، فلو تأملنا مقطع مقدمة معلقة لبيد لكانت مثالاً لما ذكر يقول:

عفت الديار محلها فمقامها * بمنىً تأبد غولها فرجامها**

فمدافع الريان عرى رسمها * خلقاً كما ضمن الوحى سلامها(٢)**

وكان لأثر الحروب التي تنشأ بين القبائل وتنشب لأتفه الأسباب وأصغرها ويموت ويفنى فيها عدد غير قليل من الناس ترك أثراً لعدم تقديسهم للحياة ونظرتهم للموت والحياة بمنظار متقارب فانتقل هذا الشعور إلى أشعارهم على وجه الخصوص

(١) الحياة والموت في الشعر الجاهلي، مصطفى عبداللطيف منشورات وزارة الإعلام ١٩٧٧م ص٢٥٤.

(٢) ديوان لبيد، ص ١٦٣، عفت: درست، تأبد: توحش المحل حيث يحل القوم المقام حيث طال مكثهم فيه، الغول والرجام: جبلان، المدافع: مجاري الماء، الريان: وادي.

فتناولوه مسلمين به رغم عدم وجود دين أو شــرعة توضــح مســار الحيــاة لهــم ولأخراهم.

فقد ارتبطت هذه التأثيرات ارتباطاً وثيقاً بالبيئة فالحياة عنــدهم ســعي وكــد ورحلة لتأمين رزقهم في حياة كريمة محافظاً على كل الخصال والأخلاق الحميــدة، فإذا أتى فصل الخريف اخضرت الأرض وكثر الرزق فيمسح الطبيعة والحياة بلمسة جمالية تخفف من هجير الصيف وقرص الشتاء لتــنعم الحيــاة وترحــل العشــائر والفرقان، فالصيف الحار والشتاء القارص، يزيدان من صعوبة الحيــاة ومعاناتهــا، ولذلك ارتبط الوجدان عندهم بالقسوة ومكابدة الصعاب والخشونة في الأكل ومعانــاة في الشراب، فالبادية أدت لنوع من الشعور الجاد لتأمين الحياة ولذا ارتــبط الفنــاء والموت عندهم كما ورد في كثير من أشعارهم بالحركة، فالبدوي يــؤمن بــالموت فيرى الأطلال والرسم الدارس والطلل البالي والحيوان المفترس الذي يكابد الإنسان معه الحياة، فالذئب معه في حله وترحاله ، والصدام في أماكن العيش والمــاء لــذا ارتبطت الذهنية عندهم بالحركة والحرب كروافد، والثأر صراع وحركة، والحيوان المفترس في الحل والترحال، والصعاليك يجوبون الصحراء بحثاً عن الرزق، ولــذا نجد الحركة الدائبة في اتقاء تلك المصائب ومجابهتها. يقول زهير عن المــوت آت ولو ارتقى الإنسان إلى السماء بسلم في قوله:

ومن هاب أسباب المنايا ينلنــه * ولو نال أسباب الســماء بســلم**(١)

ويذكر كعب بن سعد الغنوي أن ترحاله لا يعجل بوفاته ولا مكوثه يقول:

ألم تعلمــي ألا يراعــى منيتــي * قعودي ولا يــدني الوفــاة برحيلــي**

مع القدر الموقوف حتى يصيبني * حمامي لو أن النفس غير عجول**(٢)

ويعلم عمرو بن كلثوم أن المنايا تدركه مهما كان يقول:

---

(١) ديوان زهير بن أبي سلمى ، ص٥٠.

(٢) مجموع أشعار العرب، د. عبد الملك بن قريب الأصمعي، تحقيق وليام بن الورد، بيروت، دار الأوقــاف، ١٩٨١م، ص ٦٠٥.

وإنا سـوف تـدركنا المنايـا * مقـــدرة لنـــا ومقـــدرينا**[١]

وأن عنترة بن شداد ذلك الشاعر الفارس الذي عاش حياته في صراع مـع الحيـاة والموت وأن المنية تأتيه مهما أسرع وارتحل يقول:

وعرفت أن منيتـي إن تـأتني * لا ينجني منهـا الفـرار الأسـرع**
فصبرت عارفـة لـذلك حـرة * ترسو إذا نفس الجبـان تطلـع**[٢]

والفكر الجاهلي جعل الموت شبحاً أمام عينيه لا مفر منه يطارده أينما قطن ويوضح الحارث بن حلزة اليشكري في معلقته العلاقة بين الحياة والأمنية في قوله:

إذ تمنـونهم غـروراً فسـاقت * هـم إلـيكم أمنيـة أشـراء**[٣]

ويقول عروة بن الورد شاعر الصحراء يخاطب زوجه بنت منذر ذاكراً أنه لا يعيش إلا لحظته الآتية قائلاً أن الموت لا يتأخر:

فإن فاز سهم للمنية لـم أكـن * جزوعاً وهل عـن ذاك متـأخر**[٤]

يرى زهير بن أبي سلمى أن المنايا تتحرك بدون تحديد.

يقول:

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب * تمته ومن تُخطى يعمر فيهـرم**[٥]

ويقول عنترة بن شداد في قصيدة أيضاً حول هذا المعنى:

بكرت تخوفني الحتوف كـأنني * أصبحت عن عرض الحتوف بمعزل**
فأجبتهـا إن المنيـة منهـل * لابد أن أسـقى بكـأس المنهـل**[٦]

---

(١) شرح القصائد العشر، التبريزي، ص ٢٨٧.

(٢) ديوان عنترة بن شداد، ص٨٥. عارفه: يريد نفسه، ترسو: أي تثبت ولا تتطلع إلى الفرار.

(٣) ديوان الحارث بن حلزة، ص٤٩. أشراً: بطراً، والأشر: البطر لا يستعملان إلا في الشر، فهـو يـذكرهم بلقائهم لهم بطراً فساقتهم إليكم أمنيتهم التي يريدون وسوف يجدونها غداً

(٤) ديوان عروة بن الورد، ص ٣٦.

(٥) ديوان زهير بن أبي سلمى، ص ٤٩.

ويقول طرفة بن العبد أن الموت آتٍ لا يخطئ أحداً.

أرى الدهر كنزاً ناقصاً كل ليلـــة * وما تنقص الأيـــام والـــدهر ينفـــد**

لعمرك إن الموت ما اخطأ الفتى * لكالطول المرخي وثنيـــاه باليـــد[٢]**

(وقد اعتاد البدوي منذ صغره على مشاهد الحياة الملأى بالأخطار فيعوده أبوه على ذلك عندما يحين دوره)(٣).

وبذا تولدت هذه اللمسة الحزينة في ذاك الجو المفعم بكثير مـــن المـــؤثرات النفسية التي أصبغت هذه الصيغة الحزينة التي أتت أطرافها متناثرة في قصائدهم.

(ونجد هناك وأد البنات في فترة من فترات ذاك العصر خوفا مـــن العـــار أو خوفا من الفقر كما حكى لنا القرآن الكريم إلى أن جاء الإسلام ورفع العـــرب عـــن وهدتهم)[٣]. قال تعالى: (وإذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلـــت)[٤] وكـــان فـــي ذاك الوقت أن تدفن الفتاة حية وقد اقترن ذلك بفلسفة اجتماعية معينـــة ولـــم يـــرد فـــي أشعارهم بصورة واضحة .

وهكذا أوردت هذه المؤثرات من خلال أشعارهم تحمل هذه المعاني للأسباب التي ذكرناها، وكان لها دورها في بناء قصائد تعبر عن شـــعور أولئـــك الشـــعراء ويعكس كل ذلك.

---

(٦) ديوان عنترة بن شداد، ص٩٩.

(٢) ديوان طرفة بن العبد، ص ٤٩.

(٣) تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، د. ريجيس بلاشير، ص ٣٧.

(٣) في ظلال القرآن سيد قطب طبعة ١٩٩٦م دار الشروق القاهرة ج٦، ص ٣٨٣.

(٤) سورة التكوير الآيتان (٨ – ٩) .

الفصل الثالث

أسواق العرب في الصحراء ودورها الأدبي

كان العرب في العصر الجاهلي يقيمون أسواقاً عامة ومتفرقة في أرجاء الصحراء للتجارة ومبادلة المنافع والأخبار ومناشدة أشعارهم والأدب على وجه العموم وغيرها من شؤون حياتهم، فهي منتدى يجتمع فيه من أرجاء الصحراء ومحفل أدبي تجاري واسع ومجمع فيه لمختلف القبائل والبطون ومن أشهر هذه الأسواق، سوق عكاظ، وسوق مجنة، وسوق ذي المجاز، وسوق دومة الجندل، وسوق مكة، وغيرها من الأسواق التي حملت أخبارها كتب الأدب. (وأن هذه الأسواق موسمية وكانت ذات أثر كبير في حياتهم الاقتصادية ولم تكن تقتصر على العرب بل كان يؤمها بعض الروم والفرس)[١].

وكانت هذه الأسواق متوزعة في الصحراء وميداناً فسيحاً لتبادل الآراء والأفكار واستعراض القصائد الشعرية والمفاخرات ومعرضاً لإذاعة مفاخر القبيلة والمباهاة بالفصاحة (وفيها أُلقيت أشهر القصائد كما ورد في أخبار العرب فأنشد عمر بن كلثوم معلقته وقصة الأعشى التي أنشد فيها قصيدته في مدح المحلق[٢])[٣].

وكما حملت كتب التراث أن الشاعر النابغة الذبياني كان حكماً للشعراء بسوق عكاظ وكانت تضرب له قبة فيدعوهم فيتنادوا لهذا المكان فيأتي دور الشعراء في تجويد أشعارهم وتنقيحها فتأتي أعذب القصائد وأجودها وكانت سبباً في تقريب لهجات العرب إلى بعضها البعض فيجتمع العرب من شتى أنحاء الصحراء بكل لهجاتهم، وأدى ذلك للتلاقي والتفاهم اللغوي ووحّد أفكارهم وأشعارهم وأذواقهم.

يقول صاحب الأغاني: أخبرني حبيب بن نصر قال حدثنا عمر بن شيبة كان يضرب للنابغة فيه أدم في سوق عكاظ فيأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارهم قال: وأول من أنشده الأعشى ثم حسان بن ثابت ثم الخنساء بنت عمرو قولها:

---

(١) في الأدب العربي القديم عصوره واتجاهاته وتطوره ، الدكتور محمد صالح الشنقيطي، دار الأندلس للنشر والتوزيع، حائل، الطبعة الثالثة، ١٤٢٤هـ،ج١ ص ٤١.

(٢) المحلق هو: المحلق بن حنتم بن شداد الكلابي العامري كريم جاهلي من نسله أم الهيثم الكلابية كانت راوية أهل البصرة ــ أنظر الأعلام ج٥ ص ٢٩١.

(٣) قصة الأدب في الحجاز في العصر الجاهلي،تأليف عبدالله عبدالجبار – محمد عبدالمنعم خفاجي ص١٧٥.

وإنَّ صخراً لتأتم الهداة به * كأنه علم في رأسه نار**

فقال: والله لولا أن أبا بصير أنشدني آنفاً لقلت إنك أشعر الجن والإنس فقام حسان ابن ثابت فقال: والله لأنا أشعر منك ومن أبيك فقال له النابغة: يا ابن أخي أنت لا تحسن أن تقول:

فإنك كالليل الذي هو مدركي * وإن خلت إن المنتأى عنك واسع**[١]

والصحراء ذاك الفناء الواسع الذي هام فيها عدد من الشعراء الذين نقلت أخبارهم كتب التراث إذ لم يقتصر دورهم في الأسواق بل هاموا في الصحراء فنقلت أخبارهم ومجنون ليلى أنموذج لهؤلاء رغم أنه في وقت متأخر وتشكيك بعض الباحثين في أشعاره إلا أنه مدون وذو رصانة بالغة يقرأه الناس. يقول مجنون ليلى[٢] معبراً عن تلك الطبيعة ومناشداً محبوبته بمبادلته ذاك الغرام يقول:

يميل بي الهوى في أرض ليلى * فأشكوها غرامي والتهابي**

وأمطر في التراب سحاب جفني * وقلبي في هموم واكتئاب**[٣]

ونلحظ كيف أنه يخاطب مفردات الصحراء كالنسيم والريح وهذا دلالة على تعمق الصحراء في نفوسهم كقوله:

ألا يا نسيم الريح حكمك جائرٌ * عليّ إذا أرضيتني ورضيتُ**

ألا يا نسيم الريح لو أن واحداً * من الناس يُبليه الهوى لبُليت**[٤]

والأسواق إضافة لدورها الأدبي فهي مكاناً للمفاخرات وتلقي الأخبار، "قابل زرعة بن عمرو النابغة الذبياني بسوق عكاظ فأشار عليه أن يشير على قومه بترك حلف

---

(١) الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، الجزء العشرون، ص ٣٢١.

(٢) مجنون ليلي: هو قيس بن الملوح بن مزاحم العامري شاعر غزل من المتيمين من أهل نجد لم يكن مجنوناً وإنما لقب بذلك لهيامه في حب ليلى ، جمع بعض شعره في ديوان توفي سنة ٦٨ هـ ـ أنظر الأعلام للزركلي ج٥ ص٢٠٨.

(٣) ديوان مجنون ليلى، تقديم وشرح وتعليق د. محمد محمود، دار الفكر اللبناني، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م، ص ٤٩.

(٤) المصدر السابق، ص ٥٨.

بني أسد فرد عليه النابغة بقصيدة أبى الغدر فيها وبلغه أن زرعة يتوعده كما جـاء في مناسبة الأبيات في شرح ديوانه فقال النابغة في ذلك شعراً منه:

نبئت زرعة والسفاهة كاسمها * يهـدي إلـيّ أوابـد الأشـعار**

فحلفت يا زرع بن عمرو أنني * مما يشق علـى العـدوّ ضـراري**

أعلمت يوم عكاظ إذ جـاريتني * تحت العجاج فما خططت غبـاري**

إنـا اقتسـمنا خطيتنـا بيننـا * فحملت بَّـره واحتملـت فجـار**[1]

وقد أحوجت الأسواق العرب إلى ضبط المواقيت ومطالعة الأنـواء حتـى لا تقـع مواسمها في ظروف مناخية صعبة.

"فنهل العرب من علم الأنواء حتى عرفوا به كما احتـاج عُـراف الأسـواق وسدنتها إلى تطوير معارفهم في التواريخ والأنساب وتفسير الرؤيا"[2].

وكانت لهذه الأسواق التي يؤمها عدد من الشعراء والأدباء وعامة الناس من أرجاء الصحراء أعراف وقوانين وعادات يعيشها الأعراب فيما بينهم فـي إنشـاد الشعر وهيئة الشاعر، فهذه متعارفة بينهم وكان للشعراء أفانين في اجتـذاب أفئـدة الناس، (فالأعشى يرتدي ملابس خاصة للإنشاد ويقرأ الشعر بطريقة توهم السـامع أن هناك آلة وترية تصاحب قراءته، وحسان بن ثابت يرتدي أفخر ملابسه ويخضب لحيته بالحناء بحيث يبدو كهيئة الأسد الوالغ في دم فريسته وكان الشاعر ينشد شعره قائماً فوق نشذ من الأرض)[3].

فهذه الأسواق إحدى مؤثرات الصحراء الاجتماعية وكان لها دور فاعل فـي ميلاد وتجويد وانتشار الشعر في ربوع الصحراء ولذلك ظهرت قيمتها الاجتماعيـة والأدبية والثقافية والتاريخية في معرفة وتواصل القبائل والعشائر مع بعضها البعض في سبيل خلق نوع من الوحدة اللغوية والاجتماعية والنفسية والجغرافية إذ لا سـبيل لوسائل أخرى تعين على خلق هذه المعطيات في اجتماع هذه المجموعات العربيـة

---

(١) ديوان النابغة الذبياني، ص ٩٧-٩٨.

(٢) الخطاب الإبداعي الجاهلي والصورة الفنية، تأليف د. عبد الإله الصائغ، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م، المركـز الثقافي العربي، ص ١٥١.

(٣) المرجع السابق، ص ١٥٢.

في زمان ومكان واحد ولأهداف متعددة تكاملت مع بعضها وأدت دورها المنوط بها.

"فهذه الأسواق محرمة حرمة الأشهر الحرم والعربي يأتيها آمناً إذ لا يجوز القتال فيها وتقام فيها مواسم الشعر حتى يعتاد الناس موافاتها، فقد كان وجود الشعراء في الأسواق من أكبر الحوافز لتدافع الناس إليها وفيها سوانح لتأدية طقوس العبادة وممارسة الإعلام البدائي لامتداح ملك أو أمير أو قبيلة أو شاعر وفيه كثير من البيوع"(١).

وبذلك تميزت هذه الأمة العربية بصفات قلما توجد بهذا التكامل في الأمم والشعوب الأخرى والتي لم تتغير كثيراً لا بفعل الزمان أو المكان وكان للصحراء أثرها في إصباغ هذه القيم والصفات "وذلك للقيم الإيجابية المرتبطة بتكوينه العقلي والمذهبي ولم تتولد بفعل إشباع حاجات فسيولوجية مباشرة ولكن من خلال معايشته للواقع جعلته يحس بأهميتها الحيوية له لكونه إنساناً ينشد التواءم مع بيئته"(٢).

---

(١)الخطاب الإبداعي الجاهلي والصورة الفنية، تأليف د. عبد الإله الصائغ، ص١٩٦-١٩٧.

(٢) قصيدة المديح في الأندلس. د.أشرف محمود نجا، ص١٧.

الفخـــر في الصحراء:

جُبل البدوي على حب الصفات والعادات النبيلة المستمدة من وحي حياة البادية الصحراوية فهي التي مثلتهم وشكلت طباعهم وألهبت فيهم جذوة البطولة والقوة وقيم الشهامة والمروءة والكرم، ولذلك نجد الشاعر يفخر ليلبس هذه القيم والفضائل نفسه وقبيلته والحماسة تدخل في الفخر وقد وردت في كثير من أشعار الجاهليين فعندها يقول طرفة بن العبد:

أنا الرجل الضرب الذي تعرفونه * خشاش كرأس الحيـــة المتوقـــد**(١)

فهو يفخر بنفسه ولكن تنداح هذه المعاني والصفات على عشيرته وقبيلته فيأخذه الزهو بالقوة والشدة يقول:

إذا القوم قالوا من فتى خلت أنني * عنيتُ فلـــم أكســـل ولـــم أتبلـــد**(٢)

يقول إذا قالوا من فتى لهذه المفازة خلت أنهم يعنوني ويقولون ليس لها غيره فلم أكسل عن أن أقول أنا لها، وأنصب الفخر معظمة في وصف الشجاعة والقوة للفرد والقبيلة. يقول عنترة يخاطب محبوبته عبلة:

يا عبل لو أن المنية صـــورت * لغدا إلىَّ ســـجودها وركوعهـــا**(٣)

ويقول عنترة أيضاً:

وما الفخر في جمع الجيوش وإنما * فخار الفتى تفريق جمع العســـاكر**(٤)

وكقوله :

إن المنيـــة لـــو تمثـــل مثلـــت * مثلي إذا نزلـــوا بضـــنك المنـــزل**(٥)

ويقول أيضاً في فخره:

---

(١) ديوان طرفة بن العبد، ص٣٩. الضرب: الخفيف – الخشاش: الرجل الذي ينخش في الأمور ذكاء ومضاء.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٠.

(٣) ديوان عنترة، ص٨٣.

(٤) المصدر السابق، ص٦٨.

(٥) ديوان عنترة ، ص٩٩.

أثنى عليّ بما علمت فإنني * سهلٌ مخالفتي إذا لم أظلم**
فإذا ظلمت فإن ظلمي باسل * مر مذاقته كطعم العلقم**(١)

ويعد الفخر من أبرز موضوعات الشعر الجاهلي وذلك راجع إلى طبيعة الحياة البدوية في ذلك العصر فالحياة تستلزم شجاعة وقوة فائقة فالفارس الشجاع هو الذي يحمي القبيلة والعشيرة ويحمي مالها وديارها ويصون عرضها.

وافتخر البدوي بنفسه وقبيلته وعشيرته والفضائل والصفات الجليلة والعادات والأفعال النبيلة فالشجاعة والقوة والشدة والكرم سنامها فأتت الخمر أحد روافد الكرم لديهم فالصحراء ألهبت فيهم هذه العواطف والمعاني فالقبيلة أحد مكونات الصحراء وأبرز معاني الحماية والدفاع عن النفس في ذاك المجتمع الصحراوي .

يقول عمرو بن كلثوم يفتخر بقبيلته بني تغلب في الخلاف الذي حدث بينهم وقبيلة بني بكر حيث أظهر فيه التعالي والكبرياء أمام الملك عمرو بن هند يقول:

نطاعن ما تراخى الناس عنا * ونضرب بالسيوف إذا غشينا**
بسمرٍ من قنا الخطى لدن * ذوابل أو ببيض يعتلينا**
نزلتم منزل الأضياف منا * فأعجلنا القرى أن تشتمونا**
قريناكم فأعجلنا قراكم * قبيل الصبح مرداة طحونا**(٢)

ويكون الفخر بالرئاسة والمجد الحربي كقول طرفة في ذلك:

ولست بحلال التلاع مخافة * ولكن متى يسترقد القوم أرقد**
وإن تبغني في حلقة القوم تلقني * وإن تقتنصني في الحوانيت تصطد**(٣)

وقد يكون الفخر بالبطولة والإيقاع بالأعداء. يقول المنخل اليشكري يفتخر بقومه ويصفهم بأنهم رجال حرب ملازمين لخيلهم لابسين دروعهم ومكتملي العتاد الحربي مغيرين على غيرهم يقول:

---

(١) المصدر السابق، ص١٢٢.باسل: كريه، العلقم: الحنظل.
(٢) شرح القصائد العشرة التبريزي، ص ١٦٩.
(٣) ديوان طرفة بن العبد، ص ٥٩.

وفــــوارس كــــأوار حــــر * النــــار أجــــلاس الــــذكور**

شــــدوا دوابــــر بيضــــهم * فــــي كــــل محكمــــة القتيــــر**

واســــتلأموا وتلببــــوا * إن التلبــــب للمغيــــر[١]**

وكانت العرب تهتم بالأنساب والفخر بهم بإعتبار أن ذلك عنصر من عناصر القوة والتفوق.

وإذا كان الفخر بالنفس والقبيلة والكرم أيضاً افتخروا ببعض العادات الاجتماعية كالخمر مثلاً لإهلاك مالهم فيها ويعتبرونه أحد روافد الكرم وذلك لما كان عندهم من مكانة (وعهد الإنسان بالخمرة عهد العنب بالاختمار عهد قِدم الغريزة منه لا فـرق في تعاطيها بين رفيع ووضيع، أما الناس من حيث هم مجتمع فإنهم مـن الخمـرة فئتان واحدة تراها سبلاً إلى الخبل والخضوع والضعف والخلاعة وأخرى يعتبرهـا أداة لإرهاف الحسي ومنجاة من الهموم على أن الشعراء جعلوها مهبطـاً لإلهـامهم وسلماً لإبداعهم والخمرة عند العرب كانت لدواعي الفخر والفتوة)[٢].

يقول طرفة بن العبد في ذكر الخمر وهو لا يبالي في ذكرها وشربها رغـم أنها أفنت ماله كله وهو غير آبه لذلك لأن الفقراء لا ينكرون إغداقه عليهم ويعتبـره فخراً له يقول :

وما زال تشرابي الخمور ولذتي * وبيعي وإنفاقي طريفـي ومتلـدي**

إلى أن تحامتني العشيرة كلهـا * وأفـردت أفـراد البعيـر المعبـد**

رأيت بني غبراء لا ينكرونـي * ولا أهل هذاك الطراف الممـدد[٣]**

أما امرؤ القيس يقول انه ودع الصبا إلا أربع لذات الخمر أو لهن:

وأصبحت ودعت الصبا غير أنني * أراقب خلات مـن العـيش أربعـا**

---

(١) شعراء النصرانية قبل الإسلام، الأب لويس شيخو، ص٤٢٢. الأوار : الوهج أي هم في التهاجم وتنظيم إذا لقوا ولقوا ، أجلاس الذكور : فرسان الخيل – يقال شدوا دوابر بيضهم إلى الدروع مخافـة أن تسـقط إذا جروا الخيل، القتير: مسامير الدروع، استلأموا: أي لبسوا اللامات وهي الدروع، تلببوا: أي تحزمـوا لأن التلبب من شأن المغير.

(٢) شعر اللهو والخمر تاريخه، أعلامه، جورج، غريب، دار النعامة، بيروت، لبنان، ص٦.

(٣) ديوان طرفة بن العبد ص٤٠.

فمنهن قولي للنــدامى ترفقــوا * بداجون نشاجاً من الخمر مترعا**[(١)]

فاستعذبوها وأحبوها حتى شبهوا بها ريق محبوباتهم لعذوبتها. يقول عبيد الأبرص:

إذا ذقت فاها قلت طعم مدامــة * مشعشــعة ترخـــى الإزار قـــديح**

بماء سحاب في أباريق فضـــة * لها ثمن فـــي البـــائعين ربـــيح**[(٢)]

وتحدثوا عنها كثيراً في أشعارهم وذكورا الكؤوس والسقاة والغيان والندامي والقدح، والصحن، وشربوها أيضاً في أباريق من فضة وكانت لها عادات وطقوس صوروها في أشعارهم وعمرو بن كلثوم في افتتاحية معلقته يصور طقوسها وحلبتها وســقياها من اليمين إلى الشمال ويجلسون في جماعات وهي عادة أهل البادية فهـــي أنـــواع وأشكال. يقول عمرو بن كلثوم في افتتاحية معلقته:

ألا هبي بصــحيك فأصــبحينا * ولا تبقـــى خمـــور الأنـــدرينا**

مشعشعة كـــأن الحـــص فيهـــا * إذا مـــا المـــاء خالطهـــا ســـخينا**

صبنت ألكاس عنـــا أم عمـــرو * وكان الكأس مجراهـــا اليمينـــا**[(٣)]

وقد ارتبطت بعادات وتقاليد ذاك المجتمع البدوي وهي فخرهم. يقول علقمة إبن عبدة واصفاً الخمر في فخره:

وقد أشهد الشرب فيهم مزهرٌ رنمٌ * والقــوم تصرعهم صهباء خرطوم**

كأس عزيز من الأعنـــاب عتّقهـــا * لبعض أحيانهـــا حانيـــة حُـــوم**[(٤)]

وهي عندهم باعثة للجود والكرم وإتلاف المال. يقول عمرو بن كلثوم.

ترى اللحز الشحيح إذا أمـــرت * عليـــه لمالـــه فيهـــا مهينـــا**[(٥)]

---

(١) ديوان امرئ القيس، ص٩٩. أراقب خلات: انتظر خصال أربعا، الندامى: صحبة الشراب، ترفقــوا: فـــي شرب الراح وفي حث الكأس، يداجون: يخادعون، نشاج مترع: زق مليء خمراً.

(٢) ديوان عبيد بن الأبرص، ص٤٦. المشعشعة: الممزوجة بالماء، القديح: المرق أو مايبقى في أسفل القـــدر، يرخي الازار: أي أن الذي يشربها يشعر بالكبرياء فيرخي إزاره.

(٣) شرح القصائد العشر، التبريزي، ص ٢٨٤-٢٨٥.

(٤) المفضليات، المفضل الضبي ، ص ١٢٠.

(٥) شرح القصائد العشر، التبريزي، ص ٢٨٦. اللحز: الضيق الصدر، الشحيح: البخيل، مهينا: يستخف بمالـــه أي يجود به.

ثم استهانوا بالحياة وذلك لكثرة حروبهم وتوقعهم الفجيعة في أنفسهم وأهليهم على لذات الحياة، يعلون منها وينهلون وهم يرون الموت يتخرم الأعمار ويزوي الآمال فلا بد من استمتاعهم بحياتهم القصيرة قبل موتهم وقد عبر طرفة بن العبد عن هذه النزعة خير تعبير في قوله:

وما زال تشرابي الخمور ولذتي * وبيعي وإنفاقي طريفي ومتلدي**

إلى أن يقول:

فإن كنت لا تستطع دفع منيتي * فدعني أبادرها بما ملكت يدي**

فلولا ثلاث هن من عيشة الفتى * وجدك لم أحفل متى قام عودي**

فمنهن سبقي العاذلات بشربة * كميت متى ما تعل بالماء تزبد**(١)

وأما عنتره فقد افتخر بها بجانب صرف ماله فيها وأنه اشتراها وشربها في زجاجة صفراء مخططة ومعها إبريق أبيض مسدود الفوهة بالفدم "المصفاة" وهو بجانب ذلك حريص على عرضه ويكرم ضيفه على ذلك قائلاً:

ولقد شربت من المدامة بعدما * ركد الهواجر بالمشوق المعلم**

بزجاجة صفراء ذات أسرة * قرنت بأزهر في الشمال مفدم**

فإذا شربت فإنني مستهلك * مالي وعرضي وافر لم يكلم**

وإذا صحوت فما أقصر عن ندى * وكما علمت شمائلي وتكرمي**(٢)

وكما ذكرنا سابقاً من تمكن عنصر القوة والقتال والشدة في كل موضوع من الموضوعات نجد أن عنترة رغم شرابه لها وافتخاره بها ولكن القتال والكر والفر أحب إليه من قرع الملاهي يقول :

---

(١) ديوان طرفة بن العبد، ص ٥١.

(٢) ديوان عنترة بن شداد ص ١٢٢-١٢٣ركد الهواجر: حيث قام كل شيء على ظله، المشوق: الكأس وقيل البعير أي أنه اشترى خمراً ببعيره . معلم: فيه علامة .

صباح الطعــن فــي كــر وفــر * ولا ساق يطــوف بكــأس خمــر**
أحــب إلىّ مــن قــرع الملاهي * علــى كــأس وإبــريق وزهــر[٢]**

بل وصفوها وصفاً دقيقاً ومكانها أيضاً وهذا يدل على مدى حبهم وتعلقهم بها يقــول الأعشى يصف الخمر:

وقد غدوت إلى الحانوت يتبعني * شاوٍ مشل شلول شلشل شــول[٣]**

"إن أكثر الشعراء الذين وردت الخمر في أشعارهم الأعشى وأتت أكثر تفصيلاً حتى لصقت به"[٤].

ونلحظ أن المجتمع الجاهلي تغلب عليه صورة الفروسية في تقاليــده وعاداتــه وأخلاقه والحياة بكل تفاصيلها، والفروسية في ذلك المجتمع البدوي تتطلب عدداً من الصفات التي يجب توفرها فهي قيم يُعتز بها ومن هذه القيم الكرم والإنفاق وإتــلاف المال عن سعة.

فقد رفعت الحياة اليدوية في الصحراء من هذه القيم لشدتها فالخمر أصــبحت مكاناً للإنفاق والتباهي في إتلافه ولذلك تداخل الخمر مع هذه العادات والقيم ولذلك وصفوا لونها وشكلها وجلستها وكأسها وأماكن جودتها، ولذلك نجد طرفة مثلاً بذكر الخمر في معرض حديثه عن الفخر بنفسه وبطولته كقوله:

وإن تبغني في حلقة القوم تلقني * وإن تقتنصني في الحوانيت تصطد[١]**

ولذلك تناولها الشعراء ليس لأنها متعة حسية فحسب بل وصفوا ما بها من طقــوس في إتلاف المال وإنفاقه بجانب المغنيات اللائي يطربن المكان "فقد كانت القيان مــن

---

(٢) المصدر السابق، ص٧٣.

(٣) ديوان الأعشى، ص ١٤٧.

(٤) خمريات أبي نــواس، دراسة تحليلة، أيمن محمــد زكي العشماوي، دار المعرفة، الجامعية، ١٩٩٨م، ص ٢٤٠.

(١) ديوان طرفة بن العبد، ص ٧٩.

الوفرة والشيوع في الحانات ودور اللهو العامة وفي مجالس الملوك والسادة والأشراف وفي مجالس الشعر خاصة"[١].

ولذا نجد الغناء والقيان والخمر عادات وتقاليد سادت في ذاك المجتمع وهي إحدى مؤثرات الصحراء فكان اللهو لملئ فراغ البدوي الذي لم تكن لهم أعمال تشغلهم وبساطة الحياة فتأتي هذه الأشياء تحت قبة الصحراء الزرقاء التي يهيم فيها البدوي متناسياً هموم حياته ومعاناته فيجتمع الأعراب يتسامرون ويلهون ويسطرون القصائد الحسان ويتنادمون على صوت المعازف والدفوف بل امتدت هذه العادات حتى بعد العصر الجاهلي وأخذت أشكالاً وتقاليد مختلفة وخاصة في العصر العباسي الذي تداخلت فيه اللغات والعادات والأجناس.

وعلى الرغم من كثرة هذه العادات في شعرهم إلا أننا نجد (أن العفة شرطاً من شروط السيادة والرياسة كالكرم والشجاعة فكانت العرب بطبعها تكره الخلاعة والمجون ولهذا كثر فخرهم بالعفة وتمدحوا بها)[٢]. يقول عنترة مدللاً على ذلك:

أغشي فتاة الحي عند حليلها * وإذا غزت في الجيش لا أخشاها**

وأغضُّ طرفي ما بدت لي جارتي * حتى يواري جارتي مأواها**

إني امرؤ سمح الخليقة ماجدٌ * لا أتبع النفس اللجوج هواها**[٣]

ولهذا نجد أن هذه العادات كانت وليدة البيئة وأصبحت جزء من الحياة الاجتماعية فيها وهكذا توارثها الناس عبر الحقب والعصور المختلفة.

وقد امتد تأثير الفخر من بعد العصر الجاهلي وأصبح سمة كل عربي يفخر بنفسه بعد أن دخلت كثير من الأمم في المجتمع العربي وافتخروا ببطولاتهم وشجاعتهم، بل أصبحت الصحراء مطية ودليلاً لمن يقطع فلواتها ويشق مجاهلها فهي باتساعها ووحشتها تكون دليلاً على الشجاعة والقوة والبطولة لمن يتجشم

---

(١) القيان والغناء في العصر الجاهلي، د. ناصر الدين الأسد، دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية، ١٩٦٨م، ص ١٧٦.

(٢) عناصر الإبداع الفني في شعر عنترة، د. ناهد أحمد السيد، ١٩٩٦م، دار المعرفة الجامعية، ص ١٠٠.

(٣) ديوان عنترة بن شداد، ص١٥٣. أغشى فتاة الحي: أزورها.

مخاطر السفر فيها لوحده ولذلك نجد المتنبئ في العصر العباسي يفخر بذلك في قوله:

فالخيل والليل والبيداء تعرفني * والضرب والطعن والقرطاس والقلم**
صحبت الفلوات الوحش منفرداً * حتى تعجب مني القــور والأكــم**[١]

ولذلك نجد أن الفخر أحد سمات ومكونات الصحراء في الحياة الاجتماعية.

---

(١) ديوان أبي الطيب المتنبئ، ج٣ ص٣٦٩.

الفصل الرابع

شعــر الصعــاليك

شعر الصعاليك

في معظم القصائد الجاهلية نجد أثراً ظاهراً من آثار الصحراء بل نجد هذا الأثر في العصور التي اقتفت الشعر الجاهلي في ألفاظه ومعانيه وصوره وشعر الصعاليك وجد وترعرع في هذه البيئة .(الصعلكة أحد مظاهر الحياة الاجتماعية في الصحراء، والصعلكة هي الفقر، والصعاليك هم الفقراء، وتصعلك الرجل إذا افتقر)[1].

فالصعلكة تعني الفقر فهي أثر من آثار الصحراء وترتبط ارتبطاً وثيقاً بتلك البيئة وقلة الرزق حتى أصبحت ظاهرة في المجتمع الصحراوي إذ اشتهر منهم أفراد فقراء ولكنهم شجعان أقوياء ذوو حس مرهف وإدراك لما بينهم وبين الأغنياء من فوارق فآلمهم خلو أيديهم من المال وعجزهم عن مجابهة متطلبات الحياة فثاروا على النظام الاجتماعي الثأر من الأغنياء الأشحاء في مجتمع بدوي يتنقل في أرجاء الصحراء وحكمه القبيلة ومنطقه القوة وأشهرهم الشاعر الشنفرى، وعروة بن الورد، وتأبط شراً "فعاشوا في جماعات كقطاع للطرق فيغيرون ويغنمون ويأوون إلى شعاب الجبال والكهوف والوديان... فانتظموا وتوحدوا بالارتزاق عن طريق الغارات في الصحراء بحثاً عن الفرصة المواتية فكانت لهم أشعار ويعتزون بأنفسهم ومقدرتهم في التغني بصفات مجتمعهم الجديد فآنسوا وحشة الصحراء ووعورة طرقها: قال تأبط شراً يمدح أخواناً له في النضال:

جزى الله فتياناً على العوض أمطرت * سماؤهم تحت العجاجة بالدم**[2]

وامتازوا بمعرفتهم لمجاهل الصحراء وطرقها ورويت عنهم كثير من القصص فامتازوا بالشجاعة، ومغامرات الحياة لتحقيق غرض شريف في نظرهم وهو كفكفة دموع البائسين والفقراء ولا مهابة للموت عندهم وذلك من خلال أشعارهم القوية

---

(١) لسان العرب، ابن منظور، مادة صعلك، ص ٢٠.

(٢) الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، الجزء٢١، ص ١٤٢.

التي أخذت منحى القوة والبطولة والفخر بأفعالهم أقوالهم". يقول عروة ابن الورد لزوجته في إحدى قصائده:

أقلي عليّ اللوم يا ابنة منذر * ونامي وإن لم تشتهي النوم فاسهري**
ذريني ونفسي أم حسان إنني * بها قبل أن لا أملك البيع مشتري**
أحاديث تبقى والفتى غير خالد * إذا هو أمسى هامة فوق صيّر**
ذريني أطوف في البلاد لعلني * أخليك أو أغنيك عن سوء محضري**
فإن فاز سهم للمنية لم أكن * جزوعاً وهل عن ذاك متأخر**
وإن فاز سهمي كفكم عن مقاعد * لكم خلف أديار البيوت ومنظر**[1]

هذه الحياة التي اتسمت بعدم الطمأنينة والسكينة اقتضتهم أن يكونوا على حذر دائم لا ينامون إلا غراراً ليحموا أنفسهم وليسمعوا سير القوافل لعلهم أن يباغتوها فينالوا منها ما يريدون. قال عمرو بن براقة:

وكيف ينام الليل من جل ماله * حسام كلون الملح أبيض صارم**
ألم تعلمي أن الصعاليك نومهم * قليلٌ إذا نام الخليُّ المسالم**[2]

ولعل أول ما يطالعنا في شعر الصعاليك فقرهم وصيحات الجوع والشقاء التي رددوها في أشعارهم فالجوع حليف ملازم لهم، وقد كانوا يهربون منه ولكنهم لم يفلتوا منه ولذلك كان تجوالهم المستمر.

وفي شعر عروة بن الورد أن الجوع كان ينزل به حتى يكاد يهلكه[3]. فيصف الشنفرى هذا الموقف أيضاً فيفضل أن يسف التراب على أن يكون لإنسان نعمة عليه ولا أن يعيش رغد لكنه أبى ألا يرضى المذلة في قوله:

---

(١) ديوان عروة بن الورد ، ص ٣٥.

(٢) الأمالي، تأليف أبي علي إسماعيل القاسم الغالي البغدادي، منشورات محمد علي بيضون دار الكتب العلمية بيروت لبنان ٢٠٠٢م، ج٢ ص ١٢٢.

(٣) ديوان الشنفرى، إعداد وتقديم طلال حرب، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م، ص ١٠.

أديم مطال الجوع حتى أميته * وأضرب عنه الذكر صفحاً فأذهل**

وأستف ترب الأرض كيلا يرى له * على من الطول امرؤ متطول**

ولولا اجتناب الذأم لم يلف مشرب * يعاش به إلا لديّ ومأكل**

ولكن نفساً مرةً لا تقيم بي * على الذأم إلا ريثما أتحول(١)**

فهم يسوحون في الصحراء فلا يجدون بداً من غاراتهم على أموال الأغنياء البخلاء بل اعتقدوا أنهم على الحق فيما يفعلون لأنهم يكفلون لأنفسهم وللضعفاء من أخوانهم، بل يأنفون حتى الصعاليك الذين يقنعون ولا يتحركون للنيل ويجلسون لتلقي عطايا الناس فيملأون بطونهم وينامون، فامتدح الصعاليك المغامرين فإن قتل كان مذكوراً بالشجاعة وابن غنم كان جديراً بها. قال عروة بن الورد في ذلك:

لحى الله صعلوكاً إذا جن ليله * مصافي المشاش ألفاً كل مجزر**

يعد الغنى من نفسه كل ليلة * أصاب قراها من صديق ميسر**

ينام عشاء ثم يصبح ناعساً * يحث الحصى عن جنبه المتعفر**

فذلك إن يلق المنية يلقها * حميداً وإن يستغن يوماً فأجدر(٢)**

والشاعر الشنفرى يستغنى عن الناس بثلاثة أشياء هي قلب شجاع وسيف صيقل وقوس متينة بقوله:

ثلاثة أصحاب فؤاد مشيع * وأبيض أصليت وصفراء عيطل(٣)**

ومن خلال أشعارهم ترى أنهم دعاة إلى نوع من الاشتراكية للعمل بالقوة يؤثرون الموت على حياة الحرمان وهذا بالطبع سمة من سمات الصحراء تأثيرها وتأثرها في الحياة العامة ولذلك أفرزت لنا هذا الأدب، فالصحراء أتت واضحة في أشعارهم وأن نزوعهم أصبح سمة في عدة مظاهر في حركتهم وحياتهم الأدبية وسلوكهم اليومي، "يقال خرج السليك مع صديقين له فمروا على حي بني شيبان فقال

---

(١) لامية الشنفرى، ص ٩-١٠.المطال: امتداد المدة، ضربت عن الذكر صفحاً: إذا عارضت عنه وتركته، الصفح: العراض ، الذأم: الباطل.

(٢) ديوان عروة بن الورد، ص ٣٧. مصافي المشاش: مختار – المجزر: الموضع الذي يجزر فيه الإبل.

(٣) ديوان الشنفري، ص ١٣.

السليك[1] لصاحبيه كونا في مكانكما حتى آتيكما بطعام ثم انطلق فغافل شيخاً يرعى إبله فضربه فأطار رأسه وصاح بالإبل فطردها وقال في ذلك:

وعاشية راحت بطاناً ذعرتهـا * بسـوط قتيـل وسـطها يتسـيف**

كأن عليه لـون بُـرد محبّـر * إذا مـا أتـاه صـارم يتلهـف[2]**

وقد أصبغت عليهم الصحراء بسعتها بعض الصفات منها العدو وقد اشتهر تأبط شراً بالعدو يقول:

لا شئ أسرع مني ليس ذا غدرٍ * وذا جناح بجانب الريـد خفـاق[3]**

يقول ليس هناك أسرع مني ولو كان جواداً سريعاً وطيراً يخفق بجناحيه عنـد قمـة الجبل. وكما ذكرت كان هدفهم النهب والسلب والفرار بقول عروة مخاطباً زوجه:

دعيني للغنـى أسـعى فـإني * رأيت النـاس شـرهم الفقيـر[4]**

ويقول:

ومن يك مثلي ذا عيال ومقتراً * من المال يطرح نفسه كل مطرح[5]**

يقول نخرج فنطلب فإن أصبنا فذلك الذي نريد وكنا نطلب وإن رجعنا مخفقـين لـم نقعد عن الطلب ، ويرون الموت خيراً لهم من الفقر الذي هم فيه ووصـف حالتـه فقال عروة:

إذا المرء لم يبعث سواماً ولم يُرح * عليه ولم تعطـف عليـه أقاربـه**

---

(١) السليك هو السليك بن عمر بن سنان السعدي التميمي والسلكه أمه فاتك عداء شاعر من شياطين الجاهليـة يلقب بالرئبال قتله أسد بن مدركة الخثعمي نحو ١٧ قبل الهجرة ــ أنظر الأعلام للزركلي ج٣ ص١١٥.

(٢) ديوان السُليك بن السُلكة، إعداد وتقديم طلال بن حرب، دار صادر، للطباعة والنشـر، بيـروت، الطبعـة الأولى، ١٩٩٦م، ص ٩٣. عاشية: من الجمال التي تعشت، راحت: ذهبت عشاء، بطاناً: ممتلئة الـبطن، ذعرتها: خوفتها، بسيف: بضربها بالسيف، بُرد: البرد ثوب مخطط يلتحف به محبر، مـزين – صـارم: السيف القاطع.

(٣) ديوان تأبط شراً، إعداد وتقديم طلال حرب، ص ٤٧. الغدر: هو شعر الرأس الذي يتـدلى علـى جـانبي الوجه، الريد: قمة الجبل.

(٤) ديوان عروة بن الورد، ص ٤٥.

(٥) المصدر السابق، ص ٢٣.مقتر:مقل.

فللموت خير للفتـــى مـــن حياتـــه * فقيراً ومن مولى تدب عقاربـــه**[1]

فالصعلكة من أسبابها إضافة للفقر وكسب الرزق والتباهي بالشجاعة والإقدام أيضاً كان للفوارق الاجتماعية بين القبائل أحد اسبابها والقيام بهذه الأفعال، فعـــروة ابـــن الورد يعير لأمه اليمانية الغريبة يقول:

هم عيروني أنّ أمـــي غريبـــة * وهل في كريم ماجدٍ ما يعيّـــر؟!**[2]

فيحاربون في الصحراء بسلاح متعدد ويعتزون به اعتـــزازاً لا حـــد لـــه كيـــف لا وسلاحهم رفيقهم في غاراتهم في تلك الفيافي التي تنشط فيها الحيوانات من صنوف شتى، وإذا كان العربي يعتز بحمل السلاح عامة فإن الصعلوك بحق أشد اعتـــزازاً بحمله خاصة، ومن أسلحتهم السيف والقوس والرمح وكنانة السهام وغيرهـــا مـــن الأسلحة التي وردت في أشعارهم. ومن أنواع سيوفهم اليماني الذي يصطحبه تـــأبط شراً لركوبه الأهوال وحيداً يقول:

يركـــب الهـــول وحيـــداً ولا * يصـــحبه إلا اليمـــاني للأقـــل**[3]

ومن سيوفهم المهند للشنفرى وهو حاد وقاطع ذو لون أبيض يقول فيه:

وأبيض من ماء الحديد مهنـــدٌ * مُجدٍّ لأطراف السواعد مقطـــف**[4]

أيضاً ورد الرمح في أشعارهم كما هو عند عمرو بن برّاق في قوله:

ومن يطلب المال الممنع بالقنا * يعش مثرياً أو تخترمه المخارم**[5]

---

(١) ديوان عروة بن الورد، ص ١٩.. السوام: الماشية والإبل التي ترعى، يرح عليه: أي ترد إبله إلى مراحها، المولى: هنا ابن العم.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٠.

(٣) ديوان الحماسة لأبي تمام، تحقيق الدكتور عبدالمنعم أحمد صالح دار الجيل بروت الطبعة الأولـــى ٢٠٠٢م ج١، ص ٣٤١.

(٤) ديوان الشنفرى، ص ٥١. الأبيض: السيف، مجد: قاطع، المقطف: في الأصل المنجل الذي يقطف به.

(٥) ديوان عمرو بن براق، إعداد وتقديم طلال حرب، دار صادر للطباعة والشر، الطبعـــة الأولـــى، ١٩٩٦م، بيروت، ص ١٠٩. القنا: جمع قناة وهي الرمح، مثرياً: كثير المال، تحترمه: تهلكه، المخارم: جمع مخرم وهو الطريق في الجبل أو الرمل.

وللشنفرى قوس له سمتان لونه اصفر وصوت له دوي، فلونه الأصفر يتغيــر مــن حرارة الشمس وتقلبات الطقس من ترحاله المستمر في أرجاء الصحراء، أما صوته فله اندفاع شديد في الفضاء. يقول مصوراً له:

وصفراء من نبع أبي ظهيــرة * ترنُّ كأرنان الشــجيّ وتهتــف**(١)

وقد تميزت أشعارهم في الصحراء بعدة ميزات من غيرها من القصائد منها:

١/ خلت العديد من قصائدهم من ذكر الأطلال والبكاء عليها أو النسيب كمــا فــي قصائد الشعر الأخرى بل اتسمت بطابع القوة وتمجيد صفاتهم وتقاليــدهم وعــاداتهم التي يؤمنون بها. كما تميزت كثير منها بوحدة الموضــوع وعــدم التطــرق لعــدة أغراض أو مقاصد أخرى وأكثر شعرهم يمثل البيئة الصحراوية وتمجيــد طبــائعهم وقد أتي في شكل مقطوعات لا قصائد طويلة باعتبار أنه يحمــل الغــرض الــذي يريدون، كما يصور شعرهم نفسياتهم وأعمالهم فهو صدى للواقــع الحيــاتي لهــم ومعايشتهم له، كما حمل شعرهم عطفهم على الفقــراء والعــاجزين عــن التكســب والغارة وأتت قصائدهم تحمل معاني القسمة والتساوي في مــا بيــنهم وكــراهيتهم للأغنياء البخلاء والسطو على أموالهم وهي فلسفة يؤمنون بها.

وقد تعددت الدراسات حول شعر الصــعاليك وتــداخلت الآراء فيهــا حتــى أصبحت الصعلكة ظاهرة اجتماعية عاشها هؤلاء في الصــحراء لابــد أن يضــعها الدارس لشعر الصحراء في حيثياته.

وعند تناولي للصحراء في هذا الموضوع وجدت الصعلكة ظاهرة اجتماعيــة محدودة شكلت وزناً ومعياراً وأثراً في حياة المجتمع البدوي في الصحراء في ذلــك الوقت ولابــد مــن الوقــوف عنــدها، وقــد حوتهــا عــدداً مــن كتــب الأدب ومصادره مــن خــلال أشعــارهم وأخبــارهم مثل كتاب الحيوان للجاحظ والكامل

(١) ديوان الشنفرى، ص ٥١. الصفراء: القوس الشديدة، النبع: نوع من الشجر تتخذ منه الأقــواس، ظهيــرة: قوية. الشجي: الحزين، تهتف: تصيح.

للمبرد[١]، والعقد الفريد لابن عبد ربه[٢]، ومعجم الأمثال للميداني[٣]، والشعر والشعراء لابن قتيبة[٤] وغيرها.

(١) هو محمد بن يزيد بن عبدالاكبر بن عمير بن حسان الأزدي المعروف بالمبرد أبوالعباس ولد بالبصر وتتلمذ على أبي عثمان المازني وأخذ عنه أبوبكر محمد بن يحيي الصولي ونفطويه توفي ببغداد سنة ٢٨٥هـ من تصانيفه الاشتقاق . أعراب القرآن . قواعد الشعر الكامل. معاني الشعر ـ أنظرمعجم المؤلفين ج٣ ص٧٧٣.

(٢) ابن عبدربه هو أحمد بن محمد بن عبدربه بن حبيب بن جرير بن سالم القرطبي (أبوعمر) ، توفي بقرطبة سنة ٣٢٨هـ من آثاره العقد الفريد، ديوان شعر ، أخبار فقهاء قرطبة ـ أنظر النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة جمال الدين أبي المحاسن، ج٣ص٢٦٦، معجم المؤلفين عمر رضا كحالة ، ج١ ص٢٧١.

(٣) الميداني هو أحمد بن محمد بن أحمد بن ابراهيم الميداني النيسابوري أبوالفضل أديب نحوي لغوي توفي في ١٥رمضان بنيسابور سنة ٥٤٨هـ من تصانيفه النموذج في النحو شرح المضليات مجمع الأمثال وله شعر ـ معجم المؤلفين عمر رضا كحالة ج١ ص٢٤٠.مرآة الجنان لليافعي ج٣ص٢٢٣.

(٤) ابن قتيبة هو عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (أبواحمد) سكن بغداد وحدث بها وولي قضاء دينور ولد سنة٢١٣هـ وتوفي سنة ٢٧٦هـ من تصانيفه غريب القرآن، أدب الكاتب، طبقات الشعراء ـ أنظر مرآة الجنان لليافعي ج٢ ص١٩١،والأعلام للزركلي ص١٣٧.

الفصل الخامس

الكرم والحكمة من شعرهم

أثرت الصحراء في الحياة الاجتماعية في كثير من العادات والتقاليد والصفات الكريمة التي أصبحت إرثاً يتناقله معظم الناس على امتداد الأرض وطول الزمان، وقد أتت نتيجة لتفاعل الإنسان مع الحياة فإكرام الضيف سجية تميزت بها البيئة البدوية الاجتماعية فكان لاتساع الصحراء والترحال المستمر للبدوي في أنحائها وقلة الماء والطعام وقساوة البيئة وحتف الموت حتم أن يكون هناك تعاون وتوادد في إكرام الضيف بل اصبح مفخرة تتنافس فيه القبائل والعشائر فيما بينها وهو يدل على اكتمال الرجولة والشجاعة والمروءة وكل الصفات الحميدة، ولذلك ظهر جلياً في أشعارهم يقول أمرؤ القيس :

أحللت رحلي في بني ثعل * إن الكريم للكريم محل**[1]

يقول المنخل اليشكري[2] يصور الكرم في قصيدته مخاطباً محبوبته ويوضح تقديمه القرى في فصل الشتاء وهو أشد الأوقات التي يحتاج فيها الناس للقرى:

إن كنت عاذلتي فسيري * نحو العراق ولا تحوري**

لا تسألي عن جل ما * لي وانظري كرمي وخيري**[3]

وفي هذه البيئة التي تربت فيها النفوس على الإباء والاعتزاز بالشرف وحسن الأحدوثة، كان لابد للرجال والنساء من العفة والتعفف لأن العدوان على العرض يجلب ويلاً والعفة شرط من شروط السيادة فهي كالشجاعة والكرم على سبيل المثال

---

(١) ديوان امرئ القيس ص١٤١، أحللت: أنزلت، محل: منزل ومكرم ومحسن الجوار .

(٢) المنخل لليشكري هو المنخل بن مسعود بن عامر بن يشكر شاعر جاهلي كان ينادم النعمان بن المنذر وهو الذي سعى بالنابغة الذبياني إلى النعمان في أمر المتجردة. قتله النعمان بن المنذر سنة نحو ٢٥ قبل الهجرة ــ أنظر الأعلام للزركلي ج١ ص٢٩٦ــ المؤتلف والمختلف أبي القاسم الحسن بن بشر بن يحيي المتوفى سنة ٣٧٠هــ تحقيق عبدالستار أحمد فرج القاهرة دار إحياء التراث العربي طبعة ١٣٨١هــ ص٢٧١.

(٣) شعراء النصرانية قبل الاسلام . جمعه ونسقه الأب لويس شيخو اليسوعي، طبعة ثانية دار المشرق بيروت، ص٤٢٢-٤٢٣.إن كنت تعزليني فاذهبي عني فلست لي بحاجة ولا ترجعي.جل: معظم، يقول لا تسألي عن مالي وكثرته أنظري كرمي: يريد أنه ليس بكثير مال ولكنه كريم .

من العادات الحميدة التي حظيت بها البيئة الصحراوية[١].والكرم من شيمة العـــرب في الصحراء بل يهجى من لم يلتزم بتلك الصفات يقول عنترة مدللاً على ذلك فـــي قصيدة يفخر فيها بقومه :

تجافيت عن طبع اللئـــام لأننـــي * أرى البخل يشنا والمكارم تطـــلب**

وأعلم أن الجود في الناس شيمة * تقوم بها الأحرار والطبع يغلـــب[٢]**

وقد عدد ابن طباطبا العلوي[٣] هذه الفضائل الإنسانية التي وجد العرب تتمدح بها في الشعر فقال: "وأما ما وجدته في أخلاقها وتمدحت به ومـــدحت بـــه ســـواها وذمت من كان على ضد حالها فيه خلال مشهورة كثيرة منها في الخَلَـــق والبســـطة ومنها في الخُلق الشماء، والشجاعة، والحلم، والحزم، والعزم، والوفـــاء، والعفـــاف والكرم والبر، والأمانة، والقناعة، والغيرة، والصدق، والصبر، والورع، والشـــكر، والمدارة، والعفو، والعدل، والإحسان، وصلة الرحم، وكتم السر، وأصـــالة الـــرأي، والأنفة، والدهاء، وعلو الهمة، والتواضع، والبيان، والجلد، والتجارب، والتعفف"[٤]. ولعمري أن هذه الصفات مجتمعة لا توجد في بيئة من البيئات إلا فـــي الصـــحراء وذلك لمؤثراتها وأثرها في الحياة العامة بكل محاورها، ولـــذلك أصـــبحت حـــديث القرون فيما بعد.

ونجد حاتم عبد الله الطائي[٥] وهو من أشهر كرماء العرب يأمر زوجـــه ألا تستر قدر الطعام وإلا فطعامها حرام عليه ويأمر بحزم أن توقد النار في مكان عالٍ

---

(١) الحياة الأدبية في العصر الجاهلي، د. أحمد محمد الحوفي، الطبعة الرابعة، مكتبة نهضة مصر، بيـــروت، ص ٣٦١.

(٢) ديوان عنترة بن شداد، ص١٣.

(٣) ابن طباطبا: هو يحيي بن محمد العدوي الحسيني الشيعي (أبوالمعمر بن طباطبا) من أهل بغداد من آثـــاره مصنف في صنعة الشعر توفي سنة ٤٧٨هـــ ـــ أنظر معجم المؤلفين عمر رضا كحالة ج٤ ص١١٤.

(٤) عيار الشعر، ابن طباطبا العلوي، تحقيق د. عبد العزيز بن ناصر المانع، دار المعرفة للطباعـــة والنشـــر، الرياض، ١٩٨٥م، ص١٠٣.

(٥) حاتم الطائي: هو حاتم عبدالله بن سعد بن الحشرج الطائي القحطاني أبو عدي فارس شاعر جواد جـــاهلي يضرب المثل بجوده كان من أهل نجد مات سنة ٤٦قبل الهجرة في بلاد طـــئ ـــ أنظـــر الأعلام للزكلـــي ج٢ ص١٥١.

ليراها الناس، وأن يكون حطب النار من النوع الذي يشتعل وتتأجج ناره وتدفع ألسنتها ولا تختار لها الحطب الذي لا جمر له قائلاً:

لا تستري قدري إذا ما طبختها * علىّ إذا ما تطبخين حرام**

ولكن بهذاك البقاع فأوقدي * بجزلٍ إذا أوقدت لا بضرام(١)**

ويقول عروة بن الورد أنه يريد أن يقسم ما يأكله على فقراء قومه ويحسو شرب قراح الماء غير المخلوط بشئ وذلك في الشتاء البارد يقول:

اقسّم جسمي في جسوم كثيرة * وأحسو قراح الماء والماء بارد(٢)**

وقد اشتركت المرأة مع الرجل في الكرم يقول حاتم الطائي لزوجه:

إذا ما صنعت الزاد فالتمسي له * آكلاً فإني لست آكله وحدي(٣)**

فهم يكرمون كل ضيف وكلفهم بحسن الأحدوثة وطيب الثناء والمال في نظرهم وسيلة وليس غاية، وأن قساوة الطبيعة وشعور البدوي بالضيق أمام هذه المعاناة قد فرض عليه تقديس القوة والبسالة حتى أصبحت مبدء من مبادئ السيادة والكرم لم يكن ممدوحاً لأنه من آثار الرحمة والعطف فحسب بل أنه أيضاً مظهر السيادة والقوة والاستعلاء فالكريم هو القوي الذي يجود مما تجري عليه السيوف والرماح، فالصحراء الممتدة عندما يرحل البدوي فيها يجد نفسه في هذه الوهاد يحس ويشعر بالحاجة إلي النجدة والمروءة لأخيه كذلك كثرة الحروب بين القبائل شغلت الناس ولذلك كان هناك شعور مشترك بين الناس بالضعف والهزيمة أمام هذا الواقع والطبيعة الجافة.

---

(١) ديوان حاتم الطائي، منشورات دار مكتبة الهلال بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨٦م، ص٧٨. الجزيل: الغليظ من الحطب الذي له اشتعال وجمر، الضرام: هو الذي لا جمر له مثل القصب وأشباهه، البقاع: ما ارتفع عن الأرض كالتلال والجبال.

(٢) ديوان عروة بن الورد، ص٢٩،اقسم جسمي: جسمه هنا قوت جسمه يقول أقسم ما أريد أن اطعمه في محاويج ومن يلزمني حقه والضيفان، أحسو قراح الماء: الذي لا يخالطه لبن ولا غيره والماء بارد أي في الشتاء فذاك أشد.

(٣) الحياة العربية من الشعر الجاهلي، الحوفي، ص٢١٥.

فالكرم والشجاعة والمروءة والنجدة والإيثار قيم اجتماعيــة تعــارف عليهــا الناس "ويقصد بالقيم الاجتماعية مجموعة القيم الإنسانية الخلقية والنفســية والعقليــة التي احتضنها الشعراء واهتدوا إليها واستمدوها من وحي المجتمع العربي ونطاقه ثم توارثوها جيل بعد جيل وأخذوا يرسمونها في أغراضهم الشعرية" (١). ويخلعونهــا على ممدوحيهم بدافع تأكيدها والاستكثار منها والحث عليها، فقد كان لعصبية القبيلة دور في ذلك، فالشاعر الشنفرى يريد مدح صفة القوة بمدارة نفسه وحمايتها بالسلاح ويصف قوسه يقول:

إذا زلّ عنها السهم حنــت كأنهــا * مــرزأة عجلــى تــرن وتعــول**[٢]

ويمدح الإنسان المتعقل في كل أموره بقوله:

لعمرك مافي الأرض ضيق على امري * سرى راغباً أو راهباً وهو يعقل**[٣]

ويفخر ويصف السلاح التى يصحبها يقول:

وكــل أبــيٍّ باســلٌ غيــر أننــي * إذا عرضت أولى الطرائد أبســل**[٤]

ويمدح نفسه ويفخر بها:

وإن مدّت الأيدي إلى الزاد ولم أكن * بأعجلهم إذ أجشع القوم أعجــل**[٥]

ويُختبر الكرم في فصل الشتاء حيث القحط والحاجة إلى الطعام. قال زهيــر يمــدح هرم بن سنان والحارث بن عوف:

إذا السنة الشهباء بالناس أجحفت * ونال كرام المال في السنة الأكــل**
رأيت ذوي الحاجات حول بيــوتهم * قطيناً لهم حتى إذا نبــت البقــل**[٦]

---

(١) قصيدة المديح في الأندلس قضاياه الموضوعية والفنية، د. أشرف محمود نجا، ص ٢٢.

(٢) لامية العرب للشنفرى، ص ٩.

(٣) المرجع السابق، ص ٩.

(٤) المرجع السابق، ص٩.

(٥) المرجع السابق، ص٩.

(٦) ديوان زهير، ص١٠٥.الشهباء: البيضاء من الجدب ، الأكل: لا يجدون لبناً فينحرون الإبل .

فقد كان البدوي سخياً كريماً في حله وترحاله بماله وطعامه وكل ما عنده. يصـــور عروة بن الورد وهو أحد الصعاليك بغضه للبخل بقوله:

وقد علمــت ســليمى أن رأي * ورأي البخـــل مختلـــف شـــتيت**

وأنـــي لا يرنـــي البخـــل رأيٌ * سواء أن عطشــت وإن رويــت(١)**

ويورد عروة أنه إذا جاء الشتاء واشتد البرد واستغاث الناس بالنيران يصطلون بهـــا ويدفعون عن أنفسهم زمهرير الشتاء فتسود أناملهم من النيران ولكن عنـــدما يـــأتي الخصب ويورق الشجر فيعود أخضر بعد أن كان الناس جياع يعطيهم أجود الطعـــام وأخيره ويصبح هو يقاسي الجوع يقول عروة:

قعيدك عمـــر الله هـــل تعلمـــين * كريماً إذا إســـود الأنامـــل أزهـــرا**

صبوراً على رزء الموالي وحافظاً * لعرض حتى يوكل النبت أخضـــرا**

أقبٌّ ومخمـــاص الشـــتاء مـــرزّأ * إذا إغبـــرّ أولاد الأذلـــة أســـفرا(٢)**

ويقول أنه يعطي ويبذل وإن لم يسأل ويعطي وإن لم يستجره المحتاج ولا يثير فـــي وجههم لأن البشاشة أول الكرم ودليله يقول:

سلي الطارق المعتر يا أم مالك * إذا ما أتاني بين قدري ومجـــزري**

أيسفر وجهي أنه أول القـــرى * وأبذل معروفي له دون منكـــري(٣)**

والكرم عند العربي هو تقديم القرى للضيف ولا يكون إلا مع الإقـــلال فـــي المـــال وحاتم الطائي هو أسطورة العرب في الكرم وكان الجاهلي يفتخر بأن قومـــه كـــرام يعينون المحتاج، وفكرة الكرم داخلة في نسج القصيدة الجاهلية في الصـــحراء أيـــاً

(١) ديوان عروة بن الورد، ص٢١.

(٢) المصدر السابق، ص٣٤-٣٥ . رزء الموالي: مثالهم منه.

(٣) المصدر السابق، ص٧٨. الطارق: الآتي ليلاً، يسفر: يشرب ، المعتر: الآتي المعروف في غير أن يســـأل، المجزر: مكان الجزر.

كان نوعها وغرضها، "والكرم كالشجاعة والفروسية من المعاني التـي مـدح بهـا شعراء الجاهلية"(١).

فالكرم في معناه الواسع يحمل في طياته العديد من الصفات الموروثة الخُلقية فالمروءة هي إحدى هذه الصفات التي تغنى بها البدوي في الصحراء فقـد كانـت ديدنهم والعفة ملمحهم. يقول عنترة معبراً عن عفته ومروءته:

وأغض طرفي ما بدت لي جارتي * حتـى يـواري جـارتي مأواهـا**
إني امرؤ سمح الخليقـة ماجـد * لا أتبع النفس اللجـوج هواهـا**[٢]

ونجد هناك علاقة وثيقة بين الأخلاق والمجتمع فكل منهما مرآة تنعكس عليه صورة الآخر وكلاهما مؤثر ومتأثر بالآخر، فالأخلاق لا يمكن أن تنمو وتتطـور إلا فـي مجتمع، والمجتمع نفسه يخضع لعادات وتقاليد الأفراد فهم نواة المجتمع، واسـتطاع الشعر أن يعكس تلك العادات والتقاليد وأخلاق العرب.

والنابغة الذبياني وصف ممدوحيه بطيب المعشر وطيب الحجزات "وهي مـا يشد على الوسط" كناية بذلك عن عفتهم ونقاء سريرتهم وذلك حين يقول:

رقاق النعال طيـب حجـزاتهم * يحيون بالريحان يوم السباسـب**[٣]

ومن أبرز خلالهم وأعظمها أثراً في حياتهم ومجتمعاتهم هي الكرم فهو عادة مـن عاداتهم فطبعوا عليه وأكثر سخاءً عندما تضن السماء ويقبل الجدب. تقول الخنسـاء في رثاء أخيها صخراً:

وإن صـخراً لوالينـا وسـيدنا * وإن صـخراً إذا جـاعوا لعقّـار**
وإن صخراً لتأتم الهـداة بـه * كأنـه علـم فـي رأسـه نـار**[٤]

---

(١) شعر الكرم الجاهلي، د. صلاح مصيلحي عبدالله، ١٩٩٣م، دار المعرفة، ص ٤٨.

(٢) ديوان عنترة بن شداد، ص١٥٣.

(٣) ديوان النابغة الذبياني، ص ٦٣. السباسب: عيد كان في الجاهلية، قال أبو عبيدة: وكل عيد فالعرب تسـميه سباسب. رقاق النعال: قال الأصمعي يريد أنهم ليسوا بأصحاب مشي ولا تعب لأنهم ملوك.

(٤) ديوان الخنساء، تقديم وشرح وتعليق د. محمد محمود، دار الفكر اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م، ص٥٧. تأتم به: تهتدي به، الهداة: واحدها هادٍ وهو المرشد.

وقد توافرت أشعار الكرم التي تُعلى من مكانته وقيمته حتى وصل إلى عصر ابن زيدون(١) الذي يقول في مدح ابن الوليد محمد بن جهور مشبهاً نفسه بغرس ثابت في ثرى العلياء يروي من ريّ هذا الممدوح فإن أبطأت عنه سقياه أدركه الذبول والنسيان يقول:

أنا غرس في ثرى العلياء لو * أبطأت سقياك عنه لذبل[٢]**

ونجد الصور الواضحة للمهاجاة بين الأخطل(٣) وجرير(٤) في العصر الأموى، فهنا الأخطل يهجو جرير بقوله:

قوم إذا أستنبح الأضياف كلبهم * قالو لأمهم بولي على النار**
فتمسك البول شحلاً أن تجود به * وما تجود لهم إلا بمقدار[٥]**

فالكرم في الصحراء أحد مرتكزات الحياة الاجتماعية والثقافية التي أعلى العرب من نشاتها بل هي سمة من سماتهم التي اعتادوا عليها وامتدت عبر الأجيال إلى اليوم.

---

(١) ابن زيدون: هو أحمد بن عبدالله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومي الأندلسي القرطبي (أبوالوليد) شاعر ولد بقرطبة سنة ٣٩٤هـ وتوفي بأشبيلية في رجب ٤٦٣هـ من آثاره ديوان شعر ورسالة عرفت برسالة ابن زيدون ــ أنظر كتاب الوافي للوفيات صلاح الدين خليل بن ابيك الصفدي المتوفي سنة ٧٦٤هـ تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى ط١ بيروت دار إحياء التراث العربي ٢٠٠٠م ج٧ ص٥٦.

(٢) ديوان ابن زيدون، حققه وبوبه وشرحه وضبط بالشكل أبياته حنا الفاخوري دار الجيل بيروت بدون ص١٢٥.

(٣) الأخطل : هو غياث بن غوث بن الصلت بن طارقة بن عمرو لتغلبي الملقب بالأخطل أبومالك شاعر نشأ على المسيحية في أطراف الحيرة بالعراق وكانت أقامته طوراً في دمشق مقر الخلفاء من بني أمية تهاجى مع جرير والفرزدق من آثاره ديوان شعر ــ أنظر معجم المؤلفين عمر رضا كحالة ج٢ ص٦٠٥.

(٤) جرير: هو جرير بن عطية بن حذيفة الخطفي بن بدر الكلبي اليربوعي من تميم أشعر أهل عصره جمعت نقائضه مع جرير في ثلاثة أجزاء وله ديوان شعر ولد سنة ٢٨ هـ وتوفي ١١٠هـ ــ أنظر وفيات الأعيان وانباء أبناء الزمان أبي العباس أحمد بن محمد بن ابراهيم بن ابي بكر بن خلكان تحقيق د.يوسف علي الطويل د. مريم قاسم طويل ط١ بيروت دار الكتب العلمية ١٩٩٨م ج١ ص٣٠١.

(٥) ديوان الأخطل، تقديم وشرح كارين صادر، دارصادر بيروت الطبعة الأولى ١٩٩٩م، ص١٤٨.

الحكمة من شعرهم:

عاش البدوي في الصحراء الواسعة الممتدة في وسطها وأطرافها يساير الحياة بصنوف ألوانها ويكابد الطبيعة، فالحيوانات بكل أصنافها والإنسان والطيور كلها تعيش تحت قبة الصحراء الممتدة فتطبع البدوي بهذه الحياة فأتت عادات وتقاليد وتكونت قبائل وعشائر تسوح بالبادية بين الجبال والوديان بحثاُ عن الماء والكلأ فجاعوا وشبعوا وعرفوا الغنى والفقر والكرم والشجاعة المروءة، ورأوا المطمئن الوادع والثائر المشاكس فاستمعوا إلى تاريخ السابقين وأحداث الحياة ومفاجآتها وغاياتها فأحس وشعر ونظر فأثمرت هذه التفاعلات حكماً غير موجودة في متناول الفطرة السليمة فكانت وليدة التجارب الشخصية، رأوا مصائر كل هؤلاء القوم فأتت عندهم زخيرة كبيرة من تجارب الحياة وفلسفتها وأنواعها بشتى معانيها ودروبها فصاغوها في أبيات شعر أو صورة نثرية تعبر عن الموقف المعين فلها معانٍ ودلالات صادقة تقع من النفس موقعها فينصت لها السامع ويحفظها ويذكرها في مجالاته فتصبح كلمات تجري على ألسنة الناس.

والحكمة هي قول بليغ موجز صائب يصدر عن عقل وتجربة وخبرة بالحياة ويتضمن حكماً مسلّماً تقبله العقول وتأنس به الأفئدة وتنقاد له النفوس والمشاعر(١).

والحكمة ليس غرضاً مقصوداً لذاته وإنما هي من الأغراض التي تأتي في عرض القصيدة والحكم في الجاهلية تعبر عن التمسك بالمثل العليا السائدة في المجتمع فهي تشير إلى الأخلاق الفاضلة التي ترفع من قدر الإنسان عندما يتمسك بها . والحكمة ليس لها مكان معين في القصيدة فقد تأتي أولها في آخرها .

والرجل حكمته التجارب جعلته حكيماً وحُكم الرجل مثل حَلُم أي صار حكيماً ومنه قول النابغة:

(١) أساس البلاغة، ابن عمر الزمخشري، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م، ص ١٣٧، مادة "حكمه".

وأحكم كحكم فتاة الحي إذ نظرت * إلى حمامٍ سراعٍ وارد الثمد(١)**

فقد فاضت الحكمة على ألسنة كثير من العرب لسلامة الفطرة ورجاحة الفكر ونضوج العقل، ولذلك أتت الحكمة مستمدة من تجارب الحياة في البيئة الصحراوية بليغة لإيجازها وفصاحتها ووضوحها ودقة معانيها وروعة تأثيرها وخصب خيالها وصدق تجاربها الإنسانية فهي تكسب الكلام سحراً وحلاوة وتجعله مقبولاً من الذوق.

"والحكمة في الشعر تلخيص الفكر العميق باللفظ الدقيق في دلالته على المعنى أو تضمين الأبيات القليلة معاني جليلة درج العرب على تسميتها جوامع الكلم"(٢).

وتعليل خلود هذه الحكم عند الإنسان في رحلة البدوي في حله وترحاله لم يكن له قانون يحتكم إليه ولا دستور مدون يستفتيه ويستلهم منه العبرة والنصح وأغلبها جاء في فكرة الموت والفناء، وتجارب الحياة القاسية.

فقد عبر كثير من الشعراء عن الحكمة بصورة ملموسة تمس الواقع فكانت لهم نظرتهم الثاقبة وفكرهم المميز فتأتي الحكمة متناغمة مع هذا الواقع فيصوغونها شعراً فتأتي عميقة المأخذ عذبة الموقع شديدة الاتصال بواقع الحياة، يقول أبو ذؤيب الهذلي(٣) مما جرى مجرى الأمثال:

والنفس راغبة إذا رغبتها * فإذا ترد إلى قليل تقنع**

---

(١) ديوان النابغة الذبياني، ص ١٤.قال الأصمعي معنى أحكم أي كن حكيماً كفتاة الحي إذا أصابت ووضعت الشئ في موضعه .

(٢) الأدب الجاهلي قضاياه، أغراضه، أعلامه، فنونه، د. غازي طليمات عرمان الأشقر، ص ٢٦٠.

(٣) أبوذؤيب الهزلي: هو خويلد بن خالد الهزلي (أبوذؤيب) شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام سكن المدينة من أشعاره ديوان شعر . توفي نحو ٢٧هت وقال صاحب دائرة المعارف (قدم المدينة عند وفاة النبي (ص) فأسلم وحسن إسلامه ولا نكاد نعرف من أحداث حياته إلا أنه خرج إلى مصر في خلافة عمر أو في خلافة عثمان ثم التحق بجيش عبدالله بن سعد بن أبي السرح في غزو أفريقيا سنة ٢٦هـ توفي سنة ٢٧هـ وقد فقد خمسة من أولاده على التوالي في عام واحد بوباء الطاعون في مصر فقال قصيدة عينية هي أشهر شعره ــ أنظر معجم المؤلفين عمر رضا كحالة ج١ ص٦٩١ دائرة المعارف قاموس عام لكل فن ومطلب فؤاد أحزام البستاني بيروت لبنان ١٩٦٢م ج٤ ص٣٠٥.

وإذا المنية أنشبت أظفارها * ألفيت كل تميمة لا تنفع**(١)

فكانت للبدوي قناعات وأحاسيس معبرة عن الحياة الاجتماعية فأتت روح الحكمة تحمل هذه المعاني.

ويقول طرفة معبراً عن فلسفة الحياة والموت والفناء بقوله:

أرى الدهر كنزاً ناقصاً كل ليلةٍ * وما تنقص الأيام والدهر ينفد**(٢)

فتأتي الحكمة معبرة عن كل موقف وكل شاعر وكل بيئة وكل عصر من العصور وذلك حسب فلسفة الشاعر ورؤاه للمواقف المعينة.

فإذا نظرنا لبعض الحكم التي وردت في بعض قصائد طرفة تختلف عن غيره في نظرته للحياة فعنده تبديد للأموال وإزهاق للأرواح فإذا شرب الخمر لم يكن كريماً كما يصنع عنترة بن شداد في قوله:

فإذا شربت فإنني مستهلك * مالي وعرضي وافر لم يكلم**(٣)

أو عند عمرو بن كلثوم في شرابه أنه إذا ما الماء خالطها سخينا أو يصير أسداً أو ملكاً كما جاء في بيت حسان بن ثابت في جاهليته الذي يقول:

ونشربها فتتركنا ملوكاً * وأسداً ما ينهضنا اللقاء**(٤)

ولكن "طرفة" يشربها للذة والمتعة وتحدى بذلك قبيلته كلها يقول:

وما زال تشرابي الخمور ولذتي * وبيعي وإنفاقي طريفي ومتلدي**

---

(١) ديوان الهذليين ، أبوذؤيب القاهرة دار الكتب المصرية ١٩٥٢م ص ١٠٣.

(٢) ديوان طرفة بن العبد، ص٧٣.

(٣) ديوان عنترة بن شداد، ص١٢٣.

(٤) ديوان حسان بن ثابت، ص٨.

إلى أن تحامتني العشيرة كلهـا *** وأفردت إفـراد البعيـر المعبـد[1]

ولطرفة نظرات فردية تفصح عن تفكيره القاصد على بعض الملذات التي سـيخطفه الموت ولابد من أن يرتادها قبله ويوجه قوله إلى اللائم ونجد نفس الحكمة يندح من حولها :

ألا أيهذا اللائمي أحضر الـوغى *** وأن أشهد اللذات هل أنت مخلـدي
فإن كنت لا تستطع دفـع منيتـي *** فدعني أبادرها بما ملكـت يـدي
فلولا ثلاث هن من عيشـة الفتـى *** وجدك لم أحفل متى قـام عُـودي
فمنهن سـبقى العـاذلات بشـربةٍ *** كميت متى ما تعل بالمـاء تزبـد
وكرّي إذا نادى المضاف محنبـاً *** كسـيد الغضـا نبهتـه المتـورد
وتقصير يوم الدجن والدجن معجب *** ببهكنة تحت الطـراف المعمـد[2]

وتختلف نظرة طرفة وفلسفته في الحياة وحكمته التي يبثها عن زهير الـذي ينظـر للحياة الأخرى والتي فيها نفحة التدين وتربط بين الحياتين الدنيوية والأخروية فهـي أسمى من حكمه وأفكاره، نجده يقول:

فلا تكتمن الله ما في نفوسـكم *** ليخفي ومهما يكـتم الله يعلـم[3]
يؤخر فيوضع في كتاب فيدّخر *** ليوم الحساب أو يعجّـل فيـنقم[4]

---

(١) ديوان طرفة بن العبد، ص ٧٤.

(٢) المصدر السابق، ص٧٧ وما بعدها. ويروى ألا أيها اللاحي أن أحضر الوغى. واللاحي اللائم. لحاه يلحوه ويلحاه إذا لامه، والزاجر: الناهي، وقد روي ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغى.
لا تستطع دفع منيتي: أي فدعني ولذاتي قبل أن يأتيني الموت، عيشة الفتى: ما يعيش به ويتلذذ.
أجدك: حقك ونفسك وقيل أبيك. لم أحفل: لم أبالِ، عُوّد: من يحضره عند موته في مرضه وينوح عليه.
الكميت من الخمر: التي تضرب إلى السواد، متى ما تعل: متى ما تمزج به وتزيد لأنها عتيقة.
المضاف: الخائف، المحنب: الذي فيه انحناءة وهي صفة للفرس، سيد الغضا: ذئب الغابة.
نبهته المتورد: نبهته وأثرته وهو يريد الماء، الدجن: الغيم، البهنكة: الحسنة الخلقة السمينة الناعمة، المعمد: المرفوع بالعمد.

(٣) ديوان زهير بن أبي سلمى ص ٤٢.

(٤) المصدر السابق، ص ٤٣.

وإذا كان طرفة يبادر بهذه المتعة قبل مداهمته للموت فقد أوصى زهير بإنفاق المال والمواساة بالفضل لذوي قرباه وأن يجامل بمعروفه قومه ليبقوا له المكان اللائق وينال التقدير ويرد عن عرضه العدوان يقول:

ومن يك ذا فضل ويبخل بفضله * على قومه يستغن عنه ويذمم**
ومن يجعل المعروف من دون عرضه * يفره ومن لا يتق الشتم يشتم**(1)

فالحكمة اجتماعية مستوحاة من أحاسيس ومشاعر وتجارب الإنسان وتقتصر على بيئة ومنشأ أو زمان معين وإنما تصبح صالحة لكل مكان وزمان، ولزهير قصيدة حكمية قالها في موقف دعا فيه إلى العظة والعبرة عندما غضب كسرى على النعمان فهدده بالقتل ففر منه فلم يجد مفراً عند كثير من الذين أحسن إليهم يقول:

ألا ليت شعري هل يرى الناس ما أرى ** من الأمر أو يبدو لهم ما بداليا؟
بدا لي إن الناس تفنى نفوسهم * وأموالهم ولا أرى الدهر فانياً**
وإني متى أهبط من الأرض تلعة * أجد أثراً قبلي جديداً وعافيا**
أراني إذا ما بتُّ بتُّ على هوىً * فثم إذا أصبحت أصبحت غادياً**
بدا لي أني عشت تسعين حجة * تباعاً وعشراً عشتها وثمانيا**
وما أن أرى نفسي تقيها كريمتي * وما إن تقي نفسي كريمة ماليا**
ألا لا أرى على الحوادث باقيا * ولا خالداً إلا الجبال الرواسيا**(2)

---

(١) ديوان زهير، ص٥٠.

(٢) المصدر السابق ، ص٢٠٧-٢٠٨.الغادي: الذاهب في الغداة وهي بين الفجر والشروق والمعنى أن الموت سبيل كل نفس، التلعة:ما علا من الأرض، بت على هوىً: على أمر أريده يريد أن حاجتي لا تنقضي، التباع: المتابعة، تقيها كريمة: يقول الموت نازل بي ولا أقدر أن أدفعه بأكرم مالي ولا تقدر تنفسي أن تدفع عن أكرم مالي.

ويذكر صاحب كتاب جمهرة أشعار العرب قصيدة للشاعر عدي بن زيـد(١)أكثـر أبياتها حكم تتحدث عن الموت والفناء والعادات المستقاة من الصحراء من فصـاحة المرء والبعد عن الدنايا رغم أنه تنقل في بعض القرى يقول:

أعـاذل مـا يـدريك أن منيتـي * إلى ساعةٍ في اليوم أو في ضحا الغد**
ذرينـي فـإن لـي مـا مضـى * أمامي من مالي إذا خـفّ عـودي**
عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه * فكـل قـرين بالمقـارن يقتـدي**
إذا أنت فاكهت الرجال فـلا تلـع * وقل مثل مـا قـالوا ولا تتزيـد[٢]**

أما علقمة بن عبده الفحل فهو شاعر جاهلي أيضاً وقد أتت في قصائده العديـد مـن الحكم المستقاة من الدربة والتجربة في الصحراء ويورد كثيراً من المفـاهيم التـي يراها صائبة يقول:

الجـود ثاقبـة للمـال مهلكـة * والبخـل بـاقٍ لأهليـه ومـذموم**
والحمد لا يشتري إلا لـه ثمـن * مما يضـنُّ بـه الأقـوام معلـوم**
والجهل ذو عرض لا يستراد له * والحلم آونة في النـاس معـدوم**
ومطعم الغُنْم يوم الغنم مطعمـه * أنى توجه والمحـروم محـروم[٣]**

وفي قصيدة أخرى لزهير حكيم العرب يورد كثيراً من الحكم في قصائده من خـلال تجواله المستمر فكانت بمثابة سلوان ومنافذ تضئ طرق الحياة. يقول:

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب * تمته ومن تخطى يعمّر فيهرم**

---

(١) عدي بن زيد بن حماد بن زيد التميمي شاعر من دهاة الجاهليين كان قروياً من أهل الحيرة فصيحاً يحسن العربية والفارسية والرمي بالنشاب وهو أول من كتب بالعربية في ديوان كسرى سكن المدائن جمع ما بقي مـن شعره في ديوان قتل في الحيرة مسجوناً نحو ٣٥ ق هـ ــ أنظر الأعلام للزركلي ج٤ ص٢٢٠.

(٢) جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، تأليف أبي زيد محمد ابن أبي الخطاب القرشي، ص٢٩٢.
(٣) ديوان علقمة بن عبده الفحل، ص١٩٢.

واعلم ما في اليوم والأمس قبله * ولكنني عن علم ما في غدٍ عمي**
ومن لا يصانع في أمور كثيرة * يضـــرس بأنيـــاب ويوطـــأ بمنســـم**
ومن يك ذا فضل ويبخل بفضله * علـــى قومـــه يســـتغن عنـــه ويـــذمم**
ومن يجعل المعروف من دون عرضه * يفره ومن لا يتق الشتم يشتم**
ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه * يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم**
ومن هاب أسباب المنايا ينلنه * ولو نال أسباب السماء بسلم**
ومن يعص أطراف الزجاج فإنه * يطيع العوالي رُكبت كل لهذم**
ومهما تكن عند امرئ من خليقة * وإن خالها تخفى على الناس تعلم(١)**

تنوع مجالات الحياة وتجاربها وشعابها واجتهاد كثير من الناس في اكتساب مزيد من المعارف الحياتية لمجابهة كسب سبل العيش المحصور والحراك الدائم في شعاب الصحراء والوقوف على كثير من تفاصيل الأشياء ومعرفة كنهها وتفاصيلها ومسبباتها وصفاتها أتى بكثير من التجارب التي صاغها الشعراء حكماً متنوعة، فالتكوين العشائري والقبلي وظروف الحياة الاجتماعية والاقتصادية هي مادتها (ويعتاد الفرد في الصحراء على مجابهة وتجشم الحياة منذ صغره والاعتياد عليها وذلك عندما يحين دوره مما يدفعه إلى ازدراء كل ما يبعد عن العنف معجباً بالقوة مهما كانت نتائجها) (٢).

والحكم أتت من تجاربهم في الحياة ومن عاداتهم ومعتقداتهم الكثيرة فكانـــت عندهم المعتقدات والمذاهب والمذاهب "حيث تعددت معتقـــداتهم وكثـــرت، ولعـــل

(١) ديوان زهير بن أبي سلمى ص٤٩-٥١.يصانع: يترفق، يوطأ بمنسم: يزل، الزجاج: أسفل الرمح، العوالي: أعلى الرمح.
(٢) تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، بلاشير ،ص٣٧.

أكثر هذه المعتقدات انتشاراً الوثنية في منطقة مكة المستقر الأكبر للوثنية لأن فيها الكعبة موطن تقديسهم فهم يعظمون الكعبة ومكة" (١).

ومن المعتقدات التي يدينون بها عبادة الأصنام كما ذكرت فهم يعتقدون وجود الخالق ولكنهم يعبدون الأصنام لتقربهم إلى الله زلفى قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾(٢).

وقد تحدث الكلبي في كتابه الأصنام عن الوثنية وذكر العديد من الأصنام منها وداً بدومة الجندل وقد اتخذته قبيلة كلب، واتخذت بنو لحيان سواعاً، واتخذت مزجح وأهل جرس يغوث ، والأقيصر لقطفان (٣).

ولذلك نجد تلك الحكم مستخلصة من ذاك السلوك العربي القديم ومن تلك الخصائص المناخية، والطبيعة وغريزة التغلب على الحياة فكانت المحرك الأساس للعربي وتصرفاته، ولذلك أتت الحكمة مستمدة روحها وعبقها ولونها من الصحراء، فهي تأتي بهذه الصورة لارتباطها بالفطرة السليمة والمعاني والخصائص والتجربة الواضحة المعالم ولذلك أمدته بكل هذه الصفات منها: الشجاعة، الكرم، المروءة، الجرأة، النجدة، الإيثار، التآزر في الملمات، الصبر على المكاره، القوة، الحمل على النفس، الوفاء، الميل إلى الوضوح في الملمات والغلظة أحياناً، الولاء والتعصب للقبيلة، الميل للمخاطرة، الحنين للماضي، الحركة الدائمة والدائبة، الفخر بالأهل والقبيلة، معرفة قيمة الحيوان.

وهذا مما أكسبتهم لها الصحراء وأكثر ما توفرت لديهم العفة، الصدق، الكرم، الشجاعة، وهذه الصفات مكتملة ما توفرت في قوم إلا وكملت عزيمتهم وخلقهم واستوت قريحتهم، وعندما أتى الإسلام وجد هذه البذرة التي تحتاج لنقاء

---

(١) كتاب الأصنام، عن أبي المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي، تحقيق الأستاذ أحمد زكي، نسخة مصورة من نسخة دار الكتب، ١٩٥٤م، ص ٦.

(٢) سورة الزمر الآية ٣.

(٣) كتاب الأصنام الكلبي، ص٦.

السريرة وإزالة غبش الاعتقاد بطلٍ تبطن جذور أفئدتهم فنمت عصية على كل العواصف والأهواء والشهوات.

الباب الثالث

طبيعة الصحراء في الشعر الجاهلي ومكوناتها

الفصل الأول

مفردات الصحراء في الشعر الجاهلي

المبحث الأول: الطبيعة المتحركة (الحية) .

المبحث الثاني: الطبيعة الساكنة (الصامتة) .

الطبيعة المتحركة (الحية)

عرفت البيئة الصحراوية العربية أنواعاً كثيرة من الحيوانات والطيور ونالت قسطاً وافراً في أشعارهم فقاموا بوصفها وبيان أحوالها وظروفها وعاداتها والتأمل في حركاتها وصراعها مع من حولها من أجل الحفاظ على نفسها في ظل الظروف الطبيعية لبيئتها الصحراوية.

وكان الشاعر يعرض كثيراً من أفكاره ومفاهيمه وأحاسيسه ومشاعره من خلال حياة وحركات تلك الحيوانات فهو يصف معاناته ومشاعره من خلال عكس تلك المشاعر للإنسان في الصحراء، فهو يثبت ما يعتمل في نفسه من أفكار وأحاسيس وهو غالباً ما يتحدث على لسانه ويحاوره خاصة الناقة ذلك الحيوان الصحراوي الذي اعتمد عليه البدوي في كل سبل حياته اعتماداً كلياً حتى لتفريق همه يمضي بها في الصحراء كقول طرفة:

وإني لأمضي الهمّ عند احتضاره * بعوجاء مرقال تروح وتغتدي**(١)

وكذلك من الحيوانات الفرس فارس الصحراء فقد إهتم البدوي بهما مع غيرهما ولكن زاد اهتمامه بهما وفصّل فيهما تفصيلاً يكاد نجده في معظم الشعر الجاهلي ولا تخلو قصيدة إلا ويأتي ذكرها وصفاً لصفاتها المعنوية والحسية والجسدية، ويتحدث عن معاناتها في رحلاتها الكثيرة داخل الصحراء وكأنه يصف نفسه لذا نراه يعطي الناقة أفضل الصفات وأعلاها، فهنالك معجم واسع للحيوان لدى الشاعر الجاهلي برزت فيه عدد من صفاتها وهي تسرح في ربوع الصحراء.

وجاء ذكر الحمامة والظبي والليث والناقة والفرس والغراب والثور الوحشي والصقر والنعامة ... إلخ. فقاسمت هذه الحيوانات والطيور الطبيعة الصحراوية للإنسان، وتفاعلت معه فعاشت في الوديان والوهاد والكثبان والتلال والجبال والسهول والمنخفضات، تلك البيئة التي ألفتها فشاركت عناصر البيئة الأخرى ومكوناتها، فجاء ذكر الأشجار والنباتات وأتت مفردات الأكل والصيد والقرى

---

(١) ديوان طرفة بن العبد، ص ٣.

والظعن والرحيل والراح والأمطار، وتفاعلت كـل هـذه المكونـات تحـت قبـة الصحراء فصاغ الشعراء أشعاراً تحمل صوراً وتشبيهات رائعة توزعت صور هذه المفردات في ما بينها .

ولم يكتف الشاعر فقط بالحيوانات التي ألفها بل سعى إلى ذكر الثور الوحشي وتفاعله مع الطبيعة الصحراوية ومفرداتها التي ذكرناها، فيصـف الشـاعر الثـور الوحشي بصفات عديدة وصف قوته وجلده وتردده وخوفه وهلعه وجرأتـه وتـوتره وضيقه وقلقه و سهاده وصبره و جزعه وعزمه وسروره، فكـأن الشـاعر يرسـم صورة للصراع بين الثور الوحشي والطبيعة بكل مفرداتها من الصـياد والكـلاب والرياح والأمطار وهي بالطبع تنم عن صراع يستشعره الشاعر فيصوغه ويجسـده في هذه القوالب الحية.

يقول النابغة في إحدى قصائده ذاكراً الثور الوحشي:

كأنما الرحل منها فوق ذي جدد * ذبّ الريـاد إلـى الأشـباح نظـار**
مطـرّد أفـردت عنـه حلائلـه * من وحش وجرة أو من وحش ذي قار**[1]

فالشاعر شبه ناقته بثور وحشي في سرعته وهو ذو خطوط بيض وحمر مندفع فـي تجواله وارتياده والذي أفردت عنه حلائله التي أبعدت عنه فأصابه خبل وجنون.

ولأهمية الرحلة والنقلة والهجرة سعياً وراء الماء والكلأ تحتم على البدوي أن يستعين بالحيوانات (فقربوها وأعزوها ومنحوها رعايتهم وعطفهم ولم تكن ظروفهم في جزيرتهم قادرة على أن يعيشوا بمعزل عنها فندرة النبات كانت الدافع الحقيقـي الذي يجعل القبائل إلى عدم الاعتماد في حياتهم على ما تنتجه الأرض فقط ودفعهـا إلى استغلال كافة الموارد على أية طريقة كانت فاضطروا إلى أن يجعلوا الحيوان عماد حياتهم"[2].

وكانت الصحراء محط أنظار هـؤلاء الشـعراء فوصـفوا فيهـا الحيـوان الوحشي والمستأنس وتحدثوا عن طبائعها وأشكالها وكانـت الباديـة مذكيـة لهـذه الشاعرية، فهي وإن خلت من الجمال المصنوع ولكنها غنيـة بالجمـال المطبـوع

---

(١) ديوان النابغة الذبياني، ص ٢٣٦–٢٣٨.

(٢) الطبيعة في الشعر الجاهلي،القيسي ، ص ٩٩.

فهنالك النجوم الزاهرة، والنباتات والأمطار إضافة لتلك الحيوانات التي تسرح وتمرح فيها.

وكمنت أهمية الحيوان الأليف كالناقة لاتساع الصحراء وتشابه مراميها ولسحرها الأخاذ الذي يحيط بأكناف النفس، فقد وصف لبيد في إحدى قصائده الصحراء وكيف أن ناقته الكريمة الضامرة وطول عنقها كأنها البعير الفحل المحلّى بالقطران فهي ناقة ضامرة وسريعة الوثب كالبعير ، ولا تمل السير حتى في ذلك الطريق الطويل المسافات فهي مثل الثوب الأبيض الممتد، ويشبه الظباء في بياضها ويصف الطريق وامتداده فهو طريق مستقيم يؤدي إلى طريق يجري فيه الماء يقول:

ولقد قطعت وصيلة مجرودةً * يبكي الصدى فيها لشجو البوم**

بخطيرة توفي الجديل سريحةٍ * مثل المشوف هنأته بعصيم**

أجد المرافق حرة عيرانة * حرج كجفن السيف غير سؤوم**

تعدو إذا قلقت على متنصب * كالسحل في عادية ديموم**(١)

ومن أبرز الوصف في الشعر الجاهلي كان للقوة والنشاط وهي من الصفات المستحبة وهي نتاج لاتساع الصحراء ومراميها كقول طرفة:

وإني لأمضي الهم عند احتضاره * بعوجاء مرقال تروح وتغتدي**(٢)

ومن أبرز الشعراء الذين وصفوا الناقة في أشعارهم طرفة، امرؤ القيس، الأعشى، لبيد، وزهير، وعلقمة الفحل، وغيرهم.

يقول علقمة الفحل في وصف ناقته:

---

(١) ديوان لبيد، ص ١٩١-١٩٢- وصيلة : صحراء موصولة بأخرى - مجرودة : لاثبات فيها قد أكلها الجراد - الصدي :طائر يقول لايسمع فيها الي هذا - خطيرة : ناقة تخطر بذنبها - توفي الجديل أى تستوفي بطول عنقها - الجديل: الزمام، سريحة: سريعة ، المشوف: البعير المطلي بالقطران، العصيم: القطران، أجد المرافق : شديدة المرافق موثقة،حرة: كريمة، عيرانة: خفيفة سريعة، حرج : طويلة على الأرض، غير سؤوم: غير ملولة للسير . منتصب : طريق ممتد . عادية : ديمومة

(٢) ديوان طرفة بن العبد، ص ٤٥.

وناجية أفنى ركيب ضلوعها * وحاركها تهجّر فدؤوب**[١]

فهي وسيلة لترحاله وأن هذه الناقة الناجية السريعة التي يهزل مقدم سنامها لرحيلها على البيد في الهاجرة فيأتي التشبيه لها بالسرعة ببقرة الوحش فهي حذرة نشيطة حادة الذهن وتشبهها في سرعتها وخشيتها من صياد يلم بها يقول:

وتصبح عن غبّ السُّرى وكأنها * مولعة تخشى القنيص شبوب**[٢]

وأن هذه البقرة الشبوب سبقت نبال الصيادين وكلابهم، وقد استتروا بشجر الأرطى ليرموها وخص الشبوب لطول تجربتها وشدة حذرها.

يقول مصوراً ذلك بقوله:

تعفق بالأرطى لها وأرادها * رجال فبدت نبلهم وكليب**[٣]

ويصف طرفة ناقته قائلا:

جمالية وجناء تردي كأنها * سفنجة تبري لأزعر أربد**

أمون كألواح الإران نسأتها * على لاحبٍ كأنه ظهر برجد**

تباري عتاقاً ناجيات واتبعت * وظيفاً وظيفاً فوق مورٍ معبّد**[٤]

ووصف الناقة ورد في معظم الأغراض الشعرية لديهم، وقد اشتمل ديوان طرفة ابن العبد على عديد من الأوصاف التي خلعها على ناقته وهي تسير في الصحراء، وقد حظيت معلقته بالنصيب الوافر فيه، فكان وصف امرئ القيس

---

(١) ديوان علقمة بن عبده الفحل، ص٦٦ . ركيب ضلوعها: ما بها من شحم ولحم، ناجية: سريعة، حاركها: مقدم السنام، تهجّر: السير في الهاجرة، فذؤوب: الإلحاح في السير

(٢) المصدر السابق، ص ٦٦ . قب: بعد، السرى: السير بالليل، مولعة: بقره وحش.

(٣) المصدر السابق، ص ٦٧.

(٤) ديوان طرفة بن العبد، ص ٤٥-١٥١ الجمالية: ناقة كريمة الخلق، الوجناء: المكثرة اللحم، السفنجة: النعامة ، الأزعر: قليل الشعر، الامون : التي يؤمن عثارها – الاران : تابوت كانوا يحملون فيه ساداتهم ويروى (نصأتها) قال ابن الإعرابي نصأتها ونسأتها: زجرتها وضربتها بالمنسأة وهما واحد وهي العصا –اللاحب : الطريق البين – ظهر برجد : كساء مخطط – تباري: تعارض، العتاق: الكرام من الإبل – الناجيات: السراع، الوظيف: عظم الساق، وظيفاً وظيفاً: أي اتبعت وظيف يدها وظيف رجلها، المور: التراب الغبار، المعبد: المذلل.

يختلف عن عنترة والحارث بن حلزة فكل يأخذ معاني وألفاظ تمجد وتصبغ عليها صفات القوة والسرعة، ولعل الشاعر كان يقول قصيدته وهو على ظهرها. يقول إمرؤ القيس:

فدع ذا وسل الهمّ عنك بجسرة * ذمول إذا صام النهار وهجرا**
تقطّع غيطاناً كأن متونها * إذا أظهرت تكسي ملاء منشرا**
بعيدة بين المنكبين كأنها * ترى عندمجرى الضفر هراً مشجرا**
تطاير ظرّان الحصى بمناسم * صلاب العجي مثلومها غير أمعرا**
كأن الحصى من خلفها وأمامها * إذا نجلته رجلها حذف أعسرا(١)**

والشاعر في الصحراء يصف ناقته وكل ما يلاقيه في سيره. يقول لبيد واصفاً ناقته وشغفه بها يقول:

بكرت به جرشية مقطورة * تروي المحاجر بازل علكوم**
دهماء قد دجنت واحنق صلبها * وأحال فيها الرضح والتصريم(٢)**

والنابغة الذبياني عندما أراد أن يرثي النعمان بن الحارث وقف على آثار الديار ولم يجد تسليه لهمه سوى هذه الناقة الشديدة الصلبة. يقول:

فسل الهوى واستحمل الهم عرمساً * تخب برحلي تارة وتناقل(٣)**

---

(١) ديوان امرئ القيس، ص ٦٣ . الجسرة: الناقة القوية، الذمول: السريعة، صام النهار: قامت الظهيرة، الغيطان: الأرض المطمئنة، متونها: ظهورها، المنكب: رأس العضد، الضفر: حبل يفتل من شعر، مشجر: مربوط معلق، الظران: قطع من الحجارة محددة، العجى: جمع عجاية وهي قدر، المثلوم: الخق الذي تلثمه الحجارة، غير أمعر: لم يذهب شعره، الأعسر: الذي يعمل بيده اليسرى.

(٢) ديوان لبيد، ص١٥٣ . مقطورة: مطلية بالقطران، المحاجر: الأماكن التي يجتمع فيها الماء، بازل: كبر سنها علكوم: ضخمة كثيرة اللحم، دهماء: في لونها، دجنت: اعتادت ذلك، أحنق: ضمر وارتفع، التصريم: ألا تحلب.– جرشية : ناقة منسوبة الي جرش وهي ارض باليمن – المحاجر : الاماكن التي اجتمع فيها الماء – اجال اي بقي فيها من شحم هذا الرضخ الذي سمنت به .

(٣) ديوان النابغة الذبياني، ص ١١٤. عرمس: صخرة ثم قالوا للناقة الصلبة عرمس تشبيهاً لصلابتها، فسل الهوى: أي تناسها وأتركها، تخب: من الخبب وهو ضرب من السير، تناقل: يريد المناقلة وهو ضرب من السير أيضاً.

ومن القيم التي تناولها الشاعر من الفضائل الحسية التي يصف بهـــا فرســـه وناقته أو بقر الوحش في ملمسه ونضرته وطول شعره نجدها من الصـــفات التـــي يطفيها الشاعر لا يرمي إلى إبراز فضائل جسدية وصفية بقدر ما يرمي إلى تأكيـــد خصال وفضائل معنوية ينفذ من خلالها الشاعر إلى المشهد المتمثل في ناقته وصبر الشاعر وسيادته وهي صفات تستمد روحها من البيئة الصحراوية.

وصحبة الشاعر الجاهلي لناقته هي وسيلة للتسلية والطرد وتفريـــق الهمـــوم والرحلة وصد الأعداء والتجوال في الصحراء بحثاً عن الماء والكـــلأ، وللترحـــال والظعن... إلخ، وبذا كانت سبباً من الأسباب الدافعة لهذا الفيض من الشعر اعترافـــاً لها لأداء واجبها.

وإن إحصائية ما قاله الشعراء الجاهليون فيها يدلل على ما قلنا ، هي للترحال ويؤكل لحمها وتشرب ألبانها ويكتسي بأوبارها ويخرجون بها من السنين العجـــاف ويعلمون أن العزيز من لا يكون الماء القراح غبوقه يقول أحدهم مدللاً على مـــدى أهميته في حياتهم:

ومـــن تقلـــل حلوبتـــه وينكـــل * عـــن الأعـــداء يغبقـــه القـــرح**(١)

فالناقة من واقع حياة البدوي، تذهب عنه بواعث الالم والضيق ولذلك تـــاتي الناقة تتضمن بعض أبيات القصيدة وهي جسر ينتقلون بواسطتها من حديث النســـيب الحزين الذي يشتد فيه الألم حتى يؤثر في النفس وبها يقطع الصحراء المخيفة فهـــي لا تمل ولا تشكو، فزهير يذكر الإبل التي يحمل عليها المتاع يقول:

يسيرون حتى حبسوا عند بابه * ثقال الروايا والهجـــان المتاليـــا**(٢)

وقال الأعشى يمدح الأسود بن المنذر ويشير إلى الدروع التي كانت تُحمل أكراساً

---

(١) شعر الهذليين في العصر الجاهلي والإسلامي، د. أحمد كمال زكي ،ص ٩٣-٩٤.

(٢) ديوان زهير، ص٢١١ – يقول حبسو عند بيته الابل التي يحمل عليا المتـــاع – الهجـــان : الكـــرام مـــن الابـــل – المتالي : الناقة التي يتبعهها اولادها

فوق الجمال:

ودروع من نسج داود في الحــر * ب وسوقٌ يحملن فوق الجمال**[١]

وعظم بعض الشعراء الإبل فحلف النابغة بما كانوا ينذرونه لآلهــتهم منهــا عندما أراد أن يعتذر للنعمان وهذا من ديدن أهل الصحراء وديانتهم قال:

حلفت فلم أترك لنفســك ريبــة * وهل يأثمن ذو أمّة وهــو طــائع**

بمصطحبات من لصاف وثبــرة * يــزرن إلالاً ســيرهن تــدافع**[٢]

وبعضهم ينعتها بعبارة صاحبي لما فيها في قلبه من مكانة وصحبة لــه فــي الصحراء، فهي الأنيس الوحيد له. يقول امرؤ القيس:

قد أقطــع الأرض وهــي قفــر * وصــــاحبي بــــازل شــــملال**[٣]

وهناك عدد من الصفات التي استقوها من الصحراء وأطلقت علــى ســرعة الإبل مثل الناجية – الذبيلة – الخطارة – الجسرة – الأمون – الذمول – المــذعورة – الهلواع، وأيضاً وردت عدد من الصفات التي تدعو لقوتها وصلابتها مثل: جمالية – خباء– عزافرة – عرمس – علندة – مذكرة – مقذوفة ألخ ...، ولمكانتهــا فــي نفوس العرب فقد وردت في القرآن في قوله تعالى: ﴿ وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْــرَحُونَ * وَتَحْمِــلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَــدٍ لَّــمْ تَكُونُــواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[٤].

أجل البدوي الإبل لدرجة التقديس ويشير لذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ مَا جَعَلَ اللّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ﴾[٥].

---

(١) ديوان الأعشى، ص ١٦٩.

(٢) ديوان النابغة، ص ٥١. ذو أمّة: ذو قصد واستقامة، مصطحبات: إبل وإنما يريد من يحج على هذه الإبل، لصــاف: من بلاد بني يربوع، وثبرة: من بلاد بني مالك، إلالا:جبيل صفير، تدافع : يتحاملن من الجهد .

(٣) ديوان امرئ القيس، ص١٤٢ – بازل شملال : ناقة تامة الخلق

(٤) سورة النحل الآيات ٥–٧.

(٥) سورة المائدة الآية ١٠٣. البحيرة: إذا أنتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر، شقوا أذنها حرموا ركوبها ولم يطردوها من ماء ولا مرعى وسموها بحيرة أي مشقوقة الأذن، السائبة: كان الرجل منهم يقول: إذا قدمت من سفري أو برئت من مرضي فناقتي سائبة ثم يجعلها كالبحيرة. الوصيلة: الشاة أنتجت ذكراً وأنثى، ولم يذبحوا الذكر، الحام: الذكر من الإبل إذا ولد منه عشرة أبطن فلا يركب ولا يحمل عليه.

الفرس والصحراء:

والفرس أخذ أهميته في الشعر بجانب الناقة "والفرس أتت من الفروسية وفي اللغة هي الحذق بركوب الخيل، والفارس هو صاحب الفرس علـــى إرادة النســـب، والجمع فرسان وفوارس"(١).

وقد ورد ذكره كثيراً في ثنايا القصائد الشعرية يعبرون به عن السرعة في رحلاتهم وصيدهم فأمرؤ القيس عندما يصف فرسه في معلقته يصف أجزاء جسمه ولونه وحركاته في الأرض وعدوه فتتراءى له هذه الصورة في امتداد الصحراء بهذه الأوصاف، وتأتي في مخيلته أخرى تشابه ما يتراءى أمامه فتأتي القصيدة معبرة عن تلك البيئة التي تضم هذه المرائى يقول:

وقـد اغتدي والطير في وكناتها * بمنجـرد قـيد الأوابـد هيكـــل**
مكر مفــر مقبــل مــدبر معــاً * كجلمود صخرٍ حطه السيل من عل**
كميت يزل اللبد عن حال متنــه * كمــا زلــت الصــفواء بـــالمتنزل**
على العقب جياش كأن اهتزامــه * إذا جاش فيه حميه غلــى مرجــل**
مسح إذا ماالسابحات على الونى * أثــرن غبــاراً بالكديــد المركــل**
يزل الغلام الخفُّ عن صــهواته * ويلوي بــأثواب العنيــف المثقــل**
دريرٍ كخــذروف الوليــد أمــرّه * تقلـــب كفيـــه بخـــيط موصـــل**
له أيطلا ظبــي وســاقا نعامــة * وإرخاء سرحان وتقريب تتفــل(٢)**

وفي أثناء سير هذه الرحلة يعرض له بقر وحشي ولم يستطع القطيع الفــرار لسرعة فرسه حتى يدرك أوائل هذا القطيع قبل أن يهرب ولسرعته وكرمــه يلحــق صيده دون تعب أو عرق يقول:

---

(١) لسان العرب، ابن منظور، ص ٣٩ (مادة فرس).

(٢) ديوان أمرئ القيس، ص ١١٩.– الذبل : الضمور – الجياش : الذي يجيش في عدوة كما تجيش القدر فـــي غليانها – اهتزامة : صوته – حمية : غليه – مسح : يصب الجري صبا – السابحات : نوع من الجري – الوني : التعب – الكديد : الموضع الغليظ – المركل : الذي يركل بالارجل – الخف : الخفيف .

فعنّ لنا سـرب كـأن نعاجـه * عـذارى دوارٍ فـي مـلاء مـذيل**
كأن دمـاء الهاديـات بنحـره * عصارة حنّـاء بشـيب مرجـل**[1]

وكثيراً ما يرتبط ذكر الفرس بالصحراء في التجوال فيها والجري وراء الصيد والسفر عبرها للممدوح أو ديار المحبوبه وغير ذلك .

وأما علقمة الفحل فوصفه لفرسه يختلف عن الآخرين، فوصف عراقة أصله وصوّر العلاقة الحميمة التي تربطه به ثم يبرز صفاته المعنوية والجسدية في حديث يدل على شدة إعجابه به وعلاقته التي تربطه بفرسه هي علاقة الحبيب والصـاحب الوفي، ونجد ذلك من خلال الصورة التي ينقلها الشاعر إلى وفـاء حصـانه وتلـك مستمدة من عشق الصحراء وحاجة الرفيق فيها يقول:

أخا ثقة لا يلعن الحيُّ شخصـه * صوراً على العلات غيـر مسـبب**
إذا أنفـذوا زاداً فـإن عنانـه * وأكرعه مستعملاً خير مكسـب**[2]

وقد ارتبط وصف الخيل في شعر طرفة بالحماسة والفخر. يقول في وصفها:

نمسك الخيل علـى مكروههـا * حـين لا يمـسك إلا ذو كـرم**
نـذر الأبطـال صـرعى بينها * تعكف العقبـان فيهـا والـرخم**[3]

وتقديس الجاهلي لراحلته لتنقله للظل والماء وموطن الاسـتقرار، واقترانهـا بالفروسية والحرب والشجاعة والأصالة والاغارة ، والكر والفر، ويعتبر اغتناؤهـا مظهراً من مظاهر الترف والغنى.

---

(١) ديوان أمرئ القيس، ص ١٢٠-١٢١. عن : اعترض – دواراً : صنم

(٢) علقمة بن عبدة الفحل حياته وشعره . عبد الرازق حسين ، ص ١٦ . أخا ثقة: يوثق بجريه، على العلات: على ما به من علة وتعب، عنانه: اللجام، أكرعه: جمع كراع وهو السابق.

(٣) ديوان طرفة بن العبد، ص١١٠ – على مكروهها: أي تربط الخيل ونحن إليها على ما تكره من إرتباطهـا لشدة الزمان وصعوبته.

واستعاروا له كثيراً من المفردات فهو وفي وأليف وجميل "وحين سئل أعرابي عن بكاء الصبيان في ديارهم قال: وأما بكاء صبياننا فإننا نبدأ الخيل باللبن قبل العيال..."(١).

ويصور عنترة بن شداد تلك القوة والشجاعة ويرسم مشاعر فرسه في حلبة المعركة بلسان يفهمه يقول:

يدعون عنتر والرماح كأنها * أشطان بئر في لبان الأدهم**

فأزور من وقع القنا بلبانه * وشكا إلىَّ بعبرة وتحمحم(٢)**

وصورها النابغة وهي في سوح المعركة بقوله :

خيل صيام وخيل غير صائمة   تحت العجاج وخيل تعلك اللجما

قود براها قياد الشعب فانهدمت   تدمي دوابرها محذوذة خدما(٣)

وأما طرفة فيصف فرسه مازجاً بين الفخر والوصف يقول:

يوم تبدي البيض عن أسوقها * وتلف الخيل أعراج النعم**

أجدر الناس برأس صلدم * حازم الأمر شجاع في الوغم**

من بني بكر إذا مانسبوا * وبني تغلب ضرابي البهم(٤)**

وأما عبيد بن الأبرص فيذكر تلك العلاقة الحميمة التي تربطه بفرسه فهو لا يفارقه:

ولا يفارقني ما عشت ذو حقب * نهد القذال جواد غير ملواح**

---

(١) الأغاني : أبي الفرج الأصفهاني – مطبعة بولاق – الجزء التاسع – ص ١٨.

(٢) ديوان عنترة، ص ١٢٦ – عنتر : مرخم يجوز فية الفتح والضم – الاشطان : جمع شطن وهو حبل البئر – اللبان : الصدر – يريد ان الرماح في صدر هذا بمنزلة حبال البئر من الدلاء – ازور: مال – التحمحم : صوت مقطع ليس بالصهيل

(٣) ديوان النابغة الذبياني ص ١١٢، صائمة: قائمة، تعلك : تلوك، قود:طوال، الدوابر: مآخير الحوافر، الخدم : السيور للنعال .

(٤) ديوان طرفة بن العبد، ص ١٠٤-١٠٦ – تبدي البيض : تظهر وتحسر عن أسوقها – اعراج : قطعان الابل – يقول يوم تكشف الحرائر عن اسوقها من الفزع استعداً للهرب – اجدر الناس : احق الناس – صلدم : شديد – الوغم الحرب – البهم الشجاع ـــ ضرابي البهم: نضربهم بالسيوف.

أو مهرة من عتاق الخيل سابحة * كأنها سحق برد بـين أرمـاح**[١]

ويستشهد بها عنترة على شجاعته وقوته مخاطباً محبوبته قائلاً:

هلا سألت الخيل يا ابنة مالـك * إن كنت جاهلة بما لـم تعلمـي**[٢]

بل وان هنالك حواراً بينه وفرسه لتلك العلاقة الحميمة بينهما وشريكه في الحـرب – يقول عنترة :

وقلت لمهري والقنا يقرع القناء * تنبة وكن مستيقظاً غير ناعـس**

فجاوبني مهري الكريم وقال لي * انا من جياد الخيل كن انت فارسي**[٣]

وأما الأعشى فيصورها في مورد الحروب وكر الأعداء والبسالة والشجاعة يقول:

وخيل بكر فما تنفـك تطحـنهم * حتى تولوا وكاد اليوم ينتصـف**[٤]

ووصفوا في الخيل قوتها وسرعتها وكرمها ونجابتها وضـمورها ووصـفوا للفرس جسمه وارتفاعه وقوائمه وعنقه وناصيته وذيله وبياضه... إلخ.

فالفرس استطاع أن يسلب الشاعر حبه وشغفه ولبابه وبات لا يرى غيره في الحرب والفروسية ولا يستريح لاستجمام ولعزتهم له نجد اسم زيد الخيل فأضـيف الاسم للخيل وبلغ من تعظيمها عندهم أنهم "كانوا لا يهنئون إلا بغلام يولد أو شـاعر ينبغ أو فرس تنتج"[٥]. ووصلت العناية أن وضعوا لها النعال فـي أرجلهـا لتقـي حوافرها من الصخور والأرض الصحراوية. يقول زهير:

تهوى على ربذات غير فـائرةٍ * تحذى وتُعقد في أرساغها الخدم**[٦]

---

(١) ديوان عبيد الأبرص، ص ٥٠ – الحقب: الحزام – النهد : المرتفع – القذال : مابين الاذنين مـن مـؤخر الراس – غير ملواح : اي لايعطش سريعاً – السحق : البالي – البرد : الثوب – اراد تشبية المهره بالثوب البالي اى انها قديمة العهد بالغزوات اى مجربة

(٢) ديوان عنترة بن شداد، ص ١٢٣.

(٣) المصدر السابق ، ص٧٦.

(٤) ديوان الأعشى، ص ١١٢.

(٥) العمدة بن رشيق ، ج١ ص٢٩.

(٦) ديوان زهير، ص١٣١ – الربذات : السريعات الدفع والوضع – الخدم : سيور تشد بها النعال.

فهي فخر ووسيلة للصيد والطرد وزينة وكسب الرزق ووسيلة في الحـــرب، وقد صور القرآن الكريم أهميتها فأقسم بها الله تعالي فتثير النقع وتتوسط الجمع في الحرب ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا* فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾[1]. فصوروها لخوض الحروب.

(١) سورة العاديات الآيات ١-٢.

الثور – البقر الوحشي والصحراء:

والبقر الوحشي جاء ذكره كثيراً في ثنايا قصائد زهير ولبيد والنابعة، وطرفة، والأعشى، فكلها متشابهة في تناولها للبقر الوحشي والثور الوحشي وتثير الصراع بين الثور الوحشي والكلاب والصياد وكأنه يعكس الصراع بين الإنسان والطبيعة الصحراوية وذلك انعكاس لما يجده الإنسان من عنت ونصب في الحياة، ولبيد جاء في إحدى قصائده يصور تلك البقرة البائسة التي أكل طفلها السبع وما تلاها من صراع والتي جاء فيها:

أفتلك أم وحشية مسبوعة * خذلت وهادية الصوار قوامها**(١)

ويذكرها أيضاً زهير في قوله:

بها العين والآرام يمشين خلفه * وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم**(٢)

وجاءت الصورة عند امرئ القيس بتشبيه بقر الوحش في مشيتها وبياضها وبريقها بالعذارى يقول:

فعنّ لنا سرب كأن نعاجه * عذارى دورإٍ في ملاء مذيل**(٣)

ويقول النابغة الذبياني يصور الثور الوحشي في إحدى قصائده:

قابل الريح روفيه وجبهته * كالهبرقي تنحى ينفخ الفحما**(٤)

وقال أوس بن حجر:

وانقض كالدريّ يتبعه * نقعٌ بثور تخاله طُنبا**

---

(١) ديوان لبيد، ص ١٧١ ، أفتلك: أي تلك الأتان هي التي تشبه ناقتي أم تشبهها بقرة وحشية، مسبوعة: المسبوعة التي أكل السبع ولدها فهي مذعورة: خذلت: تأخرت عن القطيع، الصوار: القطيع من البقر، قوامها: يعني أنها تهتدي بأول القطيع.

(٢) ديوان زهير بن أبي سلمى ص ٣٤. العين: البقر، الآرام: الظباء، خلفه: إذا مضى فوج جاء آخر، الطلاء: ولد البقرة، جثم: ربط.

(٣) ديوان امرئ القيس، ص ١٢٠ – عن : عرض – السرب : قطيع البقر – النعاج : البقر والوحشي – عذاري دوار: ابكار مترهبات يدرن حول صنم – الملاء المذيل : الثياب الطويلة الذيل

(٤) ديوان النابغة الذبياني، ص ١١٠.

يخفـــى وأحيانـــاً يلـــوح كمـــا * رفـــع المنيـــر بكفـــه لهبـــا**(١)

ولما كانت القوة هي إحدى ركائز حياتهم أتت أيضاً في تصوير الثور الوحشي فهـو شجاع يقاتل ويدافع عن نفسه، ويكره الفرار لأنه عار. يقول النابغة:

فكر محميةً من أن يفـر كمـا * كر المحامي حفاظاً خشية العار**(٢)

فهو يحمي كرامته والحامي هو الشجاع الذي يحمي العشيرة.

ونلحظ أن عند كل شاعر جاهلي قصيدة أو قصائد تتحدث عن الثور الوحشي وقصته مع الحياة الصحراوية وفي كل الأحوال التي تأتي فيها صورة ثور الـوحش يصفه الشاعر بالسرعة والقوة والبساطة ومقاومة الصعاب ومجابهتها بل يكاد ينفرد ثور الوحش باهتمام خاص لدى الشاعر الجاهلي في الصحراء، وهو غالباً ما تـأتي صورته منفرداً عن قطيع الوحش فيصفون قوته وعنفوانه ولونه وقوائمه، وغالباً ما يكون أبيض اللون فتتكاثف عليه السحب ويرعد الرعد ويلمع البرق ويهطل المطـر ويندفع الثور إلى الاحتماء بأكناف الأشجار، وغالباً مـا تكـون شـجرة الأرطـى لضخامتها فحفر تحتها كناساً بأظلافه الصلبة ويبقى ساكناً ويكاد السيل يغرقه، وتأخذ قطرات الندى تتساقط على ظهره فيلقى ليله مؤرقاً وما أن تتبـدد أسـتار الظلمـة وينكشف الظلام حتى يظهر الصياد ومعه كلابه الضامرة المدرية فيفر الثور هارباً مدافعاً عن نفسه، وما أن يشعر باقتراب الظفر حتى ينعطف على الكلاب طعناً فـي غورها فتتساقط صرعى ويخرج الثور من المعركة منتصراً. ثم يقوم الشعراء بعـد وصفه الحسي أو التجسيدي يصفون خوفه وهلعه وتردده وثورته وغضبه وقوتـه... إلخ هذه هي الخطوات العريضة التي جاءت في وصف الشعراء للثور الوحشي في كثير من قصائدهم تحمل نفس هذه المعاني والمفاهيم والمعطيات وهي بالطبع تصور البيئة الصحراوية بكل مكوناتها المادية والمعنوية والنفسية.

فهذه القوة والسرعة يتمثلها الشاعر في ناقته وشبه بها فرسه وهذه الصـور المستنبطة من هذا الثور وقصته وتصويره نجد التالي:

---

(١) ديوان أوس بن حجر، ص ٣-٤.

(٢) ديوان النابغة، ص ٢٣٨.

١- أن هذا الثور يوصف منفرداً ولم يكن مع قطيع من جنسه أو غيره في القصيدة.

٢- تظهر صورة الثور وهو مطمئن قبل هطول الأمطار وبزوغ الفجر عليه.

٣- نجد صورة الثورغير عدواني فهو مسالم ولكنه يدافع بقرنيه عن نفسه عند وجود العدو وهجومه عليه.

٤- امتداد المخاطر عليه من هطول الأمطار ونزول الصقيع عليه ثم إغارة الصياد والكلاب عليه.

٥- يلوذ الثور بشجرة الأرطى ويبرز الثور بعد وصف الناقة بصورة القوة المكتملة.

٦- يقابل الشعراء صورتين الحياة والموت فصورة الكلاب التي تريد الموت للثور والثور الذي يريد الحياة بالنجاة والدفاع عن نفسه.

٧- نزول المطر على ظهر الثور فيزيده بياضاً كأن الشاعر يريد له ذلك.

٨- في الغالب تأتي صورة وذكر الثور الوحشي بعد الحديث عن الرحيل ووصف البيئة الصحراوية ومفرداتها.

"فالحياة الجاهلية في الصحراء حياة قلق واضطراب في تلك البيداء التي تظهر فيها النجوم الساهرة التي تطل عليها والإبل والخيل التي تساعدهم على الانتقال... ولا نجد باباً من أبواب القول ولا مجالاً من مجالات القريض ولا ناحية من نواحي البيان إلا ولها بحياتهم مساس وبمعيشتهم صلة وبسلوكهم ارتباط وبوجدانهم نسب"[١].

---

(١) بحوث في الأدب الجاهلي، الأستاذ إبراهيم أبو الخشب، د. أحمد عبد المنعم البهي، الطبعة الأولى، ١٩٦١م، مطبعة لجنة البيان العربي، ص ٣٦.

الطيـــور والصحراء:

حملت القصائد الجاهلية عدداً من أنواع الطيور معبرة عن ميزاتها وصـــفاتها وما تقوم به من تصوير وتلوين للحياة البدوية، فقد جاءت في حنايا قصائدهم تحمـــل آمال وآلام البدوي فهي شريكه في الصحراء العربية ولـــذلك أتـــت كغيرهـــا عـــن مفردات البيئة الصحراوية الحية.

تفرس البدوي وتتبع حياتها وخصالها وأشكالها فأوردها في كثير من قصائده مشبهاً بها وواصفاً لعاداتها وأماكن تواجدها فكونت ذخيرة ضمن مكونات الصحراء في أشعارهم وهنا نورد أمثلة لها ما وردت في بعض قصائدهم في أبيـــات تحمـــل معاني ودلالات وصفات تساعد في تقريب الصورة إليهم، والنعـــام إحـــدى طيـــور الصحراء التي جاءت في أشعارهم، وقد ضربوا بها المثل في الجـــبن وهـــو مـــن العادات المذمومة لديهم والشجاعة مطلوبة للدفاع عن الـــنفس والعـــرض والأرض وحمى القبيلة، وجاء في المفضليات أن أوس بن غلفاء يهجو خصومه قائلاً:

وهم تركوك أسرع من حُبارى * رات صقراً وأشرد مـــن النعـــام**[1]

وأتى ذكرها كثيراً في باب الهجاء وقد كثرت المترادفات حولها فالحارث بن حلزة يستعين على الهم بناقة مسرعة خفيفة.

بزفـــوف كأنهـــا هقلـــة أم * رئـــال دويـــه ســـقفاء**[2]

ومثلما وصفوا النعام بالجبن ووصفوه عند بيضه برباطة الجأش. قال الأعشى يمدح النعمان بن المنذر ويصف ثياب جيشه قائلاً:

بملومة لا ينفض الطرف عرضها * وخيـــل وأرمـــاح وجنـــد مؤيـــد**

كأن نعام الدوِّ بـــاض علـــيهم * إذا ريع شتى للصـــريخ المنـــدد**[3]

---

(١) المفضليات: المفضل الضبي ص ٣٢٠ .

(٢) ديوان الحارث بن حلزة ص ٢١ .

(٣) ديوان الأعشى، ص ٥٠. الدو: القفر، الصريخ: من يطلب الإغاثة.

وجاء ذكر الوعل في الشعر العربي في أبيات متفرقة لدلالته علـــى القـــوة، ومجابهة الشدائد فقد وصف النابغة الذبياني منزلته بين قومه ومكانتها بساكن الجبـــل الأشم الذي تنزل منه الوعول على الرغم من استطاعتها السكن فيه يقول:

تزل الوعول العصم عن قذفاته * وتضحى ذراه بالسحاب كـــوافرا**(١)

وأما الذئب فقد ورد في أشعارهم لأوصاف عدة منها الخفة والسرعة وقد بدأه امرؤ القيس بقوله:

له أيطلا ظبي وســـاقا نعامـــة * وإرخاء سرحان وتقريب تتفـــل**(٢)

وأما الشاعر الشنفرى فقد آثر صداقة الذئب لأنه يعتبره أحرص على القـــيم يقول:

لعمرك ما في الارض ضيق علي امـــرى * ســـرى راغباً او راهباً وهو يعقل**

ولي دونكم اهلـــــــــــون سيد عملس * وأرقـــــط زهلول وعرفاء جيأل**(٣)

وأما الثعلب فقد ورد في أشعارهم بصفة المراوغة وهي صفة اكتســـبها مـــن حياة الصحراء، قال طرفة لعمرو بن هند يلوم أصحابه لخزلانهم إياه.

كـــل خليـــل كنـــت خاللتـــه * لا تـــــرك الله لـــــه واضـــــحه**

كلهـــم أروغ مـــن ثعلـــبٍ * مـــا اشـــبه الليلـــة بالبارحـــه**(٤)

أما الضبع: فقد ورد ذكره وهو من الحيوانات التي ولعت بأكل جيف الموتى والعبث بها، قال الأعشى يذكّر قيس بن مسعود بالقتلى الذين بعثـــرت جثـــثهم فـــي الصحراء فعبثت بها الضباع والذئاب.

كأنك لم تشهد قـــرابين جمـــة * تعيث ضـــباع فـــيهم وعواســـل**(١)

---

(١) ديوان النابغة، ص ١٣٣ . العصم : بياض في ايديها – قذفاتة : نواحية يريد نواحي الجبل –كوافراً : اي متغطية .

(٢) ديوان امرئ القيس، ص ١١٩.

(٣) لامية العرب للشنفرى، ص ٩.

(٤) ديوان طرفة بن العبد، ص ٣٣، لا ترك الله له واضحة: لا ترك له سناً واضحة، الوضوح: البياض، أروغ: حاد عنه.

وأما الأسد فقد جاء ذكره مطابقاً لصفة الشجاعة التي يطلقونها عليه فيــذكر زهيــر بشجاعة فتيان قومه يقول:

عليها أسود ضاريات لبوســهم * سوابغ بيضٌ لا يخرَّقهــا النَّبــل**[2]

والطيور التي وردت في أشعارهم وصفوا بعضها بالجلــد وأخــرى بــالقوة وأخرى نعتوها بالعطف وأخرى عبروا عنها بصفة الحنــين يصــف ســلمة ابــن الخرشب خصومه الذين هربوا فيشبههم بالعقاب في جناحها استرخاء يقول:

فلو أنها تجري على الأرض أدركت * ولكنهــا تهفــو بتمثــال طــائر**
خُدارية فتخــاء ألثــق ريشــها * سحابة يومٍ ذي أهاضيب مــاطر**[3]

وتوصف العقاب بأنها تسكن الأعالي من الجبال ولهذا كان مسكنها مضــرباً للمثل في العلو والإشراف يقول امرؤ القيس :

ومرقب تسكن العقبــان قلتــه * أشرفته مسفراً والــنفس مهتابــه**
عمداً لأرقب ما للجو من نعــم * فنــاظر رائحــاً منــه وعزّابــه**[4]

أما الغراب فقد تشاءم منه العرب في الصحراء وقد ارتبطت أشــعارهم بــه واعتبروه دليل الفرقة قال عنتره:

ظعن الــذين فــراقهم أتوقــع * وجــرى بيــنهم الغــراب الأبقــع**
حرق الجناح كأن لحي رأســه * جلمان بالأخبــار هــش مولــع**[1]

---

(١) ديوان الأعشى، ص ١٣٨. العواسل: الذئاب.

(٢) ديوان زهير بن أبي سلمى، ص ١٠٢ – ضاريات : اي متعودات للحرب يعنــي الفرســان – الســوابغ : الدروع الواسعة لا ينفذها النبل .

(٣) المفضليات، المفضل الضبي، الجزء الأول، ص ٣٥.

(٤) ديوان امرئ القيس، ص ٤٦ – المرقب المكان المرتفع – قلتة : راسة – اشرفته : علوتة – مسفراً : عندما اسفر الصبح – مهتابة : وجلة – عزابة : جمع عازب وهو البعيد .

وقد مدح عنترة سوادة بقوله:

فيها اثنان وأربعون حلوبة * سوداً كخافية الغراب الأسحم**(٢)

وكما جاء ذكر الغراب في سياق التشاؤم أيضاً تشاءموا من البوم وهو أيضاً يسكن الصحراء والأماكن النائية.

وأتي في سياق الفخر أيضاً للشاعر الذي يصل لهذه الأماكن النائية التي يسكنها البوم، قال المرقش يصف رحلته وهو يقطع الصحراء وحده:

وتسمع تزقاء من البوم حولنا * كما ضربت بعد الهدوء النواقس**(٣)

والحمام يقترن اسمه وورد في كثير من الأحيان بالنواح والحنين فوجدوا فيه دليل لإثارة لواعجهم ومشاعرهم. يقول عنترة:

طال الثواء على رسوم المنزل * بين اللكيلك وبين ذات الحرمل**

أفمن بكاء حمامة في أيكةٍ * ذرفت دموعك فوق ظهر المحمل**(٤)

ومن الحيوانات المعروفة التي ورد ذكرها في أشعار الجاهليين الآرام وهي جمع رئم وهو الظبي الخالص البياض. يقول لبيد:

زجلاً كأن نعاج توضح فوقها * وظباء وجرة عُطَّفا آرامها**(٥)

ولذلك نجد كثيراً من الحيوانات والطيور وأوردت بعضها على سبيل المثال لأن الصحراء بوسعها وتمددها تحوي عدداً من الحيوانات والطيور التي عاشت مع البدوي فعرفها وعرفته فتفاعل معها ملبياً نداء الجوار والعيش السوي، فوجدت فيها

---

(١) ديوان عنترة بن شداد، ص ٨٤ – حرق الجناح : اي قد نسلة شعرة وتقطع ، وصفه بهذا تطيراً به – الحرق : الذي لايقوي علي النهوض – اللحيان : جانبا الوجة – الجلم : مايقص به – شبة منقارية اذا صوت بالجلمين لانه اراد تفريقه وقطعة

(٢) المصدر السابق ، ص ١١٩.

(٣) المفضليات، المفضل الضبي، تحقيق أحمد محمد شاكر، عبد السلام محمد هارون، ص ٢٢٥.

(٤) ديوان عنترة بن شداد، ص ٩٧ – الثواء : الإقامة – اللكيلك ، ذات الحرمل : موضعان – الايك : الشجر الملتف

(٥) ديوان لبيد، ص١٦٦، زجلاً: جماعات ، عطفت: ثانية اعناقها، وجرة: اسم بلد : توضح: اسم موضع .

بعض الصفات التي يحبذها البدوي ويحبها، ولذلك ورد ذكرها مـــن خـــلال ذكـــر الحيوان.

المبحث الثاني

الطبيعة الساكنة (الصامتة)

اهتم الشعراء بالصحراء أيما اهتمام لأهميتها كيف لا وهي الموطن والنشأة والحياة، فصاغوا أشعارهم على وحيها وبددوا ظلم الليالي وقسوة الحياة بقصائدهم فأتت صورة فنية تحمل عبق الأرض ورائحة الرمال والكثبان ووصفو السماء وصوت الرعد ووميض البرق وهدير الرياح وبعد السراب، وفي بهيمها عتمة الليل وبريق النجوم وحفيف الأشجار والحشائش وفي دجنها الأوتار وكثير من المفردات التي سكنت امتدادها وما فتئ الشاعر البدوي يتناول هذه المفردات ويعبر من خلالها عن فرحه وترهه وخوفه وسكونه، متناولاً لها صيغ تعبر عن مدى الإدراك والفكر الثاقب، والنظرة الفاحصة التي تمتع بها البدوي في التشبيه وتماثل الدلالات وتبيانها، فيأتي بها متناولاً لها أبيات متفرقة من القصيدة بمثابة ركائز في القصيدة تطوف حول حمى الصحراء وامتدادها، "فتصوروا للجن أشكالاً مختلفة تتمثل للناس في صورة حيوان كالقط أو القنفد أو النعامة أو الثعبان"(١).

ومن الاوصاف التي اوحت بها الصحراء الي الشعراء وصف البيئة من برق وسحاب ومطر ورياح .. الخ فاتى خيالهم مع امتداد الأرض التي جال حولها العربي في ترحاله المستمر (وتصوروا مساكن كانت تعد مواطن خطر ورعب كأجواف الصحراء وسفوح الجبال، وموارد المياه وملتف الأشجار وزعموا انها كانت تتراءى لهم في الليالي وأوقات الخلوات)[٢].

ولا أريد أن أخوض كثيراً في مثل هذه الأوصاف التي وردت في كتب التراث وأتت في كثير من الروايات التي حيكت حولها وبعض التخيلات التي وردت حولها ولكن من المؤكد أنه يوجد في الفلوات و الصحراء حتى بلغ بهم أن قاموا بعبادة الجن. يقول تأبط شراً:

---

(١) جمهرة أشعار العرب، القرشي، ص ٤٩.

(٢) مروج الذهب، لأبي الحسن علي بن الحسين المسعودي ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، الطبعة الخامسة، ١٩٧٢م، ج٢ ص ١٥٥.

فأصبحت والغول لـــي جـــارة * فيا جـــارتي أنـــت مـــا أهـــولا**[1]

وفي القرآن العظيم إشارات واضحة إلى ذلك قال تعالى: ﴿ قَـــالُوا سُـــبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ [2].

فقد وقف كثير من الشعراء عند عدد من مفردات الصحراء، ولنقـــف عنـــد بعض تلك التي وقف عندها الشعراء كثيراً مثل ، الرمال وهي من المفردات التـــي كثر الحديث عنها في أشعارهم فوقف امرؤ القيس عند رملة حومل فقال:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل * بسقط اللوى بين الدخول فحومل**[3]

وسقط اللوى هنا ذرات الرمل المتراكمه بين موضعي الدخول وحومل .

وأشار إليها طرفة وهو يصف ناقته قائلاً:

مؤللتان تعرف العتـــق فيهمـــا * كسامعتى شاةٍ بحومـــل مفـــرد**[4]

ورملة عالج التي ذكرها زهير (وهي بين فيد والقريات علي طريـــق مكـــة) فـــي قوله:

يهد له ما بـــين رملـــة عـــالج * ومن أهله بالغور زالت زلازلـــه**[5]

وكرر ذكرها لبيد في قوله:

جاوزن فلجاً فـــالحزن يُدلجـــــ * ـــن بالليل ومن رمل عالج كُثُبا**[6]

ويقول النابغة ذاكراً ومشبهاً جسم محبوبته بدعص الرمل الهاري في قوله:

يلاث بعد افتضال الدرع منطقها * لوثاً على مثل دعص الرملة الهاري**[7]

---

(١) ديوان تأبط شراً ص ٤٩

(٢) سورة سبأ الآية ٤١.

(٣) ديوان أمرئ القيس ، ص ١١٠.

(٤) ديوان طرفة بن العبد، ص ٣٩.

(٥) ديوان زهير، ص ١٢٥ .

(٦) ديوان لبيد، ص ٢٠.فلج: اسم موضع، الحزن: أرض غليظة، كثباً: مرتفع من الرمل.

(٧) ديوان النابغة الذبياني، ص ٢٣٥. تلوث: تلف ثيابها، الدعص: فهو يشبه أردافها بكثبان رمـــل والـــدعص كومة الرمل.

وإن أغلب ما ورد ذكره في أشعارهم حول الرمال جاء في أثناء حديث الشعراء عن تشبيهه بارداف محبوباتهم أو الأطلال أو وصف الناقة وإنما جاءوا بذلك لأنهم كانوا لا ينزلون إلا في أرض صلبة ليكون أثبت لأوتاد بيوتهم وتكون الأرض الصلبة عندما تلتوي الرمال وترق، وصوروا صوت الرمال إذا هبت الريح وشبهوا بها بعض أعضاء المرأة بالكثيب والدعص لما فيها من نقاء ورقة.

والكثبان الرملية في امتداد الصحراء توجد بعضها متناسق وأخرى في أشكال مختلفة، ولذا وقف عندها الشعراء كثيراً فصوروها وشبهوا بها، فأتى خيالهم بوصفها وحددوا أبعادها فوصفوا ما استطال منها بالجبل وما اعوج منها سمي كثيباً، وما استدار منها دعصاً، وفي تشبيههم للرمل في شكله ولونه نظرة ثاقبة لتتبع آثار الصحراء ومفرداتها وتنبئ عن براعتهم ومقدرتهم في تتبع المنظر أو الشكل الذي يسقط عليه نظرهم وهو بالطبع من صميم مكتسبات البيئة الصحراوية.

ويشبه الأعشى أرداف صاحبته وثني الرداء فوقها بكثيب الرمل الذي يكاد ينهار يقول:

روادفه تثني الرداء تساندت * إلى مثل دعص الرملة المتهيّل(١)**

والكثيب هو رمل يجتمع في الصحراء بأشكال مختلفة أعجب كثيراً من الشعراء ولذلك شبهوا به أجسام محبوباتهم لما فيه من الرقة والصفاء.

أما الجبل عند الشاعر الجاهلي فهو مظهر من مظاهر الحياة الرفيعة عنده، والجبل في الصحراء يمتد طولاً وعرضاً فيذكره الشعراء بالعلو والرفعة والصلابة والأنفة، فالشعراء الصعاليك الذين اتخذوا من الجبال بيوتاً يأوون إليها وملجأ لحمياتهم، وبعض الجبال تشقها الوديان ووادي الخزامي أحد مظاهر الوديان التي هام بها امرؤ القيس حينما تذكر سلمى في ذاك المكان، فارتبط بالوادي وهي تدنو بعينيها إلى شادن يتبع أمه أو تتراءى له واقفة قرب بئر تعودت أن تأتيها في موضع يسمي ذات حرمل يقول أمرؤ القيس :

---

(١) ديوان الأعشى، ص ١٤٠ .

وتحسب سلمى لأ تزال تري طلاً * مــن الوحش أو بيضاً بميثاء محلال**
وتحسب سلمى لا تزال كعهدنا * بوادي الخزامي أو على رس أوعال** (١)

والجبال تعتبر وكراً للطيور الجارحة والعقبان الكاسرة فهي شاهقة قويـــة، ولـــذلك استمد منها البدوي هذه المعاني فأمرؤ القيس يصور ويحس أن لليـــل إســـرافاً فـــي الطول حتى ليظن أن نجومه شدت بيزبل فهي ثابتة ثبات الجبال قال:

فيا لك من ليل كـــأن نجومـــه * بكل مغار الفتـــل شـــدت بيـــذبل**(٢)

وللجبال كثيرٌ من المعاني والصفات المستمدة منها كالعظمة والرفعة والقـــوة والثبات والصبر أيضاً وهي معالم بارزة وشواهد وذكريات للشعراء في الصـــحراء، وذُكر عدد من أسماء الجبال في ثنايا قصائدهم وهم يقطعون المفاوز والصـــحارى، وقد دلتهم على قطعها واختراقها، ومن أبرزها جبال الحجاز، وجبال السراة الممتدة من اليمن جنوباً إلى أطراف الشام شمالاً وكما ذكرت كانت الجبال ملاذاً للصـــعاليك ولذلك كثر حديثهم عنها ، ويصور أحدهم جلسته في قمة جبـــل يترصـــد ويرقـــب ويجلس في قمة الجبل يقول:

ومرقبة يحـــار الطـــرف فيهـــا * تـــزلّ الطيـــر مشـــرفة القـــزال**
ولم يشخص بها ترقى ولكـــن * دنـــوت تحـــدُّر المـــاء الـــزلال**
أقمت بريـــدها يومـــاً طـــويلاً * ولم أشـــرف بهـــا مثـــل الخيـــال**
ومقعد كربة قـــد كنـــت فيهـــا * مكان الأصـــبعين مـــن القيـــال**(٣)

والمرقبة من علوها تحار العين فيها من بعدها ولكن الشـــاعر لـــم يرهبهـــا وعرف طريقه لها فكان كالماء الذي يهتدي لمنحدره ويستتر فيها حتى لا يره أحـــد ويظل على الأرض كالخيال، وتوسط هذا المكان فكان كقبال النعل حيـــت يتوســـط الأصبعين وهذا دلالة على بديع التصوير لديهم.

---

(١) ديوان امرئ القيس. ص ١٢٣ طلاً: ولد الظبية. ميثاء: ميل الوادي، رس: بئر، أوعال: هضبة يقف بها – محلال : يكثر نزول الناس فيها

(٢) المصدر السابق، ص ١١٧.

(٣) شرح أشعار الهذليين، ص ٢٢٣. القزال: الرئيس، بريدها: حرفها أو جانبها.

صورة السراب في امتداد الصحراء ووديانها:

لم يترك الشعراء شيئاً يُرى أو يُسمع أو يتخيل في تلك الصحراء إلا وصاغوه في أشعارهم وأتوا بأوصافه وصوروه وعقدوا أوجه الشبه بينه وبين ما يريدون تشبيهه.

ومن أبرز مظاهر الصحراء وجود السراب عند ارتفاع درجة الحرارة فيها ولذلك وصفوا مدى ارتفاعه عند النظر إليه وهو مظهر من مظاهر الصحراء نهاراً ، ثم يصفون رحلتهم في ذاك الهجير فيضفون عليها صفات القوة والصبر والتحمل لإبلهم ولأنفسهم وحتى في تصويرهم للجبال في الفضاء الرحب يختارون لأوصافهم وسط النهار وشدة الحرارة وظهور السراب فتتراقص فيها أجزاء الصور كأنها مجاميع من شجر الدوم أو مثل السفين، يقول امرؤ القيس:

فشبهتهم في الآل لما تكمشوا * حدائق دوم أو سفيناً مقيّراً**

أو المكرعات من نخيل ابن يامن * دوين الصفا اللائي يلين المشقرا(١)**

وكان أغلب ما ذكر في السراب من خلال أحاديثهم من النوق وجيدها وجلدها. يقول زهير يصف ظعناً في الصحراء في قصيدة يمدح فيها هرم بن سنان

يقطعن أميال أجواز الفلاة كما * يغشى النواتي غمار اللج بالسفن**

يخفضها الآل طوراً ثم يرفعها * كالدوم يعمدن للإشراف أو قطن(٢)**

ونجد كثيراً ما صوروا الديار وأشكالها ووصفوها بوديانها ومنخفضاتها تلك مراتعهم وأماكن أنسهم وطرق ترحالهم وإقامتهم، فالأودية جزء من الصحراء فهي منخفضات وسط الصحراء تجري من مكان مرتفع لمنخفض تصب فيها

---

(١) ديوان امرئ القيس، ص ٦٠ . الآل : السراب يرى في أول النهار عند ارتفاع الضحى، تكمشوا: أخذوا في سيرهم وجدوا فيه، السفين المقير: وهو المطلي بالقار يعني الزفت، المكرعات من النخيل: أي النخل النابت على الماء ، ابن يامن: اسم لرجل كان له نخيل، المشقر: هو حصن بين النجران والبحرين.

(٢) ديوان زهير بن أبي سلمى، ص ١٠٩ – الميل القطعة من الارض مد البصر – اجواز : اوسط – النواتي : الملاحون –الواحد نوتي

مياه الأمطار، وقد جاءت متعددة في أِشعارهم يتناولونها وغالباً ما تأتي في ذكر المحبوبة والشوق إلى ديارها التي تتواجد فيهاوتقوم الاودية المتشعبة بين جبال الجزيرة العربية بمهمتين أرسال المياه عند نزول الامطار من منحدرات الجبال الي البحر والفيافي وكونها تضم معظم الاراضي الخصبة التي نزلت حولها القبائل واقامت عندها منازل لها وخيام . ووفرة المياه في هذه الاودية هي التي حملت الجاهليين علي سكن هذه الوديان والنزول بها يقول زهير:

بكرن بكوراً واستحرن بسحرة * فهنّ ووادي الرس كاليد في الفم**

ظهرن من السوبان ثم جزعنه * على كل قيني قشيب ومفأم**(١)

ويقول امرؤ القيس يذكر وادي الخزامي وهو احد الأودية في الصحراء:

وتحسب سلمي لاتزال كعهدنا * بوادي الخزامي أو على رس أوعال** (٢)

ولعل سكن هؤلاء البدو حول هذه الأودية لما فيها من خصوبة وإنبات العشب ومرابع المياه حتى تسهل حياتهم فيها، كما اقترنت بعض الوديان بأيام قتال وحرب، وفي فصل الخريف تنعم هذه الوديان بالماء والكلأ وهي راحةً من عناء النهار وحرّه. يقول امرؤ القيس:

فأتبعتهم طرفي وقد حال دونهم * غوارب رمل ذو آلاء شبرق** (٣)

وقد أثارت الوديان الهواجس في نفوس البدو وخاصة عندما توسطوا الصحراء وقد حيك حولها كثير من الحكايات والأساطير وخيّل أن بها الجن فطفق بعضهم يصور أصوات الجن وعزيفه. يقول زهير:

---

(١) ديوان زهير، ص ٣٧-٣٨. قين: خشب طويل يكون تحت الهودج.

(٢) ديوان امرئ القيس، ص ١٢٣ .

(٣) المصدر السابق، ص ١٠٣- فاتبعهم طرفي : نظرت أليهم طويلاً – غوارب رمل : إعالي هضاب – الآلاء : شجر ينبت في الرمل – الشبرق : نبات تأكله الدواب لخشونته .

وبلـــــدة لا تـــــرام خائفـــــة * زوراء مغيّـــــــرةٍ جوانبهـــــــا**

تســمع للجــن عـــازفين بهـــا * تضـــبح مـــن رهبـــة ثعالبهـــا**

يصعد من خوفهـــا الفــؤاد ولا * يرقد بعــض الرقــاد صــاحبها[1]**

وقال الأعشى يصور نفس هذا الموقف بقوله:

ويهمـــــاء تعـــزف جنّانهـــا * مناهلهـــــا أجنـــــاتُ ســـــدُم[2]**

ونجد أكثر الأودية وروداً في أشعارهم وادي أضم وهو في منطقته الحجـــاز ولعلـــه يكون مأهولاً بالناس لما فيه من عشب قال طرفة يذكر محبوبته:

لخولة فالأجزاع من أضم طلـــل * وبالسفح من قوٍّ مقامٌ ومحتمـــل[3]**

ويذكر هذا الوادي النابغة أيضاً ذاكراً محبوبته سعاد في قوله:

بانت سعاد وامسى حبلهـــا إنجـــذما * واحتلت الشرع فالأجزاع من إضما[4]**

وهنالك عدد من الأودية التي وردت أسماؤها في الشعر العربي اتســـمت بالخصـــب والخير الوفير وطيب مسكنها وعذوبة مائها كوادي أضـــم ووادي مطـــرق، ووادي الأحص، وغيرها من الأودية التي حفلت بها أشعارهم.

وقد ورد في أشعارهم ذكر الديار وهي الأماكن التي يتخذها العرب دمراً لهم يقيمون فيها، وقد كثر ذكرها في أشعارهم.

وأورد صاحب التاج حوالي مائة واثنتي عشرة دارة في الصحراء"[5].

ومن أشهر هذه الديار دار جلجل ودارة المرورات التي ذكرها زهير في قوله:

تربص فإن تقو المروراة منهم * وداراتها لا تُقو منهم إذاً نخـــل[6]**

---

(١) ديوان زهير بن أبي سلمى، ص ١٩٤

(٢) ديوان الأعشى، ص ١٩٨.

(٣) ديوان طرفة بن العبد، ص ٧٥. خولة: بنت عم الشاعر، الأجزاع: منعطف الوادي، أضم: اسم واد، السفح من الجبل: أصله وأسفله، قو: وادٍ، مقام: إقامة، محتمل: ارتحال.

(٤) ديوان النابغة الذبياني، ص ١٠٥.

(٥) تاج العروس للإمام اللغوي السيد حمد مرتضى الزبيدي، دار صادر، بيروت، ٢١٣-٢١٧، مادة (دار).

(٦) ديوان زهير، ص ١٠٠ .

وإن أغلب هذه الدارات كانت تذكر لحوادث تاريخية حصلت في الصحراء واشتاقت نفوسهم لتلك الأيام الخاليات التي يذكرونها.

وأيضاً جاء ذكر البُرق وهي أيضاً ديار يقيم فيها البدو وبها حجارة برق ملونة، كما جاء في معاني الأبيات التي حملتها، وكانت تتخذ أماكن للاستقرار وإقامة القبائل، ومن أشهرها برقة ثهمد التي افتتح بها طرفة معلقته يقول:

لخولة أطلال ببرقة ثهمد * تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد**(١)

وهناك عدد من البرق التي ورد ذكرها في أشعارهم والتي تعبر عن مدى حبهم لديارهم ومساكنهم في الصحراء وتسلسل الذكريات في مخيلتهم كلما طاف خيالهم بالماضي.

(١) ديوان طرفة بن العبد، ص ٥٣.

النباتات الصحراوية في الشعر الجاهلي:

احتضنت الصحراء أشجاراً ونباتات معينة بعضها يتحمل البيئة الصحراوية الجافة من شدة وحرارة وبرودة وقلة مياه، فينبت طول العام وبعضها ينبت إبان الربيع بعد هطول الأمطار، وقد وردت أسماء كثيرة من الأشجار والنباتات وأصنافها في الشعر العربي لا سيما الجاهلي منه الذي حمل نوع وشكل وصفات تلك النباتات الموجودة في الصحراء فهي مصدر رزق لحيواناتهم واستخدموا بعضها في طعامهم كالنخيل وزروع أخرى واستعانوا ببعضها في حياتهم وأعمالهم ووظفوا أغصانها في صنع الرماح والسهام والعصى، وخشبها في صنع الهوادج ووقود النار إضافة للعشب والكلأ، وذلك من المنافع التي أحسن العربي استخدامها في الصحراء.

وقد أتت أسماء هذه الأشجار في ثنايا القصائد وهي تعبر عن البيئة والمكان وأتت غالباً في أغراض الغزل والوصف، ونورد بعض الشواهد التي أتت في أشعارهم وتعبر عن مواقف مختلفة:

النخلة:

هي شجرة الصحراء وغذاء البدوي فافتخرت بها العرب. يقول الأعشى:

وقتلى كمثل جزوع النخيل * تغشاهم مسيل منهمر**(١)

ومن هذه الأشجار الشرْى وهو شجر صحراوي يفترش الأرض شديد المرارة ويقال له الحنظل. يقول أوس بن حجر:

ألم تريا إذ جئتما انّ لحمها * به طعم شرى لم يهذّب وحنظل**(٢)

---

(١) ديوان الأعشى، ص ١٠٣. مسيل منهمر: مطر غزير.

(٢) ديوان أوس بن حجر، ص ٣٠. لم يهذب: لم ينقى.

ومن نبت الصحراء الخزامي وهو نبت ربيعي طيب الرائحة واحدته خزاماه. قـال امرؤ القيس:

كأن المــدام وصــوب الغمــام * وريح الخزامي ونشــر القطــر**[1]

وكان العرب في الجاهلية يأكلون لب الهبيد. قال امرؤ القيس:

كأني غداة البين يوم تحملــوا * لدى سمرات الحي ناقف حنظــل**[2]

والأقحوان من نبات الربيع طيب الرائحة يشبه به الأسـنان وهـو معـروف فـي الصحراء. يقول ذو الرمة:

إذا أخذت مسواكها صقلت بــه * ثنايا كنور الأقحــوان المهطــل**[3]

العرفــج:

وهو نبات ينبت في الصحراء وينمو في السهول على ضفاف الأودية له زهر أصفر ورائحة طيبة تأكله الإبل. يقول الراعي النميري[4]:

كدخان مرتجــل بــأعلى تلعــةٍ * غرثان ضّــرّم عرفجــا مبلــولا**[5]

الخمخــم:

(نبات صحراوي تأكله الإبل). قال عنترة:

ما راعني إلا حمولــة أهلهــا * وسط الديار تسف حبّ الخمخم**[6]

---

(١) ديوان امرئ القيس، ص ٦٩. صوب الغمام: وقع السحاب، نشر القطر: رائحة القطر وهو العـود الـذي يتبخر به.

(٢) المصدر السابق، ص ١١١. ناقف حنظل: الذي يستخرج حبه يريد ان دموعه سالت عند فراق من احب كما تسيل دموع ناقف الحنظل رغماً عنه.

(٣) ديوان ذي الرمة، ص٥٠٩، نور : زهر، المهطل: أصابه المطر.

(٤) الراعي النميري: هو عبيد بن حصين بن معاوية ويلقب بالرعي النميري شاعر له ديوان شعر ، توفي سنة ٩٠ هــ الموافق ٧٠٩، لقب بالراعي لكثرة وصفه الإبل، عاصر جريراً والفرزدق ــ أنظر معجم المؤلفين عمر رضا كحالة، ج٢ ص٣٥٥ــ الأعلام الزركلي ج ٤ ص١٨٨.

(٥) ديوان الــراعي النميري، شــرح د. واضــح الصمّد، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى ، ١٩٩٥م، ص ٢١٢المرتجل: الجراد، التلعة: ما ارتفع من الأرض. الفرثان: الجائع: العرفج: نوع مــن النبــات. يتــابع الشاعر وصف ذئب فيقول: إن لونه يشبه دخان رجل جائع أصاب جراداً فأشعل النــار بــأعواد العــرفج المبلول.

(٦) ديوان عنترة بن شداد، ص١١٩، راعني: أفزعني، الحمولة: الإبل التي يحمل عليها.

العرار:

نبت طيب الرائحة واحدته عرارة لونه أصفر[١]. قال الأعشى:

بيضـــاء صـــحوتها وصـــــ * فـــراء العشـــية كـــالعرارة**[٢]

الحرمــل:

شجر دائم الخضرة صحراوي ينبت في السهول مر الطعم تعافه الـــدواب[٣]. قال طرفة يذم قوماً:

هم حرملٌ أعي على كل آكــلٍ * مبير ولو أمسى سوامهم دثّــرا**[٤]

القــرظ:

شجر يدبغ به الأهب "الجلود" في أرض العرب وأغصانه لدنة طويلة[٥].

القيصوم:

نبت في القيعان والرياض وضفاف الأودية يعد من رياحين الصـــحراء، لـــه نور أصفر)[٦]. قال جرير يمدح أبا شاكر مسلمة بن هشام:

ما هاج شوقك من عهود رسوم * بادت معارفها بـــزي القيصـــوم**[٧]

---

(١) ديوان الأعشى، ص٧٥.

(٢) المصدر السابق، ص٧٥.

(٣) ديوان طرفة بن العبد، ص١١١.

(٤) المصدر السابق، ص١١١. الحرمل: الذي لا يقدر الآكل عليه يعني تعذر معروفهم وقلة تسهلهم، مبيراً: أي مهلكاً البوار الهلاك، الدثر: الكثير الذي لا يحصي كثره.

(٥) لسان العرب، ج ١٢ ص٧٤. مادة (قرظ) .

(٦) ديوان جرير شرح يوسف عيد دار الجيل بيروت الطبعة الأولى، ص٦٦٦.

(٧) المصدر السابق، ص٦٦٦.

العشرق:

نبات صحراوي يفترش الأرض ويستعمل كدواء وله عناقيد يكون فيها الحب فإذا يبست وهبت عليها الرياح تسمع لها صوتاً[1].

قال الأعشى يصف صاحبته هريرة:

تسمع للحلى وسواساً إذا انصرفت * كما استعان بريح عشرق زجــل[2]**

المرخ:

نبات صحراوي تأكل ثماره الإبل[3]. وقد مدح الأعشى قيس بن معــديكرب في تضاعيف قصيدته:

زنـــادك خيـــر زنـــاد الملـــو * ك خالط مـــنهن مـــرخ عقـــاراً[4]**

الأقحــوان:

شبه به الثغور لبياضه وقد اقترن وصفهم للثغور وتعرضهم للإقاح بصـــورة الضحك والابتسام فأوراقه صغيرة ومفلجة[5]. قال طرفة يصف ثغر صاحبته:

تضحك من مثل الأقاحي حوىً * من ديمةٍ سكب ســماءٍ دَلُــوح[6]**

الأيقهان:

وهو جرجير البر واحدها أيقهانة[7]. يقول لبيد:

فعلا فروع الأيقهـــان وأطفلـــت * بـــالجلهتين ظباؤهـــا ونعامهـــا[8]**

---

(1) لسان العرب ابن منظور ، الطبعة الأولى ١٩٩٠م، ص٢٥٣ ج١٠ مادة عشرق.

(٢) ديوان الأعشى، ص ٣٧٠.

(٣) لسان العرب، لابن منظور ، ج١٤ ص٤٩، مادة مرخ.

(٤) ديوان الأعشى، ص ٨٦. المرخ والنهار: نوع من الأشجار.

(٥) الطبيعة في الشعر الجاهلي القيسي، ص٩٥.

(٦) ديوان طرفة بن العبد، ص ٣٤.

(٧) شرح القصائد العشر،التبريزي ص١٧٤.

(٨) ديوان لبيد، ص ١٦٤. أطفلت: ولدت وصار معها أطفالها، الجلهتان: جانبا الوادي، نعامها: علـــى فـــروع الأيقهان زاد وارتفع .

الثـــمام:

نبت ضعيف له خوص أو شبيه بالخوص(١).

يقول لبيد:

عريتْ وكان بها الجميع فأبكروا * منها وغُودر نؤيهـــا وثمامهـــا(٢)**

الســـفا:

شوك شجر البهمي، والبهمي من البقول وله شوك مثل شـــوك النبـــل، فـــإذا عظمت البهمي كانت كلاً يُرعى يصيبه المطر فيبتل فينبت من تحته حبه الذي سقط من سنبله(٣). قال لبيد:

ورمى دوابرها السفا وتهيجـــت * ريح المصايف سومها وسهامها(٤)**

القـــلام:

نبت يكون على الأنهار والوديان. يقول لبيد:

فتوسطا عُرض السرى وصـــدّعا * مســـجورة متجـــاوراً قلامهـــا(٥)**

اليـــراع:

وهو القصب. يقول لبيد:

محفوفة وسط اليـــراع يظلهـــا * منه مصـــرّع غابـــة وقيامهـــا(٦)**

---

(١) المخصص، ابن سيدة، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ، ج١١ ص ١٤٢مادة (ثمم) .

(٢) ديوان لبيد، ص ١٦٥. عريت: خلت لم يبق بها أحد، أبكروا : غدوا منها بكره، غودر:ترك، النؤي: حاجز يجعل حول البيت من تراب لئلا يدخل عليه الماء، الثمام: شجر يلقونه على بيوتهم من الحر .

(٣) لسان العرب، ابن منظور، ص٢٩٥ مادة (سفا).

(٤) ديوان لبيد، ص ١٦٩. الدوابر: مآخير الحوافر، سومها: بدل حرها أو اختلاف هبوبها ريح حارة.

(٥) المصدر السابق، ص ١٧٠. العرض: الناحية، السرى: النهر، صدّعا: شققا النبـــت الـــذي علـــى المـــاء، مسجورة: عين مملوءة، متجاور: متقارب، القلام: القصب.

(٦) المصدر السابق، ص ١٩٦ (ويروى محففاً) اليراع: القصب، مصرّع: مبالغة، غابة: الجمع الغاب، قيامها: جمع قائم.يقول توسطا عيناً محفوفة بالقصب فهو يظلها وبعضه مائل وبعضه منتصب .

الريحـــان:

وهو نبت ذو رائحة طيبة، فقد صور الشنفرى مجلساً آوى إليه مساءً فخيــل إليه أنه مظلة تكنفه من كل جانب نسجتها ريحانة مطلولة بحبــاب المطــر متفتحــة الزهر يقول.

فبتنا كأن البيت جُحــر فوقنــا * بريحانة ريحت عشــاءً وطلّــت[1]**

والنباتات والأشجار التي أتت في صياغ القصيدة العربية القديمة في الشعر الجاهلي مصورة بيئة الصحراء لهي كثيرة ومتعددة وبعضها لا يزال يحمل نفس الأسماء القديمة فهي حياتهم وجزء من البيئة الصحراوية، وبذلك فقد عنى الشاعر العربي في الصحراء بهذه النباتات والأشجار فكثيراً ما تمثل مواقف محبوباتهم وحياتهم العامة.

(فهي تدخل فيما يأكلونه وما يبنون منه بيــوتهم وحظــائرهم وخــيلهم ومــا يصنعون منه ومن رماحهم وسهامهم وآنيتهم وموائدهم وحبالهم ومنازلهم ومعظم ما كانوا يستعملونه في حياتهم وكانوا ينتفعون ببعضها في دباغتهم وزينتهم ويستوقدون بحطبها)[2].

إضافة لذلك فهي ظل للهاجرة وروح تنبئ بالحياة في ظل الصــحراء (وقــد تحدث ابن سيدة عن النبات وأنواعها في جزيرة العرب فكانت أكثر من مائة وسبعين نوعاً)[3].

والصحراء لم تكن كلها جدباء توجد خضرة في بعض أماكنها والتي أطلــق عليها الرياض مفردها روضة. فقد ورد في شعر عنترة بن شداد التشــبيب بعبلــة ووصف ثغرها برائحة روضة لم تطأها دابة تقضم أزهارها وتلقي فيها أبعادها وإنما هي حديقة عذراء أمطرتها سحابة نقية المطر فملأت غدرانها ووديانها بماء صــافي كدراهم ضربت من الفضة. يقول عنترة:

(١) ديوان الشنفرى، ص ٣٦.

(٢) المخصص، ابن سيدة، الجزء الحادي عشر، ص ١٤٢.

(٣) المصدر السابق، ص ٣-٢١٦.

أو روضة أنفاً تضـــمن نبتهـــا * غيث قليل الـــدّمن لـــيس بمعلـــم**
جادت عليها كـــل عـــين ثـــرةٍ * فتـــركن كـــل قـــرارة كالـــدرهم**
سحاّ وتســـكاباً فكـــل عشـــيةٍ * يجري عليها الماء لـــم يتصـــرم(١)**

الليل في الصحراء:

فالصحراء تنعم بكثير من المفردات فالليل أحداها ففي تلك البيئة لـــه رونـــق وجمال واتساع الكون، فقد وصف به الشاعر النابغة الذبياني ممدوحـــه فـــي صـــفة الاتساع وقوة السلطان فقال:

فإنك كالليل الذي هو مدركي * وإن خلت إن المنتأى عنك واسع(٢)**

ففيه الهدوء وضياؤه اللامع من نجومه الزهر وقمره الفضي المنير وظلامـــه الـــذي يكتنفه السحر والغموض، ففيه ترويح عن النفس من عناء السفر لمن أضناهم السعي نهاراً، وهو سعير العاشقين والمحبين الذين اشتكوا مـــن طولـــه، ولـــذلك ورد فـــي أشعارهم ومقطوعاتهم فيض وافر من الحديث عنه، وهو جمال لمن ينشدون صـــفاء الروح وطمأنينة النفس ومناجاة الحق تعالى، يقول جلّ شأنه: (وجعل الليل ســـكناً)(٣) وهو غطاء للذين يخفون شرورهم فيه .

يقول النابغة وهو يعبر عن طول الليل وبطء كواكبه وتلك الـــذكريات التـــي تحـــف الشعراء ليلاً وتثقل صدورهم بالهم:

كليني لهم يـــا أميمـــة ناصـــب * وليـــل أقاســـيه بطـــيء الكواكـــب**
وصدرٍ أراح الليل عازب همـــه * تضاعف فيه الحزن من كل جانب(٤)**

---

(١) ديوان عنترة بن شداد، ص١١٩-١٢٠.روضة: منصوب لأنها معطوف على اسم كأن ويجوز فيه الرفـــع على العطف على المضمر الذي في سبقت قبلها، روضة أنفاً: التام من كل شيء، معلم: مشهور ومعلـــوم، قرارة: موضع مطمئن من الأرض يجتمع فيه السيل، سحّاء: الصب، يتصرّم: لم ينقطع. الثرة: الكثيرة .

(٢) ديوان النابغة الذبياني، ص٥٢.

(٣) سورة الأنعام الآية ٩٦.

(٤) ديوان النابغة الذبياني، ص٥٤.أراد كليني لهم وصدر قوله أراح الليل عازب همه أي ردّ عليه الليل ما كان قد عزب من همه وذلك أنه يتعلل بالنهار في محادثة الناس بخلاف الليل .

ولامتداد الصحراء وتفرق الديار والمنازل فيها تبعاً لأماكن الخصب والماء يجعل للّيل سكون وهدوء ودفئ وتوجس أحياناً. وللّيل دليل في الصحراء للبدو لظهور النجوم والكواكب فيه وهو زمان لقطع المسافات والتسفار تحاشياً لحر الهاجرة، ففيه أنس وتوارد الخواطر وأنيس المشاعر والخيال، فكثير ما أتت قصائد ولدت ليلاً تعبر عن المحبوب والشوق إليه.

(وليس الليل عند امرئ القيس إطاراً للحركة وموضوعاً للقول الشعري فحسب، وإنما هو أيضاً كلون أسود يمكن من إبراز الأبيض سواء من بياض الحبيبة أو بياض نور البرق)(١).

والليل عند امرئ القيس أيضاً يشبه البحر عنده في وحشة أمواجه وطول زمانه وكأن نجومه لا تتحرك مشدودة بحبال متينة إلى الأرض وهذا مستوحى من حياة الصحراء وفكر الشاعر. يقول معبراً عن ذلك:

وليل كموج البحر أرخى سدوله * علىّ بأنواع الهموم ليبتلي**

فقلت له لما تمطى بصلبه * وأردف أعجازاً وناء بكلكل**

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي * بصبح وما الإصباح فيك بأمثل**

فيا لك من ليل كأن نجومه * بكل مغار الفتل شدت بيذبل**(٢)

وتكرار الليل في أشعار الجاهليين يعبر عن مدى اهتمامهم بمفردات البيئة الصحراوية وهو أحد المكونات الجمالية للصحراء وهو نعمة مهداة وتسخير من الله تعالى لخلقه. يقول تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالْنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾(٣).

والليل سكون وهدوء وباعث للتأمل والتفكير والبواح والصمت والبراح الفسيح المطلق والسفر بالأنواء، كل ذلك يولد في نفس البدوي الإنطلاق في التعبير

---

(١) الإحساس بالزمان في الشعر العربي، على الفيضاوي، منشورات كلية الآداب بمثوبة تونس، ٢٠٠١م، ج٢ ص ٣٢.

(٢) ديوان امرئ القيس، ص ١١٧.

(٣) سورة النحل الآية ١٢.

والتميز والخيال الواسع والواقع والبوح بما في الضمير، فيــأتي الغــزل الرصــين والمدح الثاقب والفخر البديع، ففي الليل يبزغ القمر وضاح الجبين بساماً يشع نــوراً وألقاً، ويبعث نوره الفضي المتلألئ للمدلج والمسافر والسامر والمفكــر والشــاعر والغائر، فيخلب لبه وتلمع النجوم زاهرات مسافرات فتومض وتتناغى وتتناجى مــع الفكر والخيال الذي يلف بصورة المحبوبة فينأى المنام، وأما سويد في عينيتــه فقــد أجاد التصوير الحسن الذي نرى فيه أوائل الليل تتعاطف راجعة على أواخره فيصير الليل كأنه حلقة محكمة الأطراف، وكان الشاعر قطب هذا الليل الذي يدور عليه بكل همومه ومعاناته يقول:

وإذا ما قلت ليلٌ قــد مضــى * عطــف الأول منــه فرجــع**

يسحب الليل نجومــاً ظُلعــاً * فتواليهــا بطيئــات التبــع**[(١)]

النجــوم والصحراء:

ومثلما اهتم العرب بمكونات الصحراء وبالليل فقد اهتموا بــالنجوم اهتمامــاً بالغاً لأنها الهادي الوحيد ليلاً في الصحراء، يقول تعالى: (وبالنجم هــم يهتــدون)[(٢)] وتقودهم إلى أماكنهم ومواقع العشب والمياه ويعرفون بها زمــن ســقوط الأمطــار والفصول ووقت نمو الثمار والنبات، وقد ارتبط طــول الليــل بــالنجوم، وتخيلهــا الأعشى أنها شدت إلى الجبال بأمراس وحبال لعدم حركتها وثبوتها وواقفة لا تتغير. يقول في ذلك:

كأن نجومها ربطــت بصــخرٍ * وأمــراس تــدور وتســتريد**

إذا ما قلت حــان لهــا أفــول * تصــعّدت الثريــا والســعود**[(٣)]

فقد وردت الأنواء والنجوم كثيرة في الشعر العربي في ثنايــا قصــائدهم والتــألق والضياء وسرعة الانقضاض، وهو وارد في لمعان الماء والارتفاع وضياء النيــران وبريق الرماح وتلألؤ الخمر في الكؤوس وجمال ونضرة الوجــوه والتغنــي بــالقيم

(١) شعراء النصرانية، لويس شيخو،ص٤٢٧.

(٢) سورة النحل الآية ١٦.

(٣) ديوان الأعشى، ص ٦٣. السعود: رهط مؤلف من عشرة كواكب.

والمثل، ولا غرابة أن يصل العرب إلى درجة بعيدة في علم الأنواء ذلك لأنها حياة بالنسبة لهم في الصحراء والأمطار تمثل هذه الحياة.

وهي الهاديه لهم في الصحراء وتجوالهم المستمر ومعرفتهم بأيامها ونزول الغيث فيها فناجى البدوي الليل والأنواء وانبهر بجمالها وأصبحت محبوبته التي يقترن جمالها مع محبوبته في الحل والترحال، ينقل صاحب العقد الفريد قول المهلهل ابن أبي ربيعة يشبه لوحة الكواكب بما تمليه عليه ذاكرته من التشبيهات يقول:

فإن يك بالذنائب طال ليلي * فقد أبكي من الليل القصير**

كأن كواكب الجوزاء عوذ * معطفة على ربع كسير**

كأن الجدي في مثناه ريق * أسيرٌ أو بمنزلة الأسير**

كأن النجم إذا ولى سحيراً * خصال جلت في يوم مطير**

كواكبها زواحف لاغباتٌ * كأن سماءها بيدي مرير**[1]

ويقول الأعشى بعد تفرسه في السماء أن هناك حارسين في ذاك الليل البهيم لا يغيبان وهما الجدي والفرقد.

فأما إذا ما أدلجت فترى لها * رقيبين جديا لا يغيب وفرقدا**[2]

ويقول لبيد:

بُلينا وما تبلى النجوم الطوالع * وتبقى الجبال بعدنا والمصانع**[3]

ويذكر الأعشى تلك النجوم وهو في رحلة في امتداد الصحراء وفي ارتفاعها في قبة السماء، ويتأمل ذلك المشهد يقول:

قطعت إذا ما الليل كانت نجومه * تراهن في جو السماء سوامكا**[4]

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه، الجزء السادس، ص ٦٢.

(٢) ديوان الأعشى، ص ٤٥.

(٣) ديوان لبيد، ص ٨٨. المصانع: القصور.

(٤) ديوان الأعشي ، ص ١٣٢ ، سوامكا : مرتفعا

ونظر البدوي نهاراً إلى الشمس فعبر عنها بصفات الرفعة والسمو والقوة والخير، وهي من المظاهر الكونية ولها خاصية مميزة في الصحراء من ظهور وحرارة ووقاية من البرد، ولذلك فهي حبيبتهم وقد عبروا عنها أنها تفرح وتحزن فهي إنسان. قال الأعشى:

يضاحك الشمس منها كوكب شرق * مؤزر بعميم النبت مكتهل**(١)

وعندما أراد النابغة إسباغ النعمة على النعمان جعله شمساً والكون كواكب تختفي بظهوره قال:

فإنك شمس والملوك كواكب * إذا طلعت لم يبد منهن كوكب**(٢)

والشمس امرأة تلقي رداءها على الوجه الجميل كما صنعت مع محبوبة طرفة قال:

ووجه كأن الشمس ألقت رداءها * عليه نقي اللون لم يتخدد**(٣)

إذن الشمس فأل حسن عند البدوي وتغطي كل جميل لديه. وعندما نظر البدوي ليلاً وجد القمر بجانب تلك النجوم ذلك الأبيض الناصع وهو أحد مفردات قبة الصحراء المؤثرة، ولذلك أغبط الشاعر الجاهلي في الصحراء وشبهوا به محبوباتهم وممدوحيهم لصفاء لونه واستدارة شكله وعلوه ونقائه. قال النابغة في مدح ملك الحيرة:

متوّج بالمعالي فوق مفرقه * وفي الوغى ضيغم في صورة القمر**

فتهلل وجه النعمان بالسرور وأمر أن يحشى فم النابغة جواهر وقال مزهواً "بمثل هذا فلتمدح الملوك"(٤).

وقد اقترن اسم الشمس والقمر حتى قالت العرب القمران: قال الأعشى:

فتى لو ينادى الشمس ألقت قناعها * أو القمر الساري لألقى المقالدا**(٥)

---

(١) ديوان الأعشى، ص ٢٣٣.يضاحك الشمس: يدور معها حيث ما دارت، كوكب كل شيئ: معظمه المراد هنا الزهر، مؤزر: مفعل، مكتهل: قد انتهى في التمام، العميم : التام السن.

(٢) ديوان النابغة الذبياني، ص ٧٨.

(٣) ديوان طرفة بن العبد، ص ٤٩.

(٤) مروج الذهب، المسعودي "أبو الحسن على بن الحسين"، الجزء الثاني، ص ١٠٠.

(٥) ديوان الأعشي ، ص ٤٦.

المطر والبرق والرياح ومدلولاتها في الصحراء:

كان البدوي في الصحراء متجولاً يبحث عن الماء والكلأ، فالبئر عنده لها أهميتها فهي تجلب سقيه والحياض والغدران كلها أوعية للماء فهي تمثل له الحياة لأهميتها وقلة الماء في الصحراء، فهي تحمل البشرى له، ولذلك جاء ذكرها كثيراً في أِشعارهم فذكروا مشاهد هطول الأمطار، وما يترتب عليه من خير وبركة.

فعند هطول الأمطار تتلون الصحراء باللون الأخضر الزاهي وتمتلئ وديانها وخيرانها ومستنقعاتها فيبعث الحياة في الأرض فتخضر وتنتج نوقهم وشاؤهم وتسمن وتتناسل ويعم الخير الوفير الأرض،قال تعالى: (وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلدٍ ميت فأنزلنا به الماء)[١] وإذا أجدبت جاعوا ومرضوا ونهبوا وأتاهم الموت. وقد تتبع الشعراء المطر فوصفوا رعدها وبرقها وسحابها الثقيل منها والخفيف ورياحها الشديدة ورسموا صوراً رائعة لمناظره وهو ينثال من قبة السماء إلى الأرض فأكثروا التشبيهات، وأشاروا إلى السيول والغدران وما يحدثه من انقلاب في الحياة العامة، فالحيوانات تفر مذعورة والضفادع تنعق، وصوروا الضب يتلوى في الماء، وتعم الجبال والتلال والنباتات المخضرة، وإلى غير ذلك من التفصيلات الكثيرة التي أوردها الشعراء، ووردت في كتب التراث الأدبي (وقد كان الشعراء الجاهليون يصدرون في تصورهم للمطر عن فكرٍ ورؤية متحدة وصور متشابهة إلى حد بعيد، ووحدة الصور تنبع في أساسه من وحدة التصور ووحدة التراث ووحدة المعتقد)[٢].

يصف لبيد يوماً ممطراً في الصحراء بقوله:

أصاحِ ترى بريقاً هب وهناً * كمصباح الشعيلة في الذبال**

أرقت له وأنجد بعد هدء * وأصحابي على شعب الرحال[١]**

---

(١) سورة الأعراف من الآية ٥٧.

(٢) المطر في الشعر الجاهلي، د. أنور أبو سويلم، دار عمار، عمان، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م، ص ٦.

(١) ديوان لبيد، ص١٩، هب: لمع وأضاء، وهناً: بعد ساعة من الليل، الشعيلة: النار، الذبال: الفتيلة ، أنجد: ارتفع أخذ البرق إلى ناحية نجد، شعب الرحال: عيدانها، وأصحاب على شعب الرحال: أي نيام.

وقد وصف أيضاً أوس بن حجر يوماً ممطراً برعده وبرقه ورياحـــه حتـــى ســـالت الأمطار يقول:

قد نمّت عني وبات البرق يُسهرني * كمـــا استضـــاء يهـــودي بمصـــباح**
يا من لبرقٍ أبيـــت الليـــل أرقبـــه * في عارضٍ كمضئ الصـــبح لمّـــاح**
دانٍ منسق فويـــق الأرض هيدبـــه * يكـــاد يدفعـــه مـــن قـــام بـــالراح**
كـــأن ريقـــه لمّـــا عـــلا شـــطبا * أقراب أبلـــق ينفـــي الخيـــل رمّـــاح**
هبت جنوب بـــأعلاه ومـــال بـــه * أعجـــاز مـــزنٍ يســـحُّ المـــاء دلاح**
فارتج أعـــلاه ثـــم ارتـــج أســـفله * وضاق ذرعاً يحمل المـــاء منصـــاح**
كأنمـــا بـــين أعـــلاه وأســـفله * ريـــطٌ منشـــرة أو ضـــوء مصـــباح**
ينزع جلد الحصى أجـــش مبتـــرك * كأنـــه فـــاحص أو لاعـــبٌ داحـــي**
هُـــدلاً مشـــافرها بحـــاً حناجرهـــا * تزجي مرابيعها في صحصح ضاحي**
فأصبح الروض والقيعان ممرعـــةٌ * من بين مرتفقٍ منهـــا ومنطـــاح(٢)**

(فلم تكن كل الصحراء جرداء لا حياة فيها ولا نضرة وإنما هناك بعـــض الأوديـــة والأماكن التي تستقر فيها مياه الأمطار وتسمى الرياض، أو يسيل إليها ماء الســـيول فيستريض فيها فتنبت ضروباً من العشب والبقول ولا يسرع إليها الذبول، إذا

---

(٢) ديوان أوس بن حجر، ص ١٥-١٧. العارض: السحاب المعترض في الأفق، دان: قريـــب مـــن الأرض، هيدب السحاب: ما تهب منه، ريقه: أوله، شطباً : جبل في بلد بني تميمة ينكشف البرق كما يرمح الأبلق فيبـــدو بياضه. الأبلق من الخيل ما فيه بياض وسواد، ينفي : يطرد، رماح: كثير الرفس، الجنوب: ريح تـــأتي بمطـــر غزير، الأعجاز: جمع عجز وهو مؤخرة الشيئ ، المزن: السحاب الأبيض، دلاح: مثقل بالماء، أجـــش: غلـــيظ الصوت وهو صفة الرعد، المبترك: أي الذي أسرع في العدو، الفاحص: الذي يقلب وجه التراب، الداحي: الذي يلعب بالمرحاة وهي خشبة يرمي بها الصبي فتمر على وجه الأرض لا تأتي على شئ إلا اجتحفته، المرتفـــق: ماء راكد قد حبسه شئ يرتفق به، المنطاح: سائل لم يكن له ما يحبسه فسال، هدلاً مشافرها: مسترخية، تزجي: تسوق، المرابع: مفردها مرباع والمراد أولادها، الضاحي: الظاهر.

أعشبت الرياض وتتابع عليها الوسمى ربعت العرب بنعمها جمعاء فكانت تسيل فـــي بعضها الجداول الصغيرة وتسمى الرياض[1].

وقد ذكر كثير من الشعراء مثل هذه الرياض فطرفة يذكر روضة دعمى قال:

لخوله أطـــلال ببرقـــة ثهمـــد * تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليـــد**

فروضة دعمّى فأكفاف حائـــل * ضللت بها أبكي وأبكي إلى الغد[2]**

وقد ذكر لبيد رياض الأعراف فقال:

هلكت عامر فلـــم يبـــق منهـــا * بريـــاض الأعـــراف إلا الـــديار[3]**

فالبدوي في الصحراء صور كل حركات وسكنات الصحراء بصور بديعية جميلـــة ولم يترك شيئاً إلا وعبر عنه بصورة جميلة فصور لنا كيف أن الامطار هطلت على الأرض وغطت الديار والربوع بطول الجزيرة العربية، فموقف الشاعر البدوي من المطر موقف التذلل والتضرع ممزوجاً بالعشق والوجد والرغبة والرهبة، فهو نعمة له ولماشيته، وهو محور الحياة وتجددها بل يقرن الممدوح دائمـــاً بـــالمطر. يقـــول زهير:

فاستمطروا الخير من كفيه أنهما * بسيبه يتـــروى منهمـــا البعـــد[4]**

والنابغة الذبياني يصور أن الرياح تدفع السحاب فيهطل في أرجاء الصحراء يقول:

وهبت الريح من تلقاء ذي أرل * تزجي مع الليل من صرادها صرما[5]**

ويقول الحارث بن حلزة:

وحسبت وقع سيوفنا برؤوسهم * وقع السحابة بالطراف المشرج[6]**

---

(١) الطبيعة في الشعر الجاهلي، نوري القيسي،ص٩٩.

(٢) ديوان طرفة بن العبد ، ص٣٦.

(٣) ديوان لبيد، ص٧٧.

(٤) ديوان زهير بن أبي سلمى، ص ٢٠٥، السيب: العطاء، البعد: جمع البعيد.

(٥) ديوان النابغة الذبياني، ص ١٠٧، أرل: جبل، صراد: برد، صرم: قطع من السحاب.

(٦) ديوان الحارث بن حلزة، ص٤٣.

وقد ورد في الشعر العربي عدد من الأسماء والأوصاف التي تعبر عن المطر، ويقولون "المطرة – أهضوبة – أغصان – بعاع – برد – ثلة – جود – ديم – جن – رث – ذهاب – رهام – رجع – ريق – رباب – رزق – رش – رعاف – رذاذ – سحاب – ساجية – سح – صوب – طش – عرض – غيث – غريض – قطر – مطر – مزن – هطل – هفاء – وبل – ودق – كف وطفاء"(١).

والغيث ضرورة من ضرورات الحياة قال الجاحظ :"ولحاجته يعني العربي إلى الغيث وفراره من الجدب وضنّه بالحياة اضطرته الحاجة إلى تعرف شأن الغيث، ولأنه في كل حال يرى السماء وما يجري فيها من كواكب ويرى التعاقب بينها والنجوم الثوابت فيها وما يسير فيها مجتمعاً وما يسير منها فارداً وما يكون فيها راجعاً مستقيماً"(٢).

ولأهمية المطر في حياة الناس في ذاك الزمان فقد ذكر الدكتور أنور أبوسويلم في كتابه المطر في الشعر الجاهلي "٤١" مؤلفاً تحمل عنوان كتاب الأنواء(٣).وقد شبهوا الدروع الرقيقة لصفائها بالصحراء المنبسطة كما شبهوا السيوف بالغدران، قال عبد قيس يصف درعه :

وسابغةٍ من جياد الدرُّو * ع تسمع للسيف فيها صليلا**

كما الغدير زفته الدّبور * يجر المدجّج منها فضولا(٤)**

وقال الشنفرى يصف حساماً:

وحسام كلون الملح صافٍ حديده * جُزار كأقطاع الغدير المنُعتَّ(٥)**

---

(١) الخطاب الإبداعي الجاهلي والصورة الفنية، د.عبد الإله الصائغ ، ص٢١٧.

(٢) الحيوان، الجاحظ عمرو بن بحر، تحقيق محمد عبد السلام هارون، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، بدون الجزء السادس، ص ٣٠.

(٣) المطر في الشعر الجاهلي، الدكتور أنور أبو سويلم، دار عمار، الطبعة الأولى ١٩٥٧م، ص١٦.

(٤) المفضليات، المفضل الضبي، الجزء الثاني، ص ٣٨٦. الدبور: ريح تهب من المغرب تقابل الصبا وخصها لأنها شديدة المَرْ تكدر الماء، زفها الماء: أن تطرده وتدفعه. المدجج: بفتح الجيم وكسرها: اللابس السلاح.

(٥) ديوان الشنفرى، ص ٣٨. أقطاع: جمع قطع بأقطاع الغدير أجزاء الماء يضربها الهواء فتقطع ويبدو بريقها، جزار: السيف القاطع.

ومصادر الماء متعددة في الصحراء فهي في كثير من الأحيان مصدر النزاع بين القبائل وسبباً من أسباب إثارة الحرب، وقد سميت كثيراً من أيام العرب بأماكن هذه الآبار والعيون،الآبار وتستعمل الدلاء لاستخراج مائها، فيشبه زهير الأتن في سرعتها وانغضاضها على عدوها بالدلو إذا انقطع حبلها في البئر قال:

فشج بها الأماعز وهي تهوى * هويّ الدلو أسلمها الرشاء**[(١)]

وأصبح الماء مادة للتطهير الحسي والمعنوي، قال طرفة عن هذا المعنى:

إذا المرء لم يغسل من اللوم عرضه * ولم ينقه لم يغن عنه بهاؤه**[(٢)]

ويحمل معنى الكرامة والسعادة والعزة والشرف وطيب المعشر، وقد عبر عنه عمرو بن كلثوم بقوله:

ونشرب إن وردنا الماء صفواً * ويشرب غيرنا كدراً وطيناً**[(٣)]

وهذه البيئة الصحراوية التي تكثر جبالها وتتشعب وديانها ويقل زرعها ونباتها، فيترقب المطر من السماء فينتجع البدوي للكلأ في الصحراء لا يأويه بنيان ولا تضمه جدران، يقول تعالى: (أولم يروا أنّا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون)[(٤)]، وهذه البيئة تجعل الإنسان أشد التهاباً وأكثر تأثراً يهيجها الحب ويطيش بها الغضب ويثيرها الطرب، وهذه من دواعي الشعر وعوامله.

أما البرق وهو أحد مظاهر الخريف ويظهر في هذا الفصل الذي يرقبه الناس ويبرقون أفرادهم وجماعاتهم خبر نزول الغيث، وقد أخذه الشعراء وصوروه وذكروه كثيراً في أشعارهم تصويراً فهو بشارة خير فهاموا وجعلوه أحد مفردات تشبيهاتهم في البهاء والحسن والسرعة فما من شاعر إلا وصار يراقب البرق فهذا

---

(١) ديوان زهير، ص٧٧. شج: علا بها بالأتن، الأماعز: المكان الكثير الحصى، أسلمها : خزلها، الرشاء: الحبل، فشبه هوى الحبل إذا انقطع بهوي الأتن في سرعتها.

(٢) ديوان طرفة بن العبد، ص٢٦.

(٣) شرح القصائد العشر، التبريزي ، ص٣١٩، وورد أيضاً (وأنا الشاربون الماء صفوا) .

(٤) سورة السجدة الآية ٢٧.

ينم عن تلقفهم للأمطار والرحيل وتلاقي الأهل والأحبة، وبشارات لتجسيدهم للفأل الحسن المتمثل في البرق وهو بشارة المطر. يقول أبو ذؤيب الهذلي:

أمنك برق أبيت الليـــل أرقبـــه * كأنه في عراض الشام مصـــباح**(١)

ويقول عبيد الأبرص حول مراقبته للبرق:

يا من لبرقٍ أبيت الليل أرقبـــه * من عارضٍ كبياض الصبح لمّاح**(٢)

وقال امرؤ القيس يصف البرق:

أرقت له ونـــام أبـــو شـــريح * إذا قلت ما قـــد هـــدأ اســـتطارا**(٣)

وقال النابغة الذبياني يصور البرق ووميضه:

أصاحٍ ترى برقاً أريك وميضه * يضئ سناه عن ركـــامٍ مُنضـــد**(٤)

وكثيراً ما تأتي أشعارهم تحمل هذه المعاني فالبدو يجتمعون جماعات في الليل في الصحراء يتسامرون ويرقبون البرق في فصل الخريف وهو بالنسبة لهم فرحة وغبطة وسعد. قال طفيل الغنوي:

أصاحٍ ترى برقاً أريك وميضه * يضئ سناه ســـوق أثـــلٍ مـــركم**(٥)

وقال الأعشى:

يا من ترى عارضاَ قد بت أرقبه * كأنما البرق في حافاته الشُـــعُل**(٦)

وقال لبيد يصف البرق:

أصاحٍ ترى بريقاً هـــب وهنـــاً * كمصـــباح الشـــعيلة فـــي الـــذُّبال**

---

(١) شرح أشعار الهذليين، الجزء الأول، ص ١٦٧. أمنك برق: أي من نحو منزلك من الشق الذي أنت فيـــه، أرقبه: أنظر أين لمعه، عراض الشام: نواحيها، يريد أن البرق يتوقد كتوقد المصباح.

(٢) ديوان عبيد الأبرص، ص٥٢. العارض : المعترض، اللماح: الشديد البياض.

(٣) ديوان امرئ القيس، ص ٧٧. أرقت: سهرت، أبوشريح: إسم أخيه.

(٤) ديوان النابغة الذبياني، ص ٢٤٦.

(٥) ديوان طفيل الغنوي، ص١٠٣.

(٦) ديوان الأعشى: ص٢٣١.

أرقت لــه وأنجــد بعــد هــدء * وأصحابي على شُــعُب الرّحــال**[١]

فتأتي التشبيهات لبريق البرق وضوئه منتقاه من بيئتهم الصحراوية بل نلحظ كأن المراقبة يتهيأ لها الناس لرؤية تلك البشارة فيعمدون للصحيان لهذا الخبر السار يقول حسان بن ثابت مصوراً مراقبته لهذا البرق:

أرقت لتوماض البروق اللوامع * ونحن نشاوي بين سَــلْع وقــارع**

أرقت له حتى علمــت مكانـــه * بأكناف سلع والــتلاع الــدوافع**[٢]

ولكن هناك بعض الآراء الواردة حول ذكر البرق منها أن وصف البرق ومراقبته "إنما هي مهمة الساحر صانع المطر"[٣]، وأن الاعتقاد لديهم بأن هناك ساحر يعرف قدوم الأمطار ويسير بها، ولذلك يقوم الشاعر بمناجاته، وفي رأي ليس من الصواب أن نحمّل النص أو النصوص أكثر من ظاهرها، فالبرق عندهم بشارة خير وفأل، ولذلك يترقبه كل الناس فهو بالنسبة لهم حياة وسعد.

فالشاعر عندما يصف المطر أو البرق أو الرياح تأتي عنده في صورة متكاملة في سياق القصيدة لتصوير مشهد حي يستطيع تقريب الصورة وتجسيدها كأنها تتراءى للعيان، فنجد صورة لأبيات طرفة بن العبد يصور مشهداً مجسداً لهطول الأمطار فتأتي مشاهد الحيوان والإنسان وتفاعله مع هذا الحدث يقول:

إنا إذا مــا الغــيم أمســى كأنــه * سماحيق ثرب وهي حمــراء حرجــف**

وجــاءت بصــراد كــأن صــقيعه * خلال البيــوت والمنــازل كرســف**

وجاء قريع الشول يرقص قبلهــا * إلى الدفء والراعي لها متحــرف**[٤]

---

(١) ديوان لبيد بن أبي ربيعة، ص ١٠٩.

(٢) ديوان حسان بن ثابت، ص١٤٧. توماض: لمعان، سلع: جبل، قارع: حصن حسان، التلاع: أرض مرتفعة غليظة، الدوافع: التي تدفع السيل منها إلى غيرها.

(٣) الصورة الفنية في الشعر الجاهلي، د. نصرت عبد الرحمن، ص ٦٨.

(٤) ديوان طرفة بن العبد، ص ١٢٦. سماحيق: القطع الرقاق من الغيم، ثرب: الشحم الرقيق، حرجف: الشديدة، صراد: سحاب لا ماء فيه، صقيعة: ماء يسقط على الأرض كأنه ثلج، كُرسف: قطن، قريع الشول: فحــل الإبل، يرقص: يسرع، المتحرف: المائل من شدة البرد، وأرادوا أنه يترك إبله ومال عنها أي ناحية يتقــي البرد.

فهذه الصورة الرائعة المتكاملة، التي يصف فيها هطول الأمطار وما كان يغطيها من سحب والغيوم الرقيقة ثم نزول الصقيع على المنازل والأرض، وقد عادت الإبل ويسبقها فحلها وراعيها يطلب الدفئ من البرد.

وتشاءموا من بعض الأنواء كالبطين، والهقعة، والهنعة، والدبران، والإكليل، والقلب، والشولة، ومن الأنواء المحمودة الخيّرة عندهم الشرطان – الثريا – السماكان– النعائم – البُلدة – والسعود الأربعة وإنما حمدوها لغزارة أمطارهم وطيب هوائها(١)، وهي منازل لأوقات هطول الأمطار معروفة لديهم.

والرياح تناولها الشعراء بجهاتها وزمانها فهي تختلف في شدة جفافها باختلاف مهابها، وقد وضعت العرب لكل ريح اسماً يختلف باختلاف مناطق هبوبها، (وكانوا يطعمون إذا هبت الصبا كما كانوا يتشاءمون بالرياح الشمالية ويعتبرونها مثلاً للشر، وقد أشار الشعر إلى قساوتها وبرودتها لأنها تنذر بالقحط وتنزل بالجدب، وقد سموا الريح للتي تهب بين مهب ريحين أصليين، كالنكباء التي تهب بين الصبا والجنوب، أما الجربياء فهي التي بين الجنوب والصبا، وقيل هي الشمال، وذكروا الهيف وهي الريح الباردة التي تجئ من قبل مهب الجنوب، وقيل هي كل ريح ذات سموم تعطش المال وتيبس الرطب، وقد حفلت كتب اللغة والمعاجم بالعديد منها)(٢).

لذلك اقترن ذكر الرياح كثيراً بتخريب الأطلال ودمارها أو أنها تحمل عبق الحبيبة وحبها، فعند امرئ القيس ترتبط بالأطلال والديار وأماكن نزوله. يقول:

فتوضح فالمقرات لم يعف رسمها * لما نسجتها من جنـــوب وشـــمأل**(٣)

فالأماكن والديار قد اندثرت وأصبحت أطلالاً بفعل عوامل الطبيعة ومنها الرياح والأمطار ، يقول النابغة في ذلك:

---

(١) المطر في الشعر الجاهلي، الدكتور أنور أبو سويلم، ص ٦٠.

(٢) الطبيعة في الشعر الجاهلي، د. نوري القيسي، ص ٤٢.

(٣) ديوان أمرئ القيس،ص١١٠.

قفــت عليــها فــاضمحل طلولها * هوج الريــاح وديمــة الأمطــار**[١]

وأن هذه الرياح تشتد قوتها في الصحراء لاندفاعها فهي تؤذي حتى الحيوان، يقول النابغة في قصيدة يذكر فيها معاناة البقر الوحشي بقوله :

مقابــل الريــح روقيــه وكلكلــه * كالهبرقي تنحــى يــنفخ الفحمــا**[٢]

والرياح أحد عوامل هطول الأمطار في الصحراء وهي تسوق السحاب، ولذلك هي عندهم لها صفات وأسماء يطلقونها عليها، ويذكر المسعودي[٣] أن الرياح أربعة إحداها ما تهب من ناحية الشرق وهي القبول، والثانية تهب من الغرب وهي الدبور، والثالثة من اليمن وهي الجنوب، والرابعة هي الشمال، أما ريح القبول وهي التي يقولوا أنها ريح الصبا وهي ريح طيبة مقبولة، والنفس تصبو إليها لأنها تأتي بالسحاب، أما الرابعة فتهب مصحوبة بأمطار، ولذلك عرفت بالذاريات والمعصرات)[٤]. وجاء في القرآن ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾[٥].

---

(١) ديوان النابغة، ص ٩٦. قفت: عفت، اضمحل: درس، الهوج: التي تجيء من كل جانب، ديمة: المطر الذي يدوم يومين أو ثلاثة .

(٢) المصدر السابق، ص ١١٠، روقاه: قرناه، كلكله: صدره، الهبرقي: الحداد.

(٣) المسعودي: هو علي بن الحسين بن علي المسعودي (أبوالحسن) مؤرخ اخباري صاحب فنون توفي في مصر سنة ٣٤٥هــ ، من تصانيفه الكثيرة مروج الذهب ومعادن الجوهر في تحف الأشراف والملوك ــأنظر معجم المؤلفين كحالة ج٢ ص٤٣٣-٤٣٤ ــ النجوم الزاهرة جمال الدين أبي المحاسن ج٣ ص٣١٥.

(٤) تاريخ العرب قبل الإسلام، د. السيد عبد العزيز سالم، ص ٧٧.

(٥) سورة الحجر، الآية ٢٢.

وتتابع الرياح في الصحراء تترك أثراً في الأرض وأشكالاً متنوعة يقول النابغة مشبهاً إحدى هذه الأشكال بأن آثار هذه الرامسات في هذا الرسم بحصير من جريد أو أدم ترمله الصوانع وتحرزه عند مروره عليها في قصيدة يعتذر بها للنعمان:

كــأن مجــرّ الــرامسات ذيــولها * عليــه قضــيم نمقتــه الصــوانع**[1]

---

(١) ديوان النابغة ، ص٤٣، الرامسات: الرياح الشديدات الهبوب، ترمس الأثر: تخفيه، ذيولها: مآخيرها.

الفصل الثاني

الأوصاف الحسية الخارجية للشعر في الصحراء

الأوصاف الحسية الخارجية للشعر في الصحراء

لقد وصف البدوي الآثر الخارجي لطبيعة الصحراء والوقوف على الأطلال والآثار الدارسة وحيواناتها وكل مكوناتها، وأول ما وقف الشاعر الجاهلي من الصحراء وقف على الأطلال التي درست وأصبحت آثاراً بفعل الزمن ومؤثرات البيئة الأخرى لتلك المساكن التي كانت آهلة بأهلها فقد رحلوا في ربوعها كسباً للرزق والماء والكلأ. والوصف ورد في عرض القصيدة ليتوصل الشاعر إلى غرضه الرئيس من مدح وغيره يقول لبيد في مقدمة معلقته واصفاً تلك الديار الدارسة وما آلت إليه:

عفت الديار محلها فمقامها * بمنى تأبّد غولها فرجامها**

فمدافع الريان عُرّى رسمها * خلقاً كما ضمن الوحى سلامها**

دمنٌ تجرم بعد عهد أنيسها * حجج خلون حلالها وحرامها(١)**

وهذه الصورة التي بدأها الشاعر في معلقته تكشف صورة من صور الحياة الجافة التي أفلت بفعل البيئة الصحراوية برحيل أهلها وغياب أنيسها وضياع رونقها وبهائها.

وهناك صورة أخرى في نفس القصيدة تعبر عن عامل الزمن وهو الذي أدى لهذا السكون في روح الصحراء فسرت فيها الحياة بفعل حرارة الشمس وأنواء الربيع وهطول الأمطار فأخصبت الأرض بعد موتها وأخضرت وانتشر فيها العشب وعلت فروع الأشجار وسكنت الظباء وفرحت الأبقار ذات العيون

---

(١) ديوان لبيد بن أبي ربيعة ، ص١٦٣-١٦٤. تأبد: توحش، الأوابد: الوحش المقام حيث طال مكثهم فيه، منى: موضع، الغول والرجام: أماكن، المدافع: مجاري الماء، الريان: واد، عرى رسمها خلقاً: أي ارتحل عنه، الوحى: الكتابة المعنى أن آثار هذه المنازل كأنها كتاب في حجارة لأنه لا يتبين من بعيد، السلام: الحجارة، الدمن: الآثار، تجرم: تقطع، الحجج: السنون، حلالها وحرامها: يريد الشهور الحلال والشهور الحرام.

الواسعة الجميلة فكان الشاعر يقابل بين صورة الموت وصورة الحياة من خلال تلمسه لمكونات البيئة الصحراوية. قال لبيد:

رزقت مرابيع النجوم وصـــابها * ودق الرواعد جودهـــا فرهامهـــا**

من كل سارية وغـــادٍ مـــدجن * وعشـــــية متجـــاوب إرزامهـــــا**

فعلا فروع الأيقهان وأطفلـــت * بـــــالجهلتين ظباؤهـــا ونعامهـــا**

والعين ساكنة علـــى أطلائهـــا * عوذاً تأجل بالفضـــاء بهامهـــا**[١]

فقد ركز الشاعر على ما يحتاج إليه ويطيل فيه، فقد عنى بالصحراء لأنها مرتعه وسبيل عيشه، واهتم بوصف الناقة لأنها سفينته في هذه الصحراء الواسعة والجواد لأنه عنوان بطولته، والأطلال لأنها دفتر ذكرياته، يقول صاحب العمدة:(إن الشعر إلا أقله راجع إلى باب الوصف ولا سبيل إلى حصره واستقصائه)[٢].

وإذا كانت هذه النظرة تنسحب على الشعر كله فإنها تعتبر في العصر الجاهلي أخص ما تكون فالوصف هو فطرة اللغة العربية وأصل طبيعتها الذي ركبت عليه خاصةً في ذاك العصر فقد تكاملت الصورة في اللفظ المصور الذي يصف الأشياء ماديها ومعنويها ظاهرها وباطنها وهم يستودعون هذه الألفاظ في ظلال نفوسهم وأحاسيسهم ومشاعرهم حتى إن كثيراً من مركبات ألفاظهم تعتبر وصفاً لهذه المسميات. والشاعر يتحكم في الطبيعة فيلبسها الوصف الذي يراه ولذا نجدهم لا يصورون حيواناً إلا قوي الشكيمة ولا ينهزم إلا حين يريد له الشاعر ذلك، فالناقة يجب أن تكون قوية وسريعة وصبورة حتى تبلغ مكان الممدوح أو الحبيبة، وكلاب الصيد أن تكون قوية وسريعة.

---

(١) ديوان لبيد بن أبي ربيعة، ص ١٦٤-١٦٥.رزقت :دعـــاه لهـــا. جودهـــا: المطـــر ، الرهـــام: المطـــرة الضعيفة.التام سارية: سحابة تجئ ليلاً. وغادٍ: يجئ بالغداة، مدجن: من الإدجان وهو إلباس الغيم الســـماء، إرزامها: تصديتها بالرعد، علا فروع الأيقهان: أن السيل على فروع الأيقهان، الجهلتان: جانبي الوادي – والمعنى أن هذا المكان خلى لكثرة أولاد الوحش بها، العين: البقر، أطلاؤها: أولادها، العُـــود: الحـــديثات النتاج، الإجل: القطيع من الظباء، البهام: جمع بهمة وهي ولد الضأن.

(٢) العمدة: ابن رشيق ، الجزء الثاني، ص٢٠٤.

فالشاعر البدوي في الصحراء يصف بعض مكونات الصحراء بكل ما تحتويه من نبات وجماد بأوصاف خارجية ماثلة للعيان، "فقد حمل شعر الجاهليين تعبيراً يحمل عطر الصحراء الخالدة"[١].

ولذا نجد وصف الحيوان والنبات أدق تفصيلاً لأنه محبب إليه، فنجد الأعشى أكثر تفصيلاً في وصف الصحراء من غيره كما فاق عنترة غيره في وصف الجواد.

ونجد كثيراً من وصفهم وصفاً حسياً يرى من الواقع لا يميلون للمعاني التي تتخيل، وزهير عندما أراد وصف الموت نقله إلى مشهد حسي تصويري قال:

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب * تمته ومن تخطي يعمر فيهرم**[٢]

لقد مثل الموت بناقة عشواء لا تبصر بل تضرب على غير هدى، ومنح الفكرة شكلاً مادياً مما عاينه في الواقع.

وطرفة بن العبد يأتي بصورة تقترب من هذه، إذ يشبه الموت بحبل مرخي وممسك بيد مهما طال ارتخاؤه فسوف يجذب كقوله:

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى * لكالطول المرخي وثنيـاه باليـد**[٣]

فالبدوي بطبيعته النفسية يميل إلى التقليد والنقل، ولذلك ما وجد حيواناً أو نباتاً إلا وصفوه ومن أجود ما جاء في هذا الباب قول عنترة في وصف دار عبلة يقول:

أو روضةً أنـفاً تضمـن نبتها * غيـثٌ قلـيل الدمـن ليس بمعلم**

جادت عليها كـل عـين ثـرةٍ * فتـركن كـل حديقـة كالـدرهم**

سحًّاً وتسـكاباً فكـل عشـية * يجري عليها الماء لـم يتصـرم**[٤]

وكذلك يصف فرسه الذي خاض به المعركة. بقوله:

---

(١) دراسات في الشعر الجاهلي، د. يوسف خليف، ص ٣.

(٢) ديوان زهير بن سلمى ، ص٤٩.

(٣) ديوان طرفة بن العبد، ص ٣٤.

(٤) ديوان عنترة بن شداد، ص ١١٩ – ١٢٠.

ما زلت أرميهم بثغرة نحره * ولبانه حتى تسربل بالدم**
فأزور من وقع القنا بلبانه * وشكا إليّ بعبرة وتحمحم**
لو كان يدري ما المحاورة اشتكى * ولكان لو علم الكلام مكلمي**[1]

ويمثل الوصف أغلب أغراض الشعر العربي وأكثرها ويعتبر من أقدم هذه الأغراض التي عرفها الناس ولم يأت فناً منفرداً وإنما أتى في صياغ القصائد وحناياها وتسرب إلى تضاعيفها.

قال أبو هلال العسكري: "إن أجود الوصف ما يستوعب أكثر معاني الموصوف حتى كأنه يصور الموصوف فتراه نصب عينيك". كقول يزيد بن عمرو الطائي:

ألا من رأى قومي كأن رجالهم * نخيل أتاها عاصر فأمالها**

فهو يصور القتلى مصرعين[2]. ولذلك نجد الوصف غطى طبيعة الصحراء بتفاصيلها ما تركوا وادياً ولا جبلاً ولا روضة ولا سهلاً إلا وصوروه، فالأمطار والسحاب والبرق والأشجار والأعشاب والسراب، كل ذلك أخذ حظه وافراً من الوصف.

ففي الأمم الأخرى غير العربية وجد الناس إلى جانب الكلمة فنوناً أخرى يصورون بها أفكارهم ويجسدون فيها مشاعرهم فعرفت تلك الأمم الخط والتصوير والموسيقى فأقامت لكل ذلك مشاهد ينفس فيها خلجات مشاعرها فيرون في كل هذه المجالات مسارح فسيحة تتحرك فيها عقولهم.

ونجد أن شمس الصحراء محرقة خاصة في فصل الخريف فتضرب الشمس أشعتها على الأرض تنساب فوق رمالها سراب يبهر العيون، ويخدع العطاش فيتبعونه وهو منهم هارب حتى تكوى جلودهم وتشوى لحومهم، ولكن دربة البدوي على ذلك وفطنته جعلته يعرف أماكن الماء فيصور سويد بن أبي كاهل اليشكري جانباً من هذه الطبيعة يقول:

كم قطعنا دون سلمى مهمهاً * نازح الغور إذا الآل لمع**

---

(١) ديوان عنترة بن شداد، ص ١٢٦. إزور: مال، التحمحم: صوت مقطع ليس بالصهيل.

(٢) كتاب الصناعتين للكتابة والشعر، تصنيف أبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، حققه وضبطه الدكتور مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، ١٩٨٦م، ص١٤٥.

في حرور ينضج اللحــم بهــا * يأخذ الســائر فيهــا كالصــقع**[١]

فالوصف عند الجاهلي كان عدته في تصوير وتقريب ما حوله فكانت عينه تجول فيما حوله من الطبيعة المفتوحة الأرجاء من أرض وسماء وبادية ومفاوز مترامية كل ذلك يحاول تصويره ونقله كما يراه وقد نقل القرآن الكريم هذه الحقيقة فقال جلّ شأنه (نحنُ أعلمُ بِما يصفون)[٢]. وقد حاولت إبراز جانباً من الوصف في تلك الصحراء ورسم صورة حية للحياة الجاهلية فترى الناس في هذا الشعر أحياء يغدون ويروحون ترى شبابهم وشيوخهم وترى الرجل وصديقه والفارس على جواده والعادي على رجليه والعاشق في محراب محبوبته والواقف على الأطلال والظاعن في حياة الصحراء وأماكن الماء والعشب والوحش . فالشعر الجاهلي الذي احتوى وغلب عليه التصوير والتمثيل ولا غرو في ذلك عند أناس بلغوا من البيان والتبيان أن نزل فيه ولإعجازهم قرآن يتلى إلى أن تقوم الساعة.

وتتبع الشعراء وصف الأطلال التي ذكرناها وكذلك تصويرهم للثور الوحشي وما أصابه من عوامل الطبيعة، ووصف الناقة والفرس التي سبق ذكرها... الخ.

وتعمق الشاعر في محتويات البيئة الظاهرية منها والباطنية والمعنوية فوصف كل الحيوانات التي تتواجد في الصحراء، فظهرت معاني القوة والشدة والسرعة مجسدة في قول النابغة:

فسل الهوى واستحمل الهم عرمسا * تخــب برحلي تــارة وتنــاقل**

موتــرة الانساء معقــودة القــرا * ذقونا إذا كل العتاق المراسل**[٣]

---

(١) شعراء النصرانية لويس شيخو، ص ٤٢٧ . مهمهاً : القفر لا ماء فيه ولا أعلام، نازح الغور بعيد القعــر، الآل: السراب، حرور: ريح حارة تكون بالنهار أو حر الشمس، الصقع: حرارة تصيب الرأس.

(٢) سورة المؤمنون،من الآية رقم ٩٦.

(٣) ديوان النابغة الذبياني، ص ١١٤. فسل الهوى: أي تناصرها واتركها، تخب: هو ضرب من السير، تناقل: أيضاً ضرب من السير، الإنساء: عرق في الفخذ، الذقون: من الخيل التي ترفع رأسها وتملُّ اللجــام مــن نشاطها، العتاق: الكرام من الخيل، مراسل الخيل: سراعها.

فالعرمس هو الصخرة الصلبة ثم قالوا للناقة الصلبة عرمس تشبيهاً لصلابتها. وقال المنخل:

كأن وغى الخموش بجانبه * وغى ركب أُميم ذوي هياط**[١]

وهنا تصوير لصوت البعوض بمجادلة الركب وارتفاع اصواتهم . ويصور أيضاً النابغة ناقته بثور الوحش في قوتها فيأتي بصورة وصفية حسية يجلب معانيها وألفاظها من البيئة الصحراوية المحيطة به فيقول:

كأن رحلي وقد زال النهار بنا * بذي الجليل على مستأنس وحد**
من وحش وجرة موشى أكارعه * طاوي المصير كسيف الصيقل الفرد**
سرت عليه من الجوزاء سارية * تزجي الشمال عليه جامد البرد**
فارتاع من صوت كلاب فبات له * طوع الشوامت من خوف ومن صرد**
فبثهن عليه واستمر به * صمع الكعوب بريات من الحرد**
شك الفريصة بالمدري فأنفذها * شك المبيطر إذ يشفي من العضد**
كأنه خارجاً من جنب صفحته * سفود شرب نسوه عند مفتأد**[٢]

فهذه الصورة الحسية الوصفية التي أتى بها الشاعر تصور روح الصحراء وكيف أن كل مفرداتها تتسم بالحركة القوية للدفاع عن نفسه ومكابدة الحياة وهي صورة تجسيدية، فقد شبه الشاعر ناقته بالثور الوحشي ولم يكتف بذلك بل أراد أن يجعل من صورة الثور رمزاً لحياة البادية الصحراوية التي لا بقاء فيها إلا للقوي وبذلك كان لابد من توفر صفات القوة والحركة والسرعة للثور الوحشي، وتصور الصراع بين الحياة في تلك البيئة وبين مكابدة الإنسان لها، ويعبر هذا الثور الضامر

---

(١) شرح أشعار الهذليين، صنعة أبي سعيد الحسن بن الحسن السُكري، حققه عبد الستار أحمد فراج، راجعه محمود محمد شاكر، الجزء الثالث، ص ١٥٦. الخموش: البعوض، الهياط: الصياح والمجادلة.

(٢) ديوان النابغة الذبياني، ص ٦-١١. زال النهار: انتصف، الاستئناس: النظر- والذي يخاف الناس، ذي الجليل: موضع ينبت الجليل وهو الثمام، وحش وجرة: فلاة مجمع الوحش، موشى أكارعه: أي بيض وفي قوائمه نقط سود. طاوي المصير: ضامر، كسيف الصيقل: الفرد – يريد أنه يلوح كأنه سيف صقيل، سرت: إذا أمطرت ليلاً، السرّي: السير ليلاً، تزجي: تسوق وتدفع على الثور، جامد البرد: أي ما صلب من الثلج والجليد.

البطن الذي تساقط عليه البرد وهو يقف وسط هذه العواصف وقد نشبت المعركة بين الكلاب التي تطارده وانتهت بفوز الثور الذي استطاع أن يطعن الكلاب بقرنه طعنة قاتلة، أخذ الكلب إثرها يتلوى من شدة الألم، ولما رأت الكلاب الأخرى انسحبت واحداً تلو الأخرى.

فقد استطاعت القصيدة القديمة أن تعكس الصورة الحية للعصر الجاهلي من خلال الأوصاف الحسية الخارجية للصحراء وما فيها من مفردات، فقد وصفت الأطلال وخرجت إلى الناقة والفرس وإلى الفخر بالنفس والقبيلة واستطاعت أن تعكس الإحساس بالعصر.

وقد ورد الوصف الحسي أيضاً في النسيب والغزل في وصف المحبوبة التي تصور وتصف صورة الطبيعة الصحراوية.

وقد وصف النابغة محبوبته نعمى بأوصاف حسية عذبة وواضحة للعين حملت في طياتها الرملة الهاري وهو كثبان الصحراء والشمس وأبراج الفصول وكان الوصف والتشبيه مستقاه من تلك الرموز الموجودة في بيئته فيقول :

بيضاء كالشمس وافت يوم أسعدها * لم تؤذ أهلاً ولم تفحش على جـار**

يلاث بعد افتضال الدرع مئزرهـا * لوثاً مثل دعص الرملـة الهـاري**

والطيب يزداد طيباً أن يكون بهـا * في جيد واضحة الخـدين معطـار**

تسقي الضجيع إذا استسقى بذي أشر * عذب المذاقة بعد النـوم مخمـار**

كأن مشمول صرفٍ عـلَّ ريقتهـا * من بعد رقدتها أو شهد مشـتار**(١)

فقد وصف النابغة محبوبته بأنها بيضاء مشرقة كالشمس في صفائها وبهائها تبعث في قلبه الحياة والدفئ، ويوم الأسعد هو اليوم الذي تطلع فيه الشمس في برج السعود وتظل صافية لا سحاب ولا ضباب، ولم تكنز ضوءها ونورها المتلئلئ، فهي ليست كالشمس التي تُرى كل يوم، ويوم الأسعد يشير البدوي لها فهي إشارة للنماء والخصب، والعرب يتفاءلون بذلك وتقول "إذا طلع سعد والسعود نضر العود" دلالة

---

(١) ديوان النابغة الذبياني، ص ٢٣٤-٢٣٥. تلوث: تلف ثيابها بعد التوشح، الضجيع: الزوج، ذي الأشر: هـو الثغر الحسن، الشمولة: الخمر الصافية الخالصة، المشتار: هو الذي ينزل العسل من بيوت النحل.

للازدهار والنضارة، فهي لم تؤذ أحداً وذات خلق قويم وكرم وعفة وطهارة ولا تعرف الكلمة الفاحشة وتلف ثيابها بعد التوشح عفة على جسم ممتلئ وأردافها كأنها كثبان رمل، والدعص كومة الرمل.

والطيب يزداد طيباً أن يكون بها والمراد وصف ريقها بالعذوبة والحلاوة، وقال بعد النوم ليؤكد عذوبة هذا الريق فإن هذا هو الوقت الذي يتغير منه الفم ويفسد طعمه، والضجيع هو الزوج والثقر طيب الرائحة معطر، ووصف ريقها بعد نومها كأنه خمراً صرفاً أو كأنه عسل وهذا تأكيد للمعنى الأول.

وهذه الأوصاف التي ذكرها الشاعر من إشراقها وامتلائها وطيبها وعذوبة مذاقها استطاع أن يأتي بهذه الأوصاف المستمدة من وحي البيئة الصحراوية. ونجد أن القصيدة القديمة حملت معاني ودلالات مقتبسة من واقع البيئة فكل بيت من أبيات القصيدة يعبر عن موقف معين، وقد كان للأوزان والموسيقى والأنغام المصاحبة لها انعكاس لكثير من القيم والصور، ولن تكون الصورة واضحة إلا من خلال عكس هذه الصور والرموز والمشاعر في القصيدة محققة التوازن بين الفكر والإحساس وبين العاطفة والصورة، وبين الانفعال والصوت، فلن يتأتى ذلك إلا لمن عايش ذاك الواقع بفكر ثاقب وبصيرة نيرة. يقول عنترة بن شداد يصف ثعباناً في الصحراء بقوله:

له ربقة في عنقه من قميصه * وسائره عن متنه قد تقردا**
رقود صخبات كأن لسانه * إذا سمع الأجراس مكحال أمردا[(١)]**

وقد عرفوا مواضع مزاحفها وشكلها فصوروها تصويراً يتسق مع واقع الحياة البدوية في الصحراء.

وقال المنخل الهذلي يصور أثر مزاحف الحيات في الصحراء ويشبهه بآثار السياط على الأرض وهذا مقتبس من أثر مادي أمامه وهو اثر علي الارض والسوط وهو من احتياجات البدوي في الصحراء . يقول:

---

(١) المعاني الكبير في أبيات المعاني، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدنيوري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م ج٢، ص ٦٧٢.

كأن مزاحــف الحيــات فيهــا * قُبيــل الصــبح آثــار الســياط[١]**

وهذا الذي يجسد الموصوف ويقرب المعنى.

وقال آخر يرسم صورة ووصف الحيات وآثارها فوق رمال الصحراء، وهو تجسيد لصورة حية بصورة منتزعة من البيئة.

كــأن مزاحفهـــا أنســـع * جـــردن فـــرادى ومثنائهـــا[٢]**

ويصور النابغة صورة الحرب وعواقبها من قتل وتقطيع الجثث على الأرض وتجسيد ذلك بصورة فنية قوية. يصف هذه المشاهد وغالباً ما تكون الصحراء هي ساحتها بقوله :

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم * عصـــائب طيـــر تهتـــدي بعصـــائب**
جـــوانح قـــد أيقـــن أنّ قبيلـــه * إذا ما التقـــى الجمعـــان أول غالـــب**
لهن عليهم عـــادة قـــد عرفنهـــا * أذا عرض الخطـــي فـــوق الكواثـــب**
تراهن خلف القوم خزراً عيونها * جلوس الشيوخ في ثياب الارانـــب[٣]**

فقد صور الشاعر هذا المشهد ويقول أن الطير تحلق فوق جيشه لتأكل من جثث قتلاه، وهي طيور مدربة وضاربة فوصف صورتها وصفاً جيداً فقال تراهن خلف الجيش خزراً عيونها أى تنظر بمؤخرة العين وكأنها شيوخ جالسة في أكسية مرنبانية أي مصنوعة من جلد الأرنب، وهي مائلات جوانح مستعدة للانقضاض على جثث القتلى ومستيقنة أنه إذا ما التقى جيشه وجيش أعدائه فحسبت أول غالب من أول وهلة، وهذه الطيور تعرف بغريزتها أن الجيش خارج للقتال إذا رأت أن الرماح خرجت فوق الكواثب أي قربوس الفرس:

---

(١) شرح أشعار الهذليين، الجزء الثالث، ص ١٢٧٣.

(٢) الحيوان، الجاحظ، الجزء الرابع، ص ١٧٥. الأنسع: جمع نسع وهو سير يجعل زماماً للبعير وغيره.

(٣) ديوان النابغة الذبياني، ص ٥٧. حلق فوقهم: يعني الجوارح لأنها تأكل من يقتله هذا الجيش، تهتدي: تتخذها هدى . جوانح : مائلة في احد شقيها للوقوع – لهن : يعني الطير علي الرجال أى قد تعـودت الظفـر – الكواثب : الكاثبة من الفرس ما تقدم من قربوس السرج

وهناك صورة تجسيدية تصويرية تمثل لوحة فنية حسية ليوم ممطر في الصحراء. يقول امرؤ القيس :

وأضحى يسحُّ الماء عن كل فيقة * يكبُّ على الأذقــان دوح الكنهبــل**
كــأن مكــاكي الجــواء غُديـــة * صحن سلافاً من رحيــق مفلفــل**
ومرّ على القنـــان مـــن نفيانـــه * فأنزل منه العَصْم من كـــل موئـــل**
وتيماء لم يترك بها جذع نخلـــةٍ * ولا أُطمـــاً إلا مشــــيداً بجنــــدل**
كأن أبانــاً فـــي أفـــانين ودقـــه * كبير أنـــاسٍ فـــي بجـــادٍ مُزمـــل**
كأن ذرى رأس المجيمر غـــدوةً * من السيل والإغثاء فلكـــة مغـــزل**
كأن سباعاً فيه غرقـــى عشـــيةً * بأرجائه القصوى أنابيش عنصـــل**
وألقى بصحراء الغبـــيط بعاعـــهُ * نزول اليماني ذي العياب المحمّل**(١)

فقد صور الشاعر في هذه الأبيات مشاهداً ليوم ممطر وصوره بمهاراة ودقة وحبكة جيدة، فقد كان الغيث من الشدة والعنف بحيث استطاع أن يكتسح لتدفقه وقوته كل ما في طريقه ويقتلع أشجار الكنهبل اقتلاعاً ويلقيها على أذقانها فتخر صريعة، ثم تطاير وتناثر رشاش هذا الغيث فوق الجبال فأفزع الأوعال فهربت لمكان يأويها من المطر.

ولم تترك الأمطار في منطقة تيماء شجرة أو نخلة إلا وتحطمت، وإذا نظرت إلى ما فعل الغيث بالصحراء حتى أصبحت في شكل أشبه بسيد القوم الذي يجلس وتلفح بكساء مخطط، ثم ازدهرت الأرض فأصبحت أشبه ما يكون برقعة من الأرض قد نشر عليها التاجر اليماني بضاعته المشتملة على ألوان مختلفة من الثياب.

---

(١) ديوان أمرئ القيس، ص١٢١–١٢٢، الفيقه: الفترة ما بين الحلبتين – الكنهبل: شجر ضخم، المكاكي: نوع من الطير واحدته مكاءة وهو حسن التغريد في الصباح ، الجواء: موضع بنجد، مرّ على القنان: مـــر الســـحاب على جبل القنان في بلاد بني أسد ابن خزيمة ، من نفيانه: ما نفى من قطره، من كل موئل: من أماكنها الحصينة الشامخة، الأطم: الحصن المشيد، أبان: جبل، أفانين ودقه: ضروب مطرة ويروى (كأن ثبيراً في عرانين وبله)، الإغثاء: ما يحمله السيل من بقايا الأشياء، أبانين عنصل: أصول العنصل وهو البصل البري، صحراء الغبـــيط: الحزن من الأرض، ذي العياب: صاحب الأحمال المملوءة ثياباً .

وأصبحت الطيور كأنها قد شربت قدراً كبيراً من الخمور الجيدة فانطلقت ألسنتها بالصياح والتغريد ولاحت تشدو ثملة من حدة الشراب وقوته، وفي هذا البيت تصوير بديع وقدرة على بعث الصورة لتعانق السمع والبصر فكيف أن الطيور تغرد بعد أن صفا لها الجو، ولكن رغم فوائد الامطار وصورها الجميلة إلا أنها أغرقت السباع في السيول وتلطخت بالطين وهي على هذا الحال أشبه بأصول البصل حين تنزعه من الأرض ملطخاً بالطين وهذا يمثل صورة حسية تجسدية لتصوير البيئة البدوية الصحراوية وثورة من ثوراتها.

فقد كان للوصف الحسي في القصيدة أثر واضح في رونقها وبقائها بما فيها من وصف وحفظ لأماكنها التى ذكروها والحياة الاجتماعية، فقد ظل البدوي وفياً بقيم حياته وعاداته الموروثة من كرٍ وفرٍ ووصل وهجر وحب وكره وكرم وضيق وجدب وبخل وصفاء، ولم يكن يفر من واقعة فادي واجبه بكل صدق وموضوعية وواقعية في حياته البدوية في الصحراء مما أكسبها الخلود والبقاء، وقد تميزت القصيدة بطول النفس وروعة الصنعة وفنية التصوير فلم يرتكز الشاعر فقط على راحلة حبيبته ووصفها، أو على الناقة وإنما أتى لنا بذلك ليصور حياته الاجتماعية ولذلك ترتبط مع بعضها نفسياً وذاتياً بقدر ما ترتبط موضوعياً واجتماعياً وفكرياً وموسيقياً.

ومن الملاحظ أن الشعراء الذين عاشوا في القفار هم أدق وصفاً وأكثر تحديداً لمعايشتهم لبيئتهم وتتبعها، ويتجلى ذلك من خلال أشعارهم، وهكذا يسير الشعراء في تتبع هذه البيئة وما ينتابهم من انفعالات وأحاسيس مستخلصين تجاربهم في ما يقع أمامهم من صور محسوسة مستغلين مفردات البيئة الصحراوية من جماد وأحياء.

وقد ارتبط الفرس ارتباطاً وثيقاً بحياة البدوي فيمنح الحارث بن وعله الجرمي فرسه صفة من صفات الإنسان وهي مناداتها للفرسان لإظهار شجاعتهم ودعوتهم إلى الثبات والصمود في القتال يقول:

ولما سمعتُ الخيل تدعو مقاعساً * تطالعني من ثغرة النحر جـــائر**(١)

أما الناقة فهي إحدى مفردات بيئة الصحراء وأهميتها بالنسبة للبدوي فهي راحلته في الصحراء والبدوي مولع وخبير في الصحراء ومتاهاتها يعرف كيف يسير عبر تلك الفيافي دون أن يضل طريقه مهتدياً في ذلك بالنجوم واتجاهاتها قال تعالى: (وبالنجم هم يهتدون)(٢) سميره في ذلك مطيته وهي تطوي الفــلاة طيــا، ولذلك وصفوها وفصلوا فيها وتكاد لا تخلو قصيدة لشاعر في ذاك الزمان إلا وذكرها فيصورها الشاعر ويحيطها بأجود الأوصاف فهي من الإبل الكرام السريعات في السير فتظهر براعة طرفة التصويرية الحسية في رسم التعاريج والخطوط والآثار التي تبدو في أثناء سيره في الصحراء. يقول واصفاً طريقاً مسلوكاً في الصحراء القاحلة:

أمونٍ كــألواح الإران نســأتها * على لاحــب كأنــه ظهــر برجــد**

تباري عتاقاً ناجيــات واتبعــت * وظيفاً وظيفاً فوق مــورٍ معبّــد**(٣)

وتستمر القصيدة في وصف تلك الناقة التي بها فخذان كاملان مكتنزا اللحم كأنهما مصراعا باب قصر منيف مملس قال:

لها فخذان أكمل النحضّ فيهما * كأنهمــا بابــا مُنيــف ممــرد**(٤)

ثم يلتفت فيرى آثار السيور في ظهرها وجنبيها فتبادر إلى ذهنه معالم طريق وراء المياه على هضبة في أرض صلبة مرتفعة ثم يزيد في هذا الوصف ومعانيه فيجعل الآثار شديدة البياض وذلك لكثرة المرور عليها من آثار الاقدام وظهور آثار المشي. يقول:

---

(١) المفضليات، المفضل الضبي، الجزء الأول، ص١٦٤، الثغرة: في أعلى الصدر، الجائر: حرٌ يؤدي الجوف عند الجوع، مقاعس: أراد بني مقاعس وهم بنو الحارث بن عمرو، تطالعني: طلع وارتفع يعني فزِعاً.

(٢) سورة النحل الآية ١٦ .

(٣) ديوان طرفة بن العبد، ص ٤٦.

(٤) المصدر السابق، ص٤٧.

كأن علوب النسع فـي دأياتهـا * موارد من خلقاء في ظهـر قـردد**
تلاقـي وأحيانـاً تبـين كأنهـا * بنائق غرّ فـي قمـيص مقـدد**(١)

وكان للشعراء دور بارز في إبراز الصور الجمالية والبديعية للصحراء فوصفوا نجادها ووهادها ووديانها وحرّها وبردها ورمالها وجبالها وسمائها وأرضها وغيومها وأمطارها ونباتها وليلها الهادئ ونجومها الزواهر ورياحها بكل أنواعها وتفاصيلها ونسيمها العاطر.

بل وصفوا السيوف التي يستعملونها في حروبهم فرسموا صورها بدقة وعناية. قال عمرو بن كلثوم:

كـأن سـيوفنا فينـا وفـيهم * مخـاريق بأيـدي لاعبينـا**(٢)

والسيف من الاسلحة التي حرص عليها البدوي وما دونه عنده أسلحة ثانوية ولـذلك انتزع له الأوصاف التي عرفها من تجربتة فهو الصـارم – البـاتر – القـاطع – المضاء – الابيض – المهند – الحسام – وقد اتخذ شعراء الجاهليـة مـن وصـفهم للسيف صوراً متعددة وذلك دليل علي نبوغهم وقدرتهم علـي اسـتيعاب الصـورة وابرازها وبصورة البرق كقول حسان:

كانها فـي الاكـف اذا لمعـت * وميض برق يبـدو وينكشـف**(٣)

ونلحظ في وصف الشعراء لمفردات البيئة الصحراوية عدة أمور منها:

أولاً: الوقوف على الخصائص والصفات الجسدية والحسية للناقة بالإضافة إلى الخصائص النفسية فهي سريعة وقوية ونجيبة وكثيرة الحركة... إلخ.

ثانياً: الاهتمام بالناقة اهتماماً ملحوظاً والوقوف عندها وقفة طويلة لا تقل عن الوقفة عند المرأة والاهتمام بها فهي ذات حضور متميز تحظى بكل اهتمامه، وهي سفينته وحياته في الصحراء.

---

(١) ديوان طرفة بن العبد ، ص ٥٠.

(٢) شرح القصائد العشر، التبريزي، ص ٣١٠. – مخاريق : حديد يلعب بة الصبيان

(٣) ديوان حسان بن ثابت : ص ١٠٢.

ثالثاً: اتسمت الطبيعة الصحراوية بالتنوع الجمالي في مناخها. وبذا كان الوصف والتشبيه أهم ما يميز الأداء عند الشاعر فالناقة تشبه ألواح الأران والطريق كأنه كساء مخطط وهي كالنعامة، والفخذان كأنهما باب منيف، والجمجمة مثل السندان.

كل هذه التشبيهات متوالية بالتفاصيل وتفصح عن أدق الملامح أما النعوت فهي الدعامة الثابتة من دعامات الوصف فهي عوجاء ومرقال وأمون وجمالية.

رابعاً: أكثر الوصف قد ورد في معلقة امرئ القيس وهي أوصاف متراكمة فهي تقوم على الحركة وتدل عليها كقوله:

وتيماء لم يترك بها جذع نخلة * ولا أطمـــاً إلا مشـــيداً بجنـــدل**
كأن أباناً فــي أفــانين ودقــه * كبير أنــاس فــي بجــاد مزمــل**
كأن ذرى رأس المجيمر غدوة * من السيل والإغثاء فلكــة مغــزل**
وألقى بصحراء الغبيط بعاعــه * نزول اليماني ذي العياب المحمل**(١)

ونجد وصفهم للمعنويات والمدركات العقلية والخيالية ونجد الوصف الذاتي كقول المرقش الأكبر :

سرى ليلاً خيــال مــن سليمى * فأرقــني وأصحـــابي هجـــود**
فبت أديـــر أمـــري كل حال * وأرقـــب أهلهـــا وهـــم بعيـــد**(٢)

وعلى الرغم من وصفهم الحسي لكن نجد الوصف التجريدي وهو كثير ورد في الحكم التي يعج بها شعرهم وذلك في قول زهير :

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب * تمته ومن تخطي يعمر فيهرم**(٣)

وقوله :

---

(١)ديوان أمرئ القيس، ص ١٢٢.أبان: جبل، أفانين ودقه: ضروب مطره، البجاد: الكساء المخطط.
(٢) المفضليات: المفضل الضبي، ص١٠٤.
(٣) ديوان زهير، ص٤٩.

ومــن لا يصانــع في أمــور كثيرةٍ * يضرس بأنياب ويوطأ بمنســم**[١]

فهذه حقائق مجردة يقدمها الشاعر ماثلةً مرئية تسري إلى النفس دون معاناة لوضوحها ودقتها كما نجد الوصف المادي بكل أشكال وألوان ومحتويات الصحراء كقول علقمة في وصف الناقة :

فدعها وسل الهــم عنك بجسرةٍ * كهمــك فيــها بــالــرداف خبيب**

وتصبح عن غب السرى وكأنها * مولعةٌ تخشى القنيص شــيوب** [٢]

ويقول الأستاذ محمود محمد شاكر: (ولقد شغلني إعجاز القرآن كما شغل العقل الحديث ولكن شغلني أيضاً الشعر الجاهلي وشغلني أصحابه فأراني طول الاختبار والامتحان والمدارسة إلى هذا المذهب الذي ذهبت إليه حتى صار عندي دليلاً كافياً على صحته فأصحابه الذين ذهبوا وتبددت في الثرى أعيانهــم رأيتهم في هذا

الشعر أحياء يغدون ويروحون رأيت شبابهم ينزو به جهله وشيخهم تدلف به حكمته فسمعت غزل عشاقهم وأنين بكائهم وهم للفراق مزمعون كل رأيته وسمعته من خلال ألفاظ الشعر حتى سمعت في لفظ الشعر همس الهامس وبحة المستكين وزفرة الواجد)[٣]. وللشاعر الجاهلي أيضاً مقدرة على وصف النفس وأحوالها وخاصةً إذا كان مهموماً ثقيل النفس كقول النابغة في تعقب الليل حتى يخيل إليه أنه راعي هذه النجوم ويخاطب إبنته يقول :

كلــيني لهم يــا أميــمــة ناصــب * وليــلاً أقــاسيه بطــيئ الكــواكب**

تطاول حتى قلت ليس بمنقض * وليس الذي يرعى النجوم بآيب**[٤]

وهكذا نجد الوصف للطبيعة الصحراوية استغرق كماً كبيراً من الأبيات الشعرية التي تخللت القصائد في الصحراء.

---

(١) ديوان زهير، ص ٥٠.

(٢) ديوان علقمة الفحل ، ص ٣٤.

(٣) فن الوصف في الشعر الجاهلي : د. علي أحمد الخطيب ، الدار المصرية اللبنانية، ص٦٦.

(٤) ديوان النابغة الذبياني ، ص٥٤.

الفصل الثالث

مدلول الوقفة الطللية في الصحراء

مدلول الوقفة الطللية في الصحراء

شغلت الوقفة الطللية في الشعر الجاهلي النقاد والأدباء والباحثين فوقفوا أمام هذه الظاهرة متأملين ومحللين وأردنا الوقوف عندها باعتبارها أحد مفردات الصحراء التي أكثر من ذكرها الشعراء في قصائدهم . والطلل من بواعث قلق الشاعر في الصحراء وأحد مفرداتها فأتى معبراً عن الحب والشجن، وأحياناً يوحي بالألم والحسرة وأخرى بالرحيل والظعن، وتارة يتحدث عن الذكرى والتذكر في الماضي والحاضر ومشوب باللوعة والحسرة وفيه الرغبة والرهبة والوصف والإيحاء ويدلل على أنه مكمن تنفس الشاعر وتعبيره عن مكنوناتهم النفسية، فنجد كل أديب وباحث وناقد نظر إليه حسب فكره وما توحيه إليه حصيلته الفكرية فكان التباين في التفسير بل أخذ التفسير عدة مناحي واتجاهات (فبعضهم أخذه من الناحية الواقعية)[١]، (وبعضهم عن الجانب النفسي)[٢]، وتحدث آخرون من جوانب مختلفة فهي تتسع لكل هذه المناهج وغيرها.

والوقوف على الأطلال في الشعر الجاهلي جاء ثمرة للحياة المتنقلة في الصحراء، وأن النسيب وذكر النساء جئ به لتسلية قلب السامع، وأن الرحلة لبيان العناء والكد، فيستحق بذلك العطاء من الممدوح فالمقدمة الطللية تختلف من غرض لاخر في الشعر فتتزين المقدمة وتتلون بلون الغرض وحديثه عن صاحبته من الهجاء للمديح إلى الفخر، ففي المديح تأتي معبرة عن أشواق الشاعر وحنينه في زى ممدوحه، وفي الهجاء تأتي للوقوف عرضاً، ففيها مسحة تتلون بنفسيات الشاعر، فأما في الفخر فتأخذ الحدة والسرعة، وهكذا نجدها في غيرها من اغراض الشعر.

والطلل باعث من بواعث الشاعر الجاهلي فيحمل ذكرى الحاضر والماضي والرغبة والرهبة ومعاني الحياة والبقاء والزوال والفناء، وقد تظهر الوقفة الطللية

---

(١) العصر الجاهلي، شوقي ضيف ، ص ٢١٢.

(٢)الغزل في العصر الجاهلي، د.أحمد الحوفي، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٥٨م، ص ٢٧١.

نزعة فردية ومشكلة خاصة ورؤية ذاتية، فقد وردت في أشعار الجاهليين وبكوها أحر البكاء فوقفوا على سهولها ووديانها وجبالها ورمالها وأشجارها وحيواناتها التي تعيش في أماكن وتأتي عليها الأمطار، وتزيل أمنها، وصور خرس الديار واندثارها وطموسها وشكوا من غدر الزمان وأحسوا بالضياع والعذاب والقسوة، وصوروا حزنهم على الديار والوطن والصبا وذكريات الحب والهيام وبثوا آلامهم وأشواقهم وتخيلاتهم وأمانيهم عن تلك الحياة الدارسة فتكاد تكون الوقفة الطللية في العصر الجاهلي بمثابة كتابة رسم جغرافيا وتاريخ للمنطقة عبرت عنها القصيدة العربية فيسيح الشاعر في ربوع الصحراء فيرى هذه المناظر وتلك الصور.

فأمرؤ القيس وصف مظاهر الصحراء في مقدمة معلقته قائلاً:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنـــزل * بسقط اللوى بين الـــدخول فحومـــل**

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها * لما نسجتها مـــن جنـــوب وشـــمأل**

ترى بعر الآرام فـــي عرصـــاتها * وقيعانهـــا كأنـــه حـــب فلفـــل**

كأني غداة البـــين يـــوم تحملـــوا * لدى سمرات الحـــي نـــاقف حنظـــل**

وقوفاً بها صحبي علـــى مطـــيهم * يقولـــون لا تهلـــك أســـىً وتجمـــل**

وإن شـــفائي عبـــرة مهراقـــة * وهل عند رسم دارس من معول؟** (١)

ويقول زهير بن أبي سلمى في معلقته سالكاً ذا ت النهج في ذكر الأطلال والوقوف عليها:

أمن أم أوفـــى دمنـــة لـــم تكلـــم * بحومانـــــة الـــــدراج فـــــالمتثلم**

ديارلهـــــا بـــــالرقمتين كأنهـــــا * مراجع وشم في نواشـــر معصـــم**

بها العين والآرائم يمشين خلفـــةً * وأطلاؤها ينهضن من كـــل مجـــثم**

وقفت بها من بعد عشرين حجة * فلأياً عرفت الـــدار بعـــد تـــوهمي**

أثافي سفعاً في معـــرّس مرجّـــل * ونؤياً كحـــوض الجـــد لـــم يتـــثلم**

فلما عرفت الدار قلـــت لربعهـــا * ألا أنعم صباحاً أيها الربع وأســـلم**

تبصّر خليلي هل ترى من ظعائن * تحملن بالعلياء من فوق جرثم؟**(١)

---

(١) ديوان أمرئ القيس، ص١١٠.

وللبيد قصيدة يذكر فيها وصفه للأطلال ومن خلالها يصف كل ما حولها. يقول:

ألم تلمم علي الدِّمن الخـــوالي * لســــلمى بالمــــذانب فالقُفـــــال**
فجنبني صـــوارٍ فنعـــاف قـــوٍ * خوالـــد مـــا تحـــدَّث بـــالزوال**
تحمــــل أهلهـــا إلا عـــــراراً * وعزفـــاً بعـــد إحيـــاء حـــلال[٢]**

وهكذا نجد هناك ملامح مشتركة في وصف الطلل من ناحية التعبير، والمعنى إذ يصدر من وحدة متجانسة فهي وحدة تفكير البدوي في الصحراء وعن القيمة الفنية لأنها تصدر من ماعون واحد، وهو مكون البيئة الصحراوية.

وقد ذكر ابن قتيبة في وصف الطلل أنه تعبير عن الأسى الذاتي عند آثار حبيبة حقيقية راحلة[٣]. وعلل شوقي ضيف بكاء الديار القديمة بأنه بكاء يفيض بالحنين الرائع إلى ذكريات شبابهم الأولى[٤].

ونلحظ أن الشعراء الجاهليين على الرغم من تصويرهم للطلل فكل شاعر منهم يلون مقدمة قصيدته بفكر ولون خاص وبكاء ودموع وبموسيقى ويأس وحزن وغرض تمليه عليه الحياة الداخلية للشاعر، فحياة البدوي كانت معظمها تتسم بعدم الاستقرار، فكان الشعور بالحزن فالديار تعمر ثم تقفر والإيحاء بالفناء والأحباب يظعنون فيتركون له الحسرة وفقد أحبابه وجيرانه.

وفي مقدمة قصيدة النابغة التي يرد فيها على توعد زرعة له بالهجاء بقوله:

طـــال الثواء على رسوم ديار * قفـــر أسائلهـــا ومـــا استخبـــاري**
دار تعفـــت لا أنيـــس بجوها * إلا بقـــــايـــا دمنـــــــــة وأواري**

---

(١) ديوان زهير بن أبي سلمى ، ص ٣٣-٣٦.

(٢) ديوان لبيد بن أبي ربيعة، ص ١٠٣. تلمم: تقف، الدمن: الآثار، الخوالي: التي خلت أهلهـــا، المـــذانب – القفال: أسماء مواضع، نعاف: جمع نعف وهو رأس الوادي، صوار: اسم موضع، خوالد: جمع خالد وهـــو الناحية، قوٍ: اسم موضع، عرار: صوت ذكر النعام، عزفاً: انهيار الرمال وما تحدثه مـــن دوي، الحـــلال: المقيمون.

(٣)الشعر والشعراء، ابن قتيبة، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعارف بمصر، ١٩٦٦م، ص٧٥.

(٤)العصر الجاهلي، شوقي ضيف ، ص٢١٢.

قفت عليها فاضمحـــل طلولها * هوج الرياح وديمـــة الأمطـــار**(١)

ونلحظ هنا هذه المسحة الحزينة التي تصدرت هذه القصيدة. فقد حددت الصحراء مسار الشاعر في تصويره وتفكيره وطرق حياته، فأتت مقدمة القصيدة تعبر عن ثلاث اتجاهات رئيسة هي الخروج للصحراء للرحلة والصيد ثم وصف سرعة فرسه وتشبيهه بالثور في القوة والسرعة، أو الالتقاء بعشيرته وأهله في مجالس الأنس والسمر والشراب، أو الشعر للمرأة فيأتي الغزل وشعر الحب.

ويرى الدكتور أحمد الحوفي أن الحبيبة هي المثير الطبيعي لعاطفة الحب والأطلال المثير المقارن أو الصناعي، وأن الحبيبة بعيدة عن الشاعر فديارها حلّت محلها في إثارة عاطفتها(٢). ولكن هناك ترابط وجداني لدى الشاعر بين الحبيبة وديارها وهي جزء من ذكرياته وحياته الماضية، فكان مبعث تجدد هذه الديار من خلال الرموز الموجودة فيها كالسيول والرياح وحرارة الشمس أو الكتابة الباقية على الحجر أو الوشم أو وجود الظباء التي انتشرت في مكان الطلل فهي تصور قحل الطبيعة، ورحيل المرأة والحب والحنين واندثار المنازل للترحال المستمر، وإذا كان من ظاهر القصيدة التي تجمع في ثناياها أبيات طللية هي معاني الدموع والبكاء والرحيل والرياح والاثافي... إلخ، لكن في حقيقته معنى آخر وهو صورة من عمل موازنة نفسية بينه وبين البيئة الصحراوية وهي أيضاً تسلية لهم ثم الخوض في غرض القصيدة.

وعليه فإن هذه المقدمات الرئيسة الثلاث التي اتسمت بها القصيدة العربية تأتي في النسيب او الغزل كما في مقدمة الأعشى:

ودع هريرة أن الركب مرتحـــل * وهل تطيق وداعاً أيهـــا الرجـــل**(٣)

وإما خمرية يفزع فيها الشاعر إلى حديث الخمر والشراب على نحو مقدمة معلقة عمرو بن كلثوم:

ألا هبي بصـــحنك فأصـــبحينا * ولا تبقـــى خمـــور الأنـــدرينا**(١)

---

(١) ديوان النابغة الذبياني ، ص٩٦.

(٢) الغزل في الشعر الجاهلي، د. أحمد الحوفي ، ص ٢٧١.

(٣) ديوان الأعشى، ص ١٩٦.

وإما مقدمات تتحدث عن الفروسية وما يدور بينه وبين صاحبته من حديث حولها، كما نرى عند عروة بن الورد أو عنترة، وهذه الثلاث هي التي تملأ فراغ الشاعر الجاهلي في الصحراء وتخفف من عناء حياته فيها.

وكان تحديد مكان الطلل أو الرحل في الصحراء مهم لاتساعها ومعرفتهم بتلك الأماكن، فامرؤ القيس يذكر مثلاً الدخول فحومل، كما أن زهيراً ذكر الدراج والمتثلم، أما لبيد فقد ذكر منى وجبل الريان، وأما النابغة فقد ابتهل معلقته بحبيبته في العلياء والسند، أما الحارث بن حلزة فيؤكد طلل الحبس، وقد يذكرون مع الأطلال بعض المتعلقات بالطلل فيذكر توضح والمقراة والجنوب والشمال. يقول امرؤ القيس مثلاً :

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها * لما نسجتها من جنوب وشـمأل**(٢)

وقد يقف الشاعر على ثلاثة محاور في الوقوف على الأطلال في البيت الواحد كقوله أيضاً:

قفا نبك من ذكري حبيب ومنزل * بسقط اللوى بين الدخول فحومل**(٣)

فاستهل الشاعر بنفسه ورفيقيه والحبيبة والمنزل. ولعلهم أخذوا تعابير الوقوف على الأطلال من بعضهم فأصبح الوقوف والبكاء معاً يعبران عن هذا الموقف يذكر امرؤ القيس في دلالات الوقوف

قفا نبك – نبك الديار – عفت الديار – وقوفاً بها صحبي.

وعند زهير :

أمـن ام اوفي دمنة لـم تكلم* بحومانة الدراج فالمتثلم** (٤)
وقفت بها بعد عشرين حجة * فلأيا عرفت الدار بعد توهم** (٥)

---

(١) شرح القصائد العشر التبريزي، ص ٢٨٤.

(٢) ديوان أمرئ القيس، ص ١١٠.

(٣) المصدر السابق، ص ١١٠.

(٤) ديوان زهير بن أبى سلمى، ص ٣٣.

(٥) الصدر السابق، ص ٣٥. لأيا: بعد جهد.

ديار لهـــا بالرقمتين كأنها * مراجع وشم في نواشر معصم** [١]

ويذكر لبيد:- فوقفت أسألها وكيف سؤالنا*** صماً خوالد ما يبين كلامها[٢]

عفت الديار محلها فمقامها *** بمنىً تأبد غولها فرجامها[٣]

ويذكر عنترة: - فوقفت فيها ناقتي وكأنها *** فدن لأقضي حاجة المتلوم[٤]

يا دار عبلة بالجواء تكلمي*** وعمي صباحاً دار عبلة واسلمي[٥]

وتلك أمثلة للعديد من الابيات التي تحمل هذه المعاني ، فالمقدمة الطللية ثمرة من ثمرات الحياة المتنقلة التي كان يحياها الشاعر في الصحراء وهي نابعة من حبه لوطنه ودهره.

ويذكر ابن رشيق قول ابن قتيبة من ذكر الطلل أن العربي عندما وقف على الأطلال مخاطباً الربع كان مسايراً لتلك البيئة الصحراوية وحياتها، "وكانوا قديماً أصحاب خيام ينتقلون من موضع إلى آخر فلذلك أول ما تبدأ أشعارهم بذكر الديار فتلك ديارهم"[٦]. ولكن عندما تحولت البيئة العربية للحضرية كما في العصر العباسي تحولت العاطفة إلى رموز أخرى ولذلك نجد أبانواس يتهكم على من يقف عليها، وكذلك بشار بن برد[٩] أيضاً يتهكم على من يقف عليها ويقول:

كيف يبكي لمحبسه في طلـــول * من سيقضي لحبس يوم طويـــل**[١]

أو قول أبي نواس:

قل لمن يبكي على رسم درس * واقفاً ماضر لـــو كـــان جلـــس**[٢]

---

(١) المصدر السابق، ص ٣٤.

(٢) ديوان لبيد ، ص١٦٥. الصم : الصخور، الخوالد: البواقي.

(٣) المصدر السابق، ص ١٦٣.

(٤) ديوان عنترة بن شداد، ص ١١٨.فدن: القصر شبه به الناقة في كمال خلقها ، المتلوم: المتكمن يريد نفسه

(٥) المصدر السابق، ص ١١٧.

(٦) العمدة، ابن رشيق، الجزء الأول، ص ٢٢٦.

(٩) بشار : هو بشار بن برد أبو معاذ شاعر المولدين على الإطلاق أصله من طخارستان غربي نهر جيحون ونسبته إلى إمرأة عقيلية قيل أنها أعتقته من الرق وكان ضريراً نشأ بالبصرة وقدم بغداد أدرك الدولتين الاموية والعباسية شعره من الطبقة الأولى جمع بعضه بديوان اتهم بالزندقة فمات ضرباً بالسياط ودفن بالبصرة سنة ١٦٧هجرية ــ أنظر الأعلام للزركلي ج٢ ص٥٢.

(١) ديوان بشار بن برد، شرح حسين حمودي دار الجيل بيروت الطبعة الأولى ١٩٩٦ ، ج١ ص ٤٨٤. المحبس: الحبس، الطلول: جمع طلل، اليوم الطويل: الحشر – أي أنه ينكر على نفسه أن تسعى إلى اللهو والتصابي الذي منه بكاء الأطلال ما دام أدرك أن يوم الحشر آت.

(٢) ديوان أبي نواس، دار صادر، بيروت، ص ٣٦٦.

الفصل الرابع

الموقف النفسي للشاعر الجاهلي

للشعراء مواقف في أشعارهم ومعاني تأتي معبرة عما يجيش في خواطرهم ونفوسهم وهي انفعالات نتاج للواقع الذي يعيشه أو للمؤثرات البيئية التي تحيط به فيأتي حديث النفس معبراً عن تلك الانفعالات من خلال القصيدة ونجد أن الصحراء كان لها ذلك الأثر في نفوس الشعراء تجلت من خلال قصائدهم إذ لم يختصر أثرها على الحياة الاجتماعية أو الأدبية أو الاقتصادية أو اكتساب البطولة والشجاعة فحسب بل امتد أثرها واضحاً في قصائدهم الشعرية التي تعبر عن كل موقف نفسي يسيطر على الشاعر .

يقول لبيد بن أبي ربيعة:

أرى النفس لجت في رجاء مكذب * وقد جربت لو تقتدي بـــالمجرب**(١)

ويقول أيضاً:

وأكـــذب الـــنفس إذا حـــدّثتها * إن صدق النفس يزري بالأمـــل**(٢)

ونلحظ كيف أن امرئ القيس تعود إلى نفسه الحزينة ذكريات يوم الرحيل يوم أن رحلت محبوبته عن هذا المكان وقد وقف بين شجيرات السمر الشائكة التي قاست الحياة وصمدت فيزرف الدموع على فراقها فيحاول صاحباه تخفيف ألم الحزن ويكفكفا دموعه التي تسيل وعبراته، ويطلبان منه الصبر وأن بكاءه على هذه الأطلال لا يجدي يقول:

كأني غداة البين يوم تحملـــوا * لدى سمرات الحي نـــاقف حنظـــل**
وقوفاً بها صحبي على مطيهم * يقولون لا تهلـــك أســـىً وتجمـــل**

---

(١) ديوان لبيد بن أبي ربيعة، ص ٢٦ ،في رجاء مكذب : يقول يرجو البقاء وطول السلامة ويكذبها الموت .

(٢) المصدر السابق، ص ١٤١ –يقول حدث نفسك بالظفر وبلوغ الأمل لتنشطها علـــى الإقـــدام ولا تحـــدثها بالخيبة فتثبطها أو منّها بالعيش الطويل لتجد في الطلب ولا تقل لها لعلك تموتين اليوم أوغداً .

وإن شـــفائي عبـــرة مهراقـــة * وهل عند رسم دارس من معول[(١)]**

ولكن ذكريات الماضي البعيدة وما انطوى عليه من حب ممتع لا يفارقه حتى تعود صورة الحبيبة مرة أخرى فيدخل صراع نفسي آخر وتنتصر العاطفة على العقل فيفزع مرة أخرى إلى حزنه ودموعه يزرفها بحرارة كقوله:

كدأبك مـــن أم الحـــويرث قبلهـــا * وجارتهـــا أم الربــــاب بمأســـــل**

إذا قامتا تضوع المســك منهمـــا * نسيم الصبا جـــاءت بريـــا القرنفـــل**

ففاضت دموع العين مني صبابة * على النحر حتى بلَّ دمعي محملي[(٢)]**

ونجد عنترة بن شداد تنازعته كثير من العواصف بفعل الحب فتارة يناجي الخيال ومرة محبوبته وأخرى يزجر حساده، فكانت صلته بالقبيلة وبين متطلباته في خياله أدركت موضع عبلة في نفسه فأتت كثير من المقابلات في قصائده بين ما يريده ويتمناه وما هو موجود، فنجده يقابل بين الأسود والثعالب، والأحباب والأعداء، والمكان الأليف والمكان الآبد كقوله:

ينادونني في السلم يا بن زبيبـــة * وعند صدام الخيل يا بـــن الأكايـــب**

ولولا الهوى ما ذلّ مثلي لمثلهم * ولا خضعت أســـد الفـــلا للثعالـــب**

وليت خيالاً منك يا عبـــل طارقـــاً * يرى فيض جفني بالدموع السواكب**

مقامك في جو الســـماء مكانـــه * وباعي قصير عن نوال الكواكب[(٣)]**

فمن هنا نجد أن أي شاعر يتأثر بكل موقف يهز مشاعره فشعراء البادية يعبرون عنه تعبيراً مربوطاً ببيئتهم فيثورون ولكنهم لا يلجأون إلى المبالغة أو التهويل من الصورة أو الخروج عن حد الاتزان سواء كان في المدح أو الهجاء أو الرثاء أو غير ذلك من أغراض الشعر الأخرى.

---

(١) ديون امرئ القيس ص ١١١.

(٢)المصدر السابق، ، ص ١١١-١١٢.

(٣) ديوان عنترة بن شداد، ص٢٢- زبيبة : امة حبشية - نداؤهم له بامة تهجين له وتعيير - ويريـــد بـــالهوى هواه بعبلة - فيض الجفن : كثرة ما يسيل منه من الدموع - السواكب : المنصبه

يقول النابغة في مدح النعمان بن الحارث الاصغر الغساني وهو موقف يحتاج فيه إلى المبالغة ولكنه أتى بأسلوب متزن فالموقف له ربط بين الواقع والبيئة بكل مكوناتها الحياتية فصار يقول:

لا يخفض الرّز عن أرضٍ ألمّ بهـــا * ولا يضل على مصباحه الســـاري**

قد عيرنني بنـــو ذبيـــان خشـــيته * وهل عليَّ بأن أخشاه من عـــار[١]**

وأحياناً يستعيض الشاعر عن نفثاته ومأساته بتكرار الألفاظ في القصيدة ويعبر عما يختلج في نفسه من شدة الغضب ويذكر المهلهل أخاه كليب فيصف الأيام التي دارت على بكر فقال:

على أن ليس عدلاً من كليـــب * إذا رجـــت العضـــاة مـــن الـــدبور**

على أن ليس عدلاً من كليـــب * إذا طُـــرد اليتـــيم مـــن الجـــذور**

على أن ليس عدلاً من كليـــب * إذا ما ضـــيم جيـــران المجيـــر[٢]**

وقد كرر الشاعر هذه الألفاظ المملوءة بالقوة والإحساس النفسي بالمأساة تسع مرات في القصيدة (علي ان ليس عدلاً من كليب) فهذا نتاج الحرب في الصحراء.
وعندما قتل المهلهل بجيراً ابن أخ الحارث بن همام وكان رسول مودة وسلام ثار الحارث بن همام وأخذ يتوعد المهلهل ودعا بفرسه وكانت تسمى "النعامة" فهلب ذنبها ثم قال:

يا بني تغلب خذوا الحـــذر إنـــا * قـــد شـــربنا بكـــأس مـــوت زلال**

يا بنـــي تغلـــب قتلـــتم قتـــيلاً * ما سمعنا بمثلـــه فـــي الخـــوالي**

قرّبـــا مـــربط النعامـــة منـــى * ليس قولي يُـــراد لكـــن فعـــالي[٣]**

---

(١) ديوان النابغة الذبياني، ص٨٣، الرز: هو الصوت، المصباح ههنا: النيران، الساري: الماشي بالليل.

(٢) أيام العرب البجاوي، ج١، ص ١٥٧.

(٣) المرجع السابق، ص ١٦١. النعامة: فرس الحارث، أصل النعاج: الجمل.

وأخذ الشاعر يكرر في هذا الشطر من البيت "قربا مربط النعامة مني" حتى بلغ سبع عشرة مرة، وهذا يمثل دلالة واضحة على حالة الشاعر النفسية والتي يتنفس من خلالها بكل صدق ورؤية فيتفاعل مع بيئته من خلال تكرار الألفاظ التي تدور في القصيدة.

أما النابغة فلم يخف حيرته واضطراب نفسه في حبه لمحبوبته نعمى فهو ينادي صاحبه حارث أن يساعده ويتثبت معه من هذا الضوء المبهر الظاهر الوضئ الذي رآه بعيداً في الأفق لمحة من ضوء برق أو وجه نعمى أم لهب نار بقيت تحترق وتتقد ويتقد فؤاده، كما تحترق أنفاسه، وذكر أساليب الاستفهام ودلالتها على ترائي الأطياف، وأنه عاد من غيبوبته وتثبت معه صاحبه وكيف أنه حذف حرف النداء وطرح الاسم حار بدلاً من حارث ولم تمهله نفسه حتى يدعو صاحبه دعاءً واضحاً وقد خذلته قدرته المضطربة ثم تجمع له فكره وقال أنه وجه نعم فالمنازل المتفرقة ألهبت فيه هذه المشاعر يقول:

أقول والنجم قد مالــت أواخــره * إلى المغيــب تبــين نظــرة حــار**

ألمحة من سنا برق رأى بصري؟ * أم وجه نعم بدا لي أم ســنا نــار؟**

بل وجه نعم بدا والليــل معتكــر * فلاح من بين أبــواب وأســتار**(١)

فللبيئة أثرها الجوهري في خلق الشخصية وتنمية الملكة لدى الشعراء وصقل الوجدان وطبع الشعور بطابع الرقة أو الغلظة فهو انعكاس لما يدور في خلد الشاعر، فالإنسان وليد بيئته وطبيعته والمكون النفسي له أثره في الطبع، فالبدوي غالباً لا يرحل وحده ولا يسير وحده ولا يقطن في الصحراء وحده، فكان هذا التماسك لهذه المجموعات المكونة للعشيرة طلباً للأمن والعيش الجماعي ولذلك أتت معظم أشعارهم معبرة عن مواقف نفسية ووجدانية وأخلاقية وبطولية تأخذ صورة القوة طبعاً ،ولذلك نجد أن الشعراء غالباً ما يختمون قصائدهم بلوحة حزينة وكأنها توهن وهناً معنوي بعد رحلة ذهنية طويلة يصف فيها الشاعر كل ما يمر به بنبرة

---

(١) ديوان النابغة الذبياني، ص ٢٣٥.

فيها حزن ونفاد لقوته المعنوية والفكرية في آخر القصيدة وهذا بالطبع عامل نفسي يستقى من الحالة العامة لحياة الصحراء.

ومقدمات القصائد التي يناجي فيها الطلل والحجر ويبكيه كثيراً فيطفي في القصيدة شيئاً من لواعج شوقه وحنينه، ولكن هيهات أن تتحدث الآثار أو ينطق الحجر وهيهات أن تجد النفس شفاءها وجوابها في سؤال الحجر، وعند تصوير الشاعر للفراق يقوم بتصوير كل معاني اللحظة التفصيلية فتأتي قبلها صورة الماضي التليد فيصور صورة الرجل والهوادج، ويصف شكلها وحالها وما ينبعث من عيونهن من عطف ورقة وحزن وما يفيض في عيونهن من حنان ورقة وحزن. يقول لبيد معبراً عن ذلك بقوله:

شاقتك ظعن الحي يوم تحملوا * فتكنسوا قطناً تصر خيامها**

من كل محفوف يظل عصيه * زوج عليه كلَّة وقرّامها**

زجلاً كأن نعاج توضح فوقها * وظباء وجرة عطفاً آرامها**(١)

فهذه المشاهد الرقيقة التي يصورها الشاعر تأتي معبرة عن موقفه النفسي في تلك البقعة الصحراوية الممتدة والتي عفى عليها الزمن فتأتي مشاهد الرحيل والظعن أمام مخيلته ويحدق في هذا المشهد إلى أن يبتعد فيصور الانفعالات الصادقة ويصف شعوره وأحاسيسه في تلك اللحظة، فصور لنا مشاهد الظعن حتى غاب عن عينيه وقد اختلط السراب في تلك القفر الممتدة حتى صارت من أجزاء الوادي البعيد فلم يعد يميز المشاهدين الظعائن ومتعلقات الوادي وأشجاره. يقول"

حفزت وزايلها السراب كأنها * أجزاع بيشة اثلها ورضامها**(٢)

وإذا حاولنا ربط الموقف النفسي العام للشعراء في تلك البيئة من خلال ما ورد في أشعارهم نلمس ذلك الانفعال السائد الذي غمر معظم قصائدهم وسيطر على كلماتها

---

(١) ديوان لبيد، ص ١٦٦. شاقتك: دعتك إلى الشوق إليها، تكنسوا: دخلوا في الهوادح، قطن: الجماعة، تصر خيامها: تهز الخشب فتصد، المحفوف: الهودج قد حف بالثياب، عصية: خشبة، الزوج، النمط الواحد، الكلة: الستر الرقيق، القرام: ما يغطى به الشئ، زجل: جماعات، توضح ووجرة: موضعان.

(٢) الصدر السابق، ص١٦٦.

ومعانيها وصورها فكل شئ يرمز إلى الإحساس بين الوجود والفناء فيصور الفناء والعدم وهما رمز الديار الدارسة بعد أن سكنتها الوحوش، فالصورة الأخيرة تعبر عن العدم والإصرار على مجابهة الواقع الصعب بشئ من العزيمة والقوة.

واستطاع الشاعر أن يثبت قدرته على أن يجعل نفسه وتصوراته وتخيلاته خلف الشئ الموصوف دون أن يتحدث عن نفسه مباشرة، والتعبير المباشر عن تلك المخاوف من خلال جعل معادل موضوعي لهذه النفس، وكثيراً ما كانت في وصف الناقة التي يتم تشبيهها بالثور الوحشي وما يجده من معاناة، وهذه الصورة التي ورد ذكرها في المباحث السابقة.

(ونجد أن كل تلك العوادي التي تصيب الآثار والأطلال لها في النفس والفكر والشعور ولها في الخيال والتصور معانٍ ذات رموز ودلالات تجتمع بين الدهشة والشجن والاعتبار، إنها في ذاتها شاهد على الزمان من حيث صروفه في كل كائن حي وغير حي حيث تذهب الجدة وتخور الفتوة[١] .

ولذلك نجد أن الصحراء صبغت المجتمع البدوي بصبغة نفسية تميل إلى القوة والصرامة والخشونة ولمسة الحزن والبكاء أحياناً فيعجب الشاعر قومه ويزهو بهم ولا يكون منهم إلا الرجل القوي الذي يصبر على الشدائد ومنازلة الأعداء. يقول أحد شعراء هذيل:

أناسٌ تربينــا الحــروب كأننــا * جذالٌ حِكاكٍ لوّحتهــا الــدواحي**[٢]

ولذلك نجد أنه كلما كان الأثر أكثر اندراساً كان التأثير أعمق وأقوى في نفس الشاعر وأبعث في استثارة عواطفه ووجدانه.

---

(١) الأطلال في الشعر العربي- دراسة جمالية، محمد عبد الواحد حجازي، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م، الناشــر دار الوفاء للطباعة والنشر، ص١٨.

(٢) ديوان الهذليين لأبي ذؤيب الهذلي، ص ٤٧ جذال: واحدها جذل وهي خشبة توضع للجربى تحتك بها، لوحتها: أهمتها، الدواحي: يريد الابل .

الباب الرابع

مظاهر الصحراء في الخصائص الفنية
للشعر الجاهلي

الفصل الأول

البناء الفني للقصيدة الجاهلية في الصحراء

اللغة العربية لغة شعرية غنائية حافلة بمفرداتها تسعف المعبّر وتواتيه بالقافية وهي دقيقة في دلالتها غنية بأساليبها ومجازاتها ثرية بمفرداتها ومشتقاتها وفي كلماتها رنين وجرس يلائم الموسيقى والشعر.

ولما غلب على الصحراء طابع الجفاف والحرارة والحروب والثأر واتساعها أدى إلى تمحور صفات الإنسان واكتسب عادات وتقاليد مستقاة من نفس وروح الصحراء، ولذلك كان لابد من فرض بعض الصفات من الواقع مثل المروءة، القوة، الشهامة، الكرم، العفة، المروءة، النجدة، الفضيلة التي تضمنتها ثنايا القصيدة وعبرت عنها ضمن موضوعاتها المتعددة التي حوتها.

وشكل القصيدة وبناؤها الفني الذي يبدأ بالمقدمة ووحدة البيت ثم تعدد الموضوعات التي لا رابط بينها ينتقل فيها الشاعر من موضوع إلى آخر ليصل إلى غرضه النهائي وهذا البناء يتمثل في الآتي :-

المطلع – يصف فيه الديار، الخمر، الرحيل، الوقوف على الأطلال .. الخ.

وصف المطية ، الناقة ، الفرس ويشبههما ببعض الحيوانات أو الطيور في البيئة الصحراوية .

وصف المرأة وظعنها إلى أن يصل إلى خاتمة القصيدة أي الغرض الأساس الذي نظمت من أجله القصيدة .

فقد انطبعت روح ونفسية الشاعر على القوة وروح الحرب حتى في الغزل الذي يغلب عليه روح الرقة والرزانة. يقول امرؤ القيس:

وبيضة خدرٍ لا يـــرام خباؤهـــا * تمتعت من لهو بها غيـــر معجـــل**

تجاوزت أحراساً إليها ومعشراً * عليّ حراصاً لو يسرون مقتلـــي**[(١)]

---

(١) ديوان أمرئ القيس، ص ١١٤.

ولو تأملنا هذه القصيدة في صياغتها ومعانيها ودلالتها وما يسوغه الشاعر بينه وبين صاحبته من براعة وتصوير والناس يسمرون من حوله فلا يخش ما يقع عليه ومحاولة صاحبته تثبيته ولكنه يزيد إصراراً، فلا نجد فرقاً بين هذه الأبيات وما يذكره طرفة في تهديده ووعيده وفخره في قوله:

أنا الرجل الضرب الذي تعرفونه * خشاش كرأس الحية المتوقد**(١)

ونلحظ تشابه صورة امرئ القيس في غزله إلى حد كبير صورة طرفة بفخره وشجاعته وهما صورتان مليئتان بشرف الدفاع عن النفس.

وهنالك صورة أخرى لعنترة بن شداد يعرض مواقفه البطولية عند الوغى كقوله مخاطباً محبوبته عبلة:

يخبرك من شهد الوقيعة أنني * أغشى الوغى وأعف عند المغنم**

جادت يداي له بعاجل طعنة * بمثقف صدق الكعوب مقوم**

فشككت بالرمح الأصم ثيابه * ليس الكريم على القنا بمحرم**(٢)

وبمقارنة هذه الصور الثلاث نجدها متشابهة في بعض العناصر التي تدل على القوة وهي أثر للصحراء في مفرداتها ووحيها ومعانيها التي يصوغها الشاعر، فالقوة مطلوبة في ذلك المجتمع ولذا فهي انطبعت في نفس البدوي.

ونجد القصيدة العربية الجاهلية تسري مع روح الحياة البدوية فحياتهم في أغلبها حياة بدوية تتجاذبها الطنب من كل أطرافها يصرف دهره على ظهور النجائب، وإقامتهم في الديار متقطعة فالبدوي يسكن شعراً مقسوماً إلى مصراعين متوازيين يقابله بيت شعر متساوي الشطرين.

وقد وردت ألفاظ عديدة تدل على التفاؤل والنظرة الإيجابية في الصحراء، وهذا يدل على مدى التفاؤل الذي اتصف به البدوي رغم طبيعة الصحراء والحياة الاجتماعية التي ذكرناها، فنجد ألفاظ الحسن والملاحة والأناقة والزخرف، الوشم،

---

(١) ديوان طرفة بن العبد، ص ٥٦.

(٢) ديوان عنترة بن شداد، ص ١٢٣-١٢٤.

الورد، الروضة، فأتت متناغمة مع تداخل موضوعات القصيدة وبناؤها الفني وتركيب ألفاظها ووضوح معانيها وذلك كقول الأعشى:

إلى هدف فيه ارتفاع ترى لـــه * من الحسن ظلاً فوق خلق مكمل**(١)

وكقول أبي ذوئب الهذلي:

بذلت لهن القول أنـــك واجـــد * لما شئت من حلو الكلام ملـــيح**(٢)

ويقول زهير بن أبي سلمى:

وفيهن ملهى للطيــف ومنظــر * أنيق لعــين النــاظر المتوســم**(٣)

ويقول أبو ذؤيب الهذلي أيضاً:

كأنها كاعب حســناء زخرفهــا * حلي وأترفهــا طعــم وإصـــلاح**(٤)

يقول طرفة بن العبد:

لخولة أطـــلال ببرقـــة ثهمـــد * تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليـــد**(٥)

ويقول الأعشى:

إذا تقوم يضوع المسك أصورةً * والزنبق الورد من أردانها شمل**(٦)

يقول عنترة بن شداد:

أو روضة أنفاً تضـــمن نبتهـــا * غيث قليل الدمن لـــيس بمعلـــم**(٧)

---

(١) ديوان الأعشى، ص ١٤٠.

(٢) ديوان أبو ذؤيب الهذلي، ص ٦٩.

(٣) ديوان زهير أبي سلمى، ص٣٧. أنيق: معجب، المتوسم: الناظر الذي يتفرس في نظره كأنه يطلب شيئاً من سمته يعرفها به.

(٤) ديوان أبو ذؤيب الهذلي، ص ٦٩.

(٥) ديوان طرفة بن العبد، ص٧٩.

(٦) ديوان الأعشى، ص ١٦٠.

(٧) ديوان عنترة بن شداد، ص ١١٩.

فقد استطاعت اللغة احتضان كثير من الألفاظ والمعاني الذاخرة فهي لا تقتصر على المعاني والتشبيهات المحسوسة وإنما كان الجانب المعنوي الذي يتم تجسيده في صورة ملموسة. والنابغة يصور ويجسد لنا الألم الذي يحسه والسهد الذي يعانيه فيأتي الموضوع الذي تناوله في القصيدة متناغماً مع ما يرمي إليه موضوع القصيدة يقول:

فبت كأني ساورتني ضـئيلة * من الرقش في أنيابها السُّم ناقع**

يسهد من نوم العشاء سليمها * لحلي النساء في يديه قعاقع(١)**

ومن هذه المفردات فقد تشكلت القصيدة البدوية في الصحراء على أساس يبنى عليه شكل القصيدة وأصبح أنموذجاً واستطاع النقاد أن يقيسوا عليه، وكل من يخرج عن ذلك فهو خارج عن الإطار المحدد الذي عرفه الشعراء والنقاد، ونمط القصيدة الذي لم يستطع من بعدهم أن يأتوا به، فكان نظام الوزن والقافية والمطلع والتصريع والموسيقى كلها.

إذن العامل الجغرافي والمناخي له أثره في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والأدبية ولذا أتى الشعر حاوياً وسائراً على خطى هذه الظروف معبراً عنها بكل صدق ودقة وتفصيل، فأتت القصيدة تحمل المعاني والرؤى والخيال والفكر، بل وشكل القصيدة مستنداً عليها من وحي فكره ومسار حياته (ولغة الشعر تتفاعل تفاعلاً مؤكداً بالبيئة وإطارها الزماني ولكنها تحمل نفسيات متحدثيها من الشعراء وتكشف عن طرائق تفكيرهم)(٢).

فقد تطورت القصيدة العربية ومرت بعدة مراحل حتى صارت ما عليه الآن في تكوينها الذي اصطبغ في مراحله بالصحراء وارتبط بها ارتباطاً وجدانياً.

---

(١) ديوان النابغة الذبياني، ص ٤٦.ساورتني: واثبتني، ناقع : ثابت، الرقش: المنقطة، يسهد، يمنع من النوم، السليم: اللديغ، الحلي: الخلاخل ويعلق عليه لئلا ينام .

(٢) دوريات: مجلة كلية الآداب، جامعة الملك سعود، ج١٣، العدد الأول، ١٩٨٦م، د. عدنان حسين قاسم، ص ٥٧٩.

يقول ابن رشيق: "كان الكلام كله منثوراً فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها وطيب أعراضها وذكر أيامها الصالحة وأوطانها النازحة وفرسانها الأبجاد وسمائحها الأجواد لتهتز أنفسها إلى الكرم وتدل أنباءها على حسن الشيم"(١).

فالشاعر يأتي بمفردات البيئة الصحراوية ويربط بينها في أحداثها فتأتي مترابطة مع المعنى المراد إخراجه للسامع في تناغم وترابط وصور تشبيهية لتصل إلى السامع فتخلب عقله وتسترعي انتباهه فتأتي الصورة متحركة أمامه من فرط الربط الدقيق ورصد حركاتها .

وجاء التصوير البديع من الشعراء في وقوفهم على الأطلال وعبروا عنها في عواطفهم بطرق مباشرة وغير مباشرة وأن مقدمة القصيدة هو مفتاحها في فهم المعنى المراد. يقول عنترة معبراً عن هذا الموقف:

طال الثواء على رسوم المنزل * بين اللكيلك وبين ذات الحرمل**

فوقفت في عرصاتها متحيراً * أسلُ الديار كفعل من لم يذهل**

لعبت بها الأنواء بعد أنيسها * والرّامسات وكل جون مُسبل**

أفمن بكاء حمامةٍ في أيكةٍ * ذرفت دموعك فوق ظهر المحمل(٢)**

وقد وجدت القصيدة القديمة اهتماماً بالغاً في مقدمتها وهي بضعة أبيات تلي المطلع وتختلف باختلاف موضوع القصيدة فقد تكون بكاء على الديار ووقوفاً عليها، أو غزلاً بالمحبوبة وحنيناً إليها، أو وصفاً للطيف الطارق وما يطويه من الأرض الشاسعة، أو توجعاً على الشيب والعمر الذي فنى، أو صورة الشاعر الذي يذب عن حياضه، وقد تأتي أحياناً وصفاً للظعائن التي همت بالرحيل وبكى عليها. ولكل مقدمة صورتها العامة التي تميزها عن غيرها حسب المناسبة، وكثير من الأشعار تأتي بدون مقدمة كما في بعض أشعار الهذليين التي تدخل في الموضوع مباشرة وتعبر عنه.

---

(١) العمدة، ابن رشيق، الجزء الأول، ص ٢.

(٢) ديوان عنترة بن شداد، ص ٩٧. اللكيلك وذو الحرمل: موضعان، الأنواء: جمع نوء نزلت بالديار أمطارها، الرامسات: الرياح، الجون: الأسود من السحاب، المسبل: المحمل بالمطر.

أما حسن التخلص أو السلسلة الذهبية في القصيدة وتعبير من فنون القصيدة الجاهلية القديمة فهي خطوة لا يخطوها إلا الفحل من الشعراء فيتخلص الشاعر إلى ناقته أو فرسه وتختلف وسائل التخلص فيصورها أحياناً ضارباً في المفاوز والقفار والفلوات، ويصفها وصفاً معنوياً وحسياً أحياناً ثم يمضي فيشبهها بالثور في قوته وصبره وجلده، ويحكي لنا أطرافاً من أخباره أو يشبهها بالحمار الوحشي أو الظليم فتقف من خلال القصيدة على جزء من دقائق حياته، وقد يشبهها أحياناً بأكثر من حيوان يرد في القصيدة كقول النابغة يتخلص من وصف ناقته ومشبهاً لها بالثور الوحشي:

كأن رحلي وقد زال النهار بنا * بذي الجليل على مستأنس وحد**

من وحش وجرة موشى أكارعه * طاوي المصيركسيف الصيقل الفرد**(١)

فإذا خرج من قصته وتوغل في بطن الصحراء القاسية خرج إلى غرض آخر سواء كان مدحاً أو فخراً أو هجاء... إلخ. وربما انصرف من مقدمته إلى الظعائن فظل يرقبها ويصفها في بطن الصحراء ويصف السراب الذي يمر حولها، ويحكي جزء من شكل الظعن وهيئته فيرقبه بقلبه وطرفه، وربما غازل صويحباتها.

كل هذه المشاهد والحكايات والصور والأشكال والخيال والوصف مستمده من الصحراء، والسائد من صور التخلص في القصيدة العربية أن يقول أحدهم وهو خارج من نعت الناقة إلى المدح دع ذا ودع ذا وخبّر. وربما وصفوا سير الناقة ومشقة السفر ثم قال:

حتى نزلت ربع ....

والتخلص عند الشاعر البدوي يكون من موضوع لآخر دون أن يكون هناك فارق أو فاصل محسوس في القصيدة، فشاعرنا لبيد استطاع الانتقال من الغزل إلى الوصف لناقته والانتقال من غرض لآخر داخل القصيدة التي تعددت محتوياتها شاملة عدد من مناحي الشاعر وأحاسيسه وعند لبيد الذي يخاطب

---

(١) ديوان النابغة الذبياني، ص ٦-٧.

محبوبته نوار التي قد أعرضت عنه فقابلها إعراضاً بأعراض فهو أمضى عزماً منها يقول:

أولم تكن تدري نوار بأنني * وصّال عقد حبائل جذامها**(١)

ولم تكن هناك وسيلة لوصل الحبائل غير ناقته فهذا واضح في طريقة استعماله للأغراض من خلال معلقته وطريقة التصوير الفني منها، فالشاعر صور ناقته في صور ثلاث الأولى هو الذي يقف عند حدود المشابهة بين طرفي التشبيه فيشبه الناقة بالسحابة الحمراء التي خف مع الجنوب جهامها، وكان ما يريده الشاعر من هذه الصورة هو تشبيه سرعة الناقة وسيرها بسرعة السحابة الحمراء التي هطل منها الماء فأصبحت خفيفة تتحرك بسرعة وهو تشبيه للعدو والسرعة.

ثم يصور ناقته بأتان وحشية قد حملت من فحل وهكذا تستمر القصيدة:

فلها هباب في الزمام كأنها * صهباء خف مع الجنوب جهامها**
أو ملمع وسقت لأحقب لاحه * طرد الفحول وضربها وكدامها**
أفتلك أم وحشية مسبوعة خذلت وهاديةٌ الصوار قوامها(٢)

فهو يشبه ناقته في سرعتها بالبقرة المسبوغة التي افترس السبع ولدها حين تركته وراءها وأسرعت بمقدمة القطيع لترعى مع صواحبها مع البقر، وهذا يشير لذلك الصراع السائد في الصحراء بين الإنسان والإنسان، والحيوان والحيوان، وقد جسدها الشاعر في الرمزية والصراع النفسي له.

أما خاتمة القصيدة وهي آخر ما تبقى من القصيدة والاستماع إليه ولذلك حرص الشعراء على أن يختاروا المعنى واللفظ الجيد الذي يؤدي غرض الخاتمة فيكون قد عالج أفكاراً في القصيدة وأن تكون سائغة اللفظ، وبعضهم يزيدها جودة

---

(١) ديوان لبيد بن أبي ربيعة، ص١٧٥. جذام : قطاع أي أصل في موضع المواصلة من يستحقها وأقطع من يستحق القطيعه.

(٢) المصدر السابق ص١٦٨-١٧١. هباب: نشاط – يقول إذا صارت بهذا الحال لم يذهب نشاطها كأنها صهباء أي سحابة صهباء، الملمع: التي قد استبان لحمها، وسقت: حملت، الأحقب: الذي في موضع الحقب- منه بياض لاحه غيره، كدامها: عضها – شبه ناقته بسحاب قد هراق ماءه فهو أسرع لمدّه أو بأتان يتبعها حمار.

أن يجعل فيها معنى يذهب مذهب الحكمة أو المثل وتتداولها الألسن وهذه الحلقات تؤدي إلى تماسك القصيدة مع بعضها، وكان التنقل الذي لازم حياة الصحراء لازم الفكر العربي البدوي بوجود العديد من الأفكار التي يريد البدوي طرقها والربط بينها فجعله يتوثب بين المعاني توثباً ذكياً يلتئم شمله بتمام القصيدة وحول شكل القصيدة وبنائها.

يقول ابن قتيبة "إن مقصد القصيد إنما ابتداء فيها بذكر الديار والدمن والآثار فبكا وشكا وخاطب الربع واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين إذا كان نازلة العمد في الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة المدر لانتقالهم من ماء إلى ماء وانتجاعهم الكلأ وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان، ثم وصل إلى ذلك بالنسيب فشكا شدة الوجد وألم الفراق وفرط الصبابة والشوق يميل نحوه القلوب ويصرف إليه الوجوه ويستدعي به إصغاء الأسماع إليه لأن النسيب قريب من النفوس لائط بالقلوب"(١).

ولما كان البدوي يهيم في الصحراء فقد أتت روح القصيدة متسقة مع هذه المعاني، وهذا النسق الذي صور الحياة اليومية للبدوي ويراعي أفكاره فأول ما يذكره أحبابه وأماكنهم.

يقول ابن رشيق "وكانوا قديماً أصحاب خيام يتنقلون من موضع إلى آخر فلذلك أول ما تبدأ أشعارهم بذكر الديار فتلك ديارهم وليست كأبنية الحاضرة فلا معنى لذكر الحضري الديار إلا مجازاً لأن الحاضرة لا يمحوها المطر ولا الرياح إلا أن يكون ذلك بعد زمان طويل لا يمكن أن يعيشه أحد من أهل الجيل"(٢).

ومثلاً في قصيدة النابغة الذبياني وهي خير شاهد لما ذكر في شكل القصيدة القديمة وما تحويه من ترتيب في المقدمة وحسن التخلص. يقول في قصيدة يعتذر فيها للنعمان يقول في بداية القصيدة ويستهلها كغيره من الشعراء بالوقوف على الأطلال:

يا دار مية بالعلياء فالسند * أقوت وطال عليها سالف الأبد**

---

(١) الشعر والشعراء، ابن قتيبة، الجزء الأول، ص ٧٤.

(٢) العمدة بن رشيق، الجزء الأول، ص ٢٢٦.

ثم بعد وقوفه على الأطلال يحاول أن يتخلص إلى الحديث عن ناقته التـي تحملـه ووصفها بقول:

فعدّ عما ترى إذ لا ارتجاع لـه * وأنم القتود علـى عيرانـه أجـد**

مقذوفة بدخيس النحض بازلها * له صريف صريف القعو بالمسد**(١)

ثم يلتفت ليشبه ناقته بالبقرة الوحشية في قوله:

من وحش وجرة موشى أكارعه * طاوي المصير كسيف الصيقل الفـرد**(٢)

ثم يستطرد الشاعر إلى مدح النعمان في قوله:

ولا أرى فاعلاً في الناس يشبهه * وما أحاشي من الأقوام مـن أحـد**

إلا سـليمان إذ قـال الإلـه لـه * قم في البرية فأحددها عن الفند**(٣)

ثم ينصرف للاعتذار مؤكداً براءته مقسماً بالكعبة في قوله:

فلا لعمر الذي قد زرته حججـاً * وما هريق على الأنصاب من جسد**

هذا لأبرأ من قول قـذفت بـه * طارت نوافذه حراً على كبـدي**(٤)

ثم يصف كرم النعمان في قوله:

فما الفرات إذا جاشت غواربـه * ترمـي أواذيـه العبـرين بالزبـد**

يمـده كـل وادٍ متـرع لجـب * فيه حطام من الينبوت والخضد**(٥)

وهكذا نجد أن الشاعر البدوي يبدأ قصيدته فيتخلص من فقرة لأخرى بأسلوب جميل يسترعى فيه كل حواسه ومشاعره في القصيدة، وقد ارتبط شكل القصـيدة بالحيـاة العقلية للمجتمع البدوي، ويعبر عن مدى مـا وصـلت إليـه ثقافـة وفكـر تلـك الأمة على الرغم من قلة التعليم بالمعنى المفهوم لدينا، واستمدوا تفكيرهم وثقـافتهم

(١) ديوان النابغة الذبياني، ص ٥.

(٢) المصدر السابق، ص ٧.

(٣) المصدر السابق، ص ١٣.

(٤) المصدر السابق، ص ١٩-٢١.

(٥) المصدر السابق ، ص ٢٢.

من تجارب الحياة الممارسة فاستمدوا نباهتهم ونظامهم الفكري والاجتماعي فكانــت بلاغتهم وإعجازهم في تدبير حياتهم وفراستهم وأسلوبهم وبيانهم والقــول الصــائب والمنطق الساحر، فأتي الشعر معبراً عن كل ذلك، وأصبحت كلمات القصــيدة الآن وألفاظها حوشية غريبة في بعضها، وكانت فصيحة بليغة مفهومة فلما ذهبــت تلــك البيئة من خيام وجنادل ذهبت وأصبحت غريبة لتقادم الزمان.

وبنظرة للشعر العربي عموماً في الصحراء نجده ضربين الأول قصائد طوال تعني بموضوع ومناسبة ولكنها تتطرق لأكثر من موضوع وهــذا مــا نجــده فــي المعلقات، أما الضرب الثاني من الشعر فهو القصائد القصار أو المقطوعات وفيهــا التجارب الفردية للشاعر يعبر ويعكس من خلالها الصورة الصادقة للحياة البدويــة من تجارب حياته في الصحراء.

خصائص القصيدة الشعرية في الصحراء:

ونعني بذلك القيم الجمالية والسمات الأسلوبية في المسائل اللغوية والبلاغية والتأثيرات البيئية التي منحت ظلالاً من المعاني والأفكار والألفاظ وجعلت للقصيدة سمات وخصائص مميزة من غيرها من العصور والبيئات.

ذكرنا في مبحث سابق تأثير الصحراء على اللغة والألفاظ وإثراء اللغة العربية بسيل من المعاني والكلمات التي أصبحت ذخيرة تمد اللغة بمفردات سالت في أوديتها رابطة أجزاء الصحراء وغاصت في أغوارها ومشت في سهولها وطالت لجبالها وأخذتها رياح الظعن والرحيل والتجوال ومقاطن المدر فشكلت كل هذه الحلقات عصارة قوية استطاعت أن تصبح أساساً ومنبعاً لكل مراحل اللغة العربية والتي تفرعت واتسعت في مواقع ومعان وشكلت ألفاظها وذخيرتها، وهنا نتناول جزء من خصائص القصيدة الشعرية في الصحراء ولسماتها الواضحة التي شكلت لونها وشكلها وأصبحت النموذج الذي سار عليه الشعر والشعراء فيما بعد منها:

- استطاعت القصيدة الشعرية أن تمثل الطبيعة الصحراوية في كل مفرداتها ومكوناتها ومدلولاتها، فالشاعر الجاهلي مفطور على البساطة وصدق الأداء وصراحة اللفظ لا تكلف في شعره يتناول محسوسه ومشهوده في قالب شعري. بين.

  فالبدوي يعايش الطبيعة معايشة وثيقة يألفها في القسوة والرخاء في زمن الغيث والشح في مواقع الماء والكلأ في السلم والحرب وفي شعرهم أوصافاً كثيرة للربيع والصيف والبرق والمطر وفي الليل والبرد والصقيع والحيوان والأيام والشجر، ولم يخرج إلى أوصاف خيالية وإنما جاء بأوصاف قريبة من العقل والتصوير ضمن المحسوسات وانطباعاتها.

- **نزعة التقليد:** نجد الشعراء الجاهليين يسيرون في شعرهم على وتيرة واحدة في تصويرهم لكل مشتملات الصحراء في نظام القصيدة وشكلها وبنائها يكاد يكون واحداً. وكان للحياة القبلية تأثير قوي في شد الشاعر إلى ماضيه. أما العقل والخيال مقيدان بقيود التقاليد، فالقصيدة لها شكل متفق عليه من حيث

المعاني والأسلوب والأقسام والتفكير والفهم والخيال والمفردات والحياة والتجربة عموماً واحدة كلها نتاج ومعايشة تحت قبة الصحراء.

- **الواقعيـــة:** وشملت الأغراض وصدق النقل من الحياة المعاشة وقد حرصوا على التفاصيل والجزئيات ودقة التعبير والاســتهلال بوصــف الأطــلال وجزئيــات الطبيعة والتعبير عن عواطفهم وأفكارهم ولكن معظمها تبــدأ بــذكر الأطــلال والديار ووصف الظعن وذكر الأحبة. يقول طرفة بن العبد:

لخولة أطــلال ببرقــة ثهمــد * تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد**(١)

ويقول أمرؤ القيس:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل * بسقط اللوي بين الدخول فحومل**(٢)

ويقول عنترة بن شداد:

هل غادر الشعراء من متــردم * أم هل عرفت الــدار بعــد تــوهم**

يا دار عبلة بــالجواء تكلمــي * وعمي صباحاً دار عبلة واسلمي**(٣)

ويقول النابغة الذبياني:

يا دار ميــة بالعليــاء فالســند * أقوت وطال عليها سالف الأبــد**(٤)

ويقول لبيد بن أبي ربيعة:

عفت الديار محلهــا فمقامهــا * بمنى تأبــد غولهــا فرجامهــا**(٥)

وهناك كثير من الأشعار التي تحمل الواقعية في دقة التفاصيل لوصف الحيــوان والنبات وجزئيات الصحراء.

---

(١) ديوان طرفة بن العبد، ص ٥٠.

(٢) ديوان أمرئ القيس، ص ١١٠.

(٣) ديوان عنترة بن شداد، ص ١١٧.

(٤) ديوان النابغة الذبياني ، ص ٢.

(٥) ديوان لبيد بن أبي ربيعة، ص ١٦٣.

- **عنصر المادية:** نزع الشعراء مع الطبيعة الصحراوية نحو المادية فليس لصورهم أو تشبيهاتهم لغير المحسوس من أثر ذلك لأنه لم تكن هناك صوراً غير محسوسه تدعو للتجديد.

فالصورة المحسوسة تسيطر على كل موحيات الشعراء وموضوعاتهم وأغراضهم الشعرية، فإذا وصفوا المرأة أو الكرم أو الطلل أو الشجاعة أو الناقة أو الفرس أو المطر أو السيف أو الدرع... الخ. لم يتعدوا الواقع في أوصافهم او التشبيه والتمثيل والمقارنة بين مشهد داخلي وتجربة ذاتية من جهة، ومشهد خارجي وحالة محسوسة من جهة أخرى.

- **تنوع أغراض القصيدة:** تشتمل القصيدة الصحراوية على أغراض متنوعة منها الوصف والوقف عند الطلل وتصوير الناقة وذكر الحبيبة والصيد والثور الوحشي، ونجد فيها مدح وهجاء وغير ذلك من تصورات الشاعر وما كابده في رحلته ويذكرها بتفصيلها، والمعلقات تحمل هذا وأنموذج لما ذكرت.
- **جودة التصوير:**

وللشعراء مقدرة فائقة على إحكام الصورة واختيار الكلمات التي تمتلك طاقة تصويرية هائلة مثلاَ يقول امرؤ القيس مصوراً يوماً ممطراً بقوله:

وأضحى يسح الماء من كل فيقة * يكبُ على الأذقان دوح الكنهبل**

كأن أباناً في أفانين ودقةً * كبير أناس في بجاد مزمل**

كأن ذرى رأس المجيمر غدوةً * من السيل والإغثاء فلكة مغزل**(١)

فهنا يرسم الشاعر صورة يوم ممطر وكيف أن الماء تخلل كل هذه البقاع الجبال والمنخفضات وتلك الصورة لرأس المجيمر الذي أصبح صغيراً من استدارة الماء حوله .

ولذلك نجد الصورة محدودة بحدود البيئة الصحراوية ومنتزعة من بيئة قريبة للتناول، ونجد الحبكة التصويرية والمقدرة على تناول الكلمات والخيال القريب

---

(١) ديوان امرئ القيس، ص ١٢٢، الفيقه: فترة تقطع المطر فيسح مرة ويسكن مرة، يكب على الأذقان دوح الكنهبل : يقتلع شجر الكنهبل من أصوله ويلقيه على أم رأسه. أبان: جبل ، أفانين ، ودقة: ضروب مطر، البجاد: الكساء المخطط، مزمل: ملتف، المجيمر: جبل فلكة مغزل: لأن الماء استدار حوله .

الذي يجعل كل هذه المفردات تدور في حيز واحد ويطفي عليها من اللمسات الفنية في ترتيب الأدوار.

- **الغنائية:** القصيدة الجاهلية تكثر فيها النزعة الذاتية الغنائية والنزعة الفردية لا أسلوب القصص أو التصوير ونزعات الجماعة، فالشاعر في القصيدة يعبر عن مكنوناته ونزعاته الذاتية وغالباً، ما تأتي في صورة القصيدة أو عن حكمة أو مثل يتبطن القصيدة أو تعبيره عن قبيلته والفخر بها من خلال تمثيل نفسه باعتباره يمثل الجماعة وهو الناطق بلسانها وحال عشيرته.
- **النزعة الخطابية أو الجرس الموسيقي أو بلاغة التركيب:** فالشاعر هو المتحدث باسم القبيلة، فهو خطيبها ولسان حالها ويزود عنها بلغة فصيحة رصينة غريبة أحياناً يشدها الإحكام والتماسك، ويعتبر الجرس الموسيقي وهو من أصدق الحالات النفسية والصور الخيالية التي يعتمدها الشاعر، فالجرس الموسيقي والنبرة الحادة التي يستعملها الشاعر واختياره لكلمات تعبر عن الموقف حسب الحال، فيعطي القصيدة نوعاً من الإيقاع الذي يتناغم وروح وغرض القصيدة.
- تحمل القصيدة شدة وتيرة الصحراء وتأخذ في حناياها العزيمة والإصرار في مكابدة الحياة والتغلب على مصاعبها فهي صورة لامعة تقفز بالحس والمشاعر فوق الإحساس العادي لنبرة القصيدة ولذلك فهي تميز ذاك العصر مهما كان غرضها وموضوعها.
- يصف الشاعر كل ما يجيش بخاطره في رحلته الوصفية وكل ما يحيط به من أحياء وجمادات أو موضوعه الذي يطرقه حسب مناسبة القصيدة فيقوم بتصوير ووصف دابته "ناقته، حصانه" وتشبيهها بالثور الوحشي أو غيره بصورة تفصيلية تستغرق جزءً كبيراً من القصيدة وهي صورة ذات أبعاد معنوية ونفسية كما جاء في المعلقات.
- يستخدم الشاعر أحياناً شيئاً من المحسنات البديعية دون تكلف أو إغراق في التصوير أو جلب معاني وألفاظ ودلالات تخل بالإحساس البيئي وتسبح بالخيال خارج دائرة الجغرافية المحيطة به.

- في البيئة الصحراوية ألفاظٌ ومعاني مستمدة منها وفيها شئ من الغرابة للقارئ في معانيها في هذا العصر وذلك بسبب تقادم الزمان واختلاف البيئة، وتجدد المعاني والألفاظ وتطورها عبر الأزمان والحقب إلا ما يتعلق بها من المعاني والأسماء والألفاظ المشتركة بين كل البيئات الجغرافية أو بعضها.
- أن القصيدة الصحراوية في الشعر الجاهلي قادرة على التعبير عن أقوى المشاعر وأحدها بصورها وكلماتها وموسيقاها ومعانيها فهي تعبر عن الحياة الإنسانية بكل خلجاتها ونبضاتها وأفكارها وتحتفظ بملامحها الخاصة.
- حملت القصيدة البدوية في الصحراء صوراً حسية فيها نوع من البراعة والمهارة والصدق وذلك لاعتمادها على الصورة الحسية التي هي أساس التصوير وهي أقوى في الدلالة على المعنى والإحساس به من الصورة العقلية التي تهدف إلى الإقناع، فالصورة الحسية أعمق وأبلغ في نقل التأثير المنشود من الصور الذهنية والفرق واضح وبيّن، ففي الصورة الحسية كقول النابغة في المدح:

فإنك شمس والملوك كواكب * إذا طلعت لم يبد منهن كوكب**(١)

ثم ننظر لقول بشار بن برد الذي يقول:

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا * ليل تهاوى كواكبه**(٢)

فبينما نرى التشبيه من بيت النابغة مستمد من الواقع المشاهد المحسوس بكل ما فيه من إلفة نراه عند بشار يذهب بعيداً عن الواقع لاستعمال الخيال حيت يصور المعركة بما فيها من غبار وأسياف تلمع بالليل الذي تتهاوى كواكبه، وهذا الليل الذي تتهاوى كواكبه شئ يمكن تخيله ولكنه ليس بالشئ الحي القريب المألوف الذي يعايشه المرء كل يوم. أما تصوير النابغة صورة من الحياة ومثل هذا التصوير الحسي هو الغالب في

(١) ديوان النابغة الذبياني، ص ٧٨.

(٢) ديوان بشار بن برد، ص٢٧٣.

القصيدة القديمة ولذلك استطاعت أن تبلغ مكانة علية في التجسيد من خلال الصورة الحسية الخارجية.

- تعتبر القصيدة القديمة في الصحراء هي السجل الوحيد الذي يقع على كاهله تسجيل كل هذه النواحي في تلك البيئة والنشاط الإنساني والأماكن والجغرافية بصورة متكاملة كقول الحارث بن حلزة في قصيدة يذكر فيها بعض أماكن محبوبته يقول:

فالمحياة فالصفاح فأعناق * فتاق فعاذب فالوفاء**(١)

- **القول الجامع:** كانت الصفة الغالبة على الشعر البدوي في الصحراء أنه شعر وجداني، ولذلك كان معرضاً للآراء المفردة أكثر منها معالجة مستفيضة لشؤون الحياة ومال العرب إلى استجماع القول حتى كان البيت الواحد في القصيدة يجمع معاني تامة. وقد جعل الأقدمون يفتخرون بذلك وأعجب النقاد. بقول امرئ القيس:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل * بسقط اللوى بين الدخول فحومل**(٢)

وقالوا أنه وقف واستوقف وبكى واستبكى وذكر الحبيب والمنزل في بيت واحد.

- صورت القصيدة البدوية الجاهلية ونقلت الحياة الاجتماعية والفكرية والأدبية والاقتصادية والثقافية والجغرافية نقلاً أميناً بعيداً عن الكلفة والتعمل.
- حملت القصيدة القديمة العديد من الأبيات التي تقصد الحكمة وأتت خلاصة لمعايشة ومكابدة وتجارب الحياة في الصحراء من شظف ونعمة وكثرة وقلة وعدم وغنى وجدب ومدر وحر وبرد وموت وحياة وحرب وسلم وغبطة وغضب فأتت معبرة عن وجدانيات الشاعر البدوي الذي جمع كل هذه الأفكار والرؤى فصاغ منها هذه التعابير للتسلية وتخفيف وطأة الحياة.

---

(١) ديوان الحارث بن حلزة، ص ٢٠.المحياة – الصفاح – الأعناق – فتاق – عاذب: أسماء مواضع، فتأتي معبرة عن كل هذه النواحي.

(٢) ديوان أمرئ القيس، ص ١١٠.

يقول زهير في إحدى قصائده:

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب * تمته ومـــن تخطي يعمــر فيهرم**

ومن لا يصانع فـــي أمــور كثيــرة * يضرس بأنياب ويوطــأ بمنســم**

ومن يك ذا فضــل ويبخــل بفضـــله * على قومه يستغن عنـــه ويـــذمم**

ومن هـــاب أســـباب المنايـــا ينلنـــه * ولو نال أســـباب الســـماء بســـلم**

ومن لا يذد عـــن حوضـــه ســـلاحه * يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم**[١]

وقال لبيد:

وما الناس إلا كالديار وأهلهـــا * بها يوم حلوهـــا وغـــدوا بلاقـــع**

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه * يحور رماداً بعـــد إذ هـــو ســـاطع**

وما المال والأهلون إلا وديعـــة * ولابد يومـــاً أن تـــرد الودائـــع**[٢]

- **رقة الإحساس بالحياة وقوة الشعور بالجمال:** فهذه الرقة نجدها موزعـــة فـــي أجزاء القصيدة وتتصل بكل غرض من الأغراض فتلابسه في القصيدة الواحـــدة فبدأ بوصف جمال المرأة ورقتها وصفاتها الخلقية، وقد تبين ذلـــك فـــي نفـــس الشاعر وحياته ومهما يكن من غرض القصيدة الشعرية العربية القدميـــة تبـــدأ بالمرأة أو الطلل وفيها إشارة له أو يصف رحيلها أو هجرها له.
- استجلاء الجمال في الطبيعة بكل مظاهرها وإيضاح الصـــورة الجميلـــة التـــي يعكسها الشاعر مع شعوره به ينعكس ذلك على نفوس غيره.

---

(١) ديوان زهير، ص ٤٩-٥٠.

(٢) ديوان لبيد بن أبي ربيعة، ص ٨٨-٨٩. غدو: غداً، بلاقع: قفار ، الشهاب: النار، يقول كل أمرئ ينجـــو بعد توقد حين تدركه المنية كالنار تكون ساطعة الضوء ثم تصبح رماداً .

الفصل الثاني

أثر الصحراء في اللغة الشعرية

أثر الصحراء في اللغة الشعرية

تأثر الشعر الجاهلي بالصحراء في مختلف جوانبه في الشكل والمضمون والموضوعات والمتتبع للشعر العربي القديم يستطيع أن يرجع كثيراً من ألفاظه إلى وحي الصحراء ومظاهرها وطبيعة الحياة فيها وتمثل هذه الألفاظ الشعرية معجماً لغوياً كبيراً يكون في مجمله جانباً لا يستهان به من مفردات اللغة العربية من أسماء الصحراء وصفاتها ووصف جبالها ووديانها وما يتعلق بطبيعتها المتحركة منها والساكنة وهي ألفاظ كثيرة تتصل بالحيوان والنبات والمطر والخريف إضافة لما يتعلق بالحياة الأخرى .

والبيئة هي المحيط الذي تدخل تحته كل المعاني والألفاظ والكلمات والأسماء والإيحاءات فتنطبع وتخرج معبرة عنه، وقد أثرت الصحراء في كل مناحي الحياة في الصفات والأسماء وهي مستمدة منها، فقد علمت البدوي الجلد والصبر والقوة، ولذلك نشأ على البطولة والمحامد، وأوحت إليه بالشدة والقوة فتخيروا أسماء وصفات تناسب المسمي في قوته وشدته مثل أسد، ثور، صخر، فرس، فهر... إلخ.أما المفردات اللغوية فقد كثرت في تلك البيئة الصحراوية معبرة عن صفات وأسماء ومعاني تلك الحياة في الصحراء وما فيها من جمادات وحيوانات لأنها عماد الحياة، وأكثر ما ذكر في الإبل (ونقل عن دوهمان أنه توصل إلى جمع أكثر من ٥٦٤٤ لفظاً لشئون الجمل رفيق الأعرابي في الصحراء ومؤنسه في وحشته)[1]. وهو لا شك أهم وسائل الحياة في الصحراء حتى أصبحت الناقة تنافس المرأة في مكانتها من قلب الشاعر وفي حظها من ذكره وتصويره. (وقد أفرد ابن سيده أكثر من مائة وثلاثين صفحة تتحدث عن الإبل في نعومتها وحسنها وخلقها ولحومها وأوبارها ورعيها وبركها وأناختها وسيرها في اللين والرفق)[2].

---

(١) الأدب الجاهلي قضاياه – أغراضه – أعلامه – فنونه، د. غازي طليمان، عرمان الأشقر، ص٤٠.

(٢) المخصص، لابن سيده، الطبعة الأولى، ١٢١٨هـ، الجزء السابع، ص١-١٣٨.

ولذلك عظم البدوي كثيراً من الأشياء المحيطة به فوهبها أسماء وصفات كثيرة بدء من الصحراء نفسها كما ذكرنا آنفاً وكثرة الأسماء تدل على عظم المسمى ولذلك فاضت الألفاظ والكلمات المعبرة عن محيط البيئة الصحراوية ومحتواها ولذلك حفل الأدب العربي الجاهلي في الصحراء بكثير من المعاني المتعلقة بالأنواء والأمطار والجفاف والجدب والخصب والنبت والصيد والطرد والظعن والفرس والناقة ، (ولذلك كان للبيئة اثر في اللغة حتي ليصبح ان تشبيه النفس الإنسانية بالغيثارة توقع عليها الطبيعة ضروباً من الالحان والانغام وهي رجع لما في البيئة الطبيعية من عوامل ومظاهر اكثر ما هي صدى لغيرها من المؤثرات)(١).

وغرق هذا التصوير والوصف في سيل من الألفاظ التي استقوها من الصحراء فأصبحت الآن حوشية أو غير مستعملة في كثير من الأحيان وذلك بسبب تقادم الزمان وتغير تلك البيئة وتطور اللغة. (فاللغة هي الوسيلة وحاملة وعاء الحياة البيئية والتعبير عن الطبيعة والأفكار والمعاني لا العواطف فليست اللغة قادرة على نقلها نقلاً تاماً صحيحاً كما هو الشأن في المعاني"(٢).

ونجد حركة الحياة وواقع المجتمع أديا للتعامل مع مفردات اللغة واستنباط معاني وصفات وأسماء من سير حركة الحياة، فمثلاً نذكر أشعار الهذليين التي غلب عليها استخدام ألفاظ في مجال الدلالة على القدر والدهر والمنون والمنايا وحوادث الأيام، وهذا لا يعني وجلهم من القدر ولكن لشجاعتهم وتحملهم لنكبات الحياة في الصحراء بكل إفرازاتها وربطوها بالبطولة ودعوتهم للصبر على النائيات والانتصار على الصعاب كقصيدة أبي ذؤيب الهذلي التي مطلعها:

أمن المنون وريبها تتوجع * والدهر ليس بمعتب من يجزع**(٣)

(١) في صحبة الادب القديم : د . احمد محمد الحوفي . شركة نهضة مصر للطباعة والنشر بدون ص ١٧ .

(٢) النقد الأدبي، أحمد أمين، الطبعة الخامسة، ١٩٨٣م، ص٢٩.

(٣) ديوان أبي ذؤيب الهذلي، ص ١٣٠

فاللغة أداة تعبير للحياة ورمزاً لها باعتبار أنها إدراك حسي للأشـياء فهـي محاكاة لطبيعة ورموز دالة على الأفعال، (فالإنسان لم يعرف السحر إلا يـوم أدرك قوة الكلمة، ولم يعرف الشعر إلا يوم أدرك قوة السحر)[١].

وهناك عدد من مظاهر الصحراء في الشعر العربي الجاهلي ولكن أبرزهـا يتمثل في تزويد المعجم اللغوي بكثير من المفردات والألفاظ والمصـطلحات وفـي مقدمة تلك الصفات والأسماء ما أطلق على الصحراء نفسها.

وقد كان للصحراء أثر في أفكار ومعاني الشعر وفي الصورة الفنيـة علـى وجه العموم، وبذا أثرت معاني اللغة وألفاظها وأسلوبها وأخيلتهـا وصـورها بـل الأوزان والقوافي والموسيقى بكل صورها.

ولم تقتصر الأسماء والصفات على اسم الصحراء بل تعـدتها إلـى الرمـال والوديان وتفاصيل تلك البيئة ومنها الجواء وهو جمع جو وهو البطن مـن الأرض الواسعة في انخفاض. يقول عنترة:

يا دار عبلة بـالجواء تكلمـي * وعمى صباحاً دار عبلة واسلمي**[٢]

أما القرارة وهو الموضع المطمئن من الأرض يجتمع فيه السيل فكان القرارة مستقر السيل. يقول عنترة أيضاً:

جادت عليها كـل عـين ثـرة * فتـركن كـلّ قـرارة كالـدرهم**[٣]

العلياء: وهي المرتفع من الأرض. يقول النابغة الذبياني:

يا دار ميـة بالعليـاء فالسـند * أقوت وطال عليها سالف الأبـد**[٤]

---

(١) الشعر العربي المعاصر – قضاياه وظواهره الفنية والمعنويه، د. عز الدين إسـماعيل، الطبعـة الثالثـة، ١٩٧٢م. ص ١٧٣

(٢) ديوان عنترة بن شداد، ص ١١٧.

(٣) المصدر السابق، ص ١١٩.ويروى كل بكر حرة .

(٤) ديون النابغة الذبياني، ص٢. العلياء: مكان مرتفع، السند: الجبل، أقوت: قويت، وأقفرت ومعناه صارت في قواء وقفر.

الثرى: وهو وما ابتل من الأرض. يقو لبيد:

حتى إذا انحسر الظلام وأسفرت * بكرت تزّلُّ عن الثرى إزلامهـــا**(١)

الهيام: هو الرمل اللين وقيل ما تناثر منه. يقول لبيد:

تجتاف أصـــلاً قالصـــاً متنبــذاً * بعجوب أنقـــاء يميـــل هيامهـــا**(٢)

الحُدب: وهو ما ارتفع من الأرض، والأكام الجبال الصغار الواحدة أكمة. يقول لبيد:

يعلو بها حدب الأكام مســـحجاً * قد رابـــه عصـــيانها ووحامهـــا**(٣)

الأحزة: حمع حزير وهو ما غلظ من الأرض. يقول لبيد:

بأحزّة الثلبـــوت يربـــأ فوقهـــا * قفرٌ المراقـــب خوفهـــا آرامهـــا**(٤)

والمعني ان الحمار يخاف من هذه الحجارة اذا رآها لانه يتوهم انها مما تخيفه .
السبط: وهو الغبار. تتنتزع العير والأتان سبطاً يعني غباراً ممتداً. يقول لبيد:

فتنازعا ســـبطاً يطيـــر ظلالـــه * كدخان مشعلةٍ يشـــب ضـــرامها**(٥)

السراب: هو لمعان الشمس في الفضاء. يقول لبيد أيضاً:

حفزت وزايلها السراب كأنهـــا * أجزاع بيشة أثلهـــا ورضـــامها**(٦)

---

(١) ديوان لبيد بن أبي ربيعة، ص ١٧٢. بكرت : غدة بكرة

(٢) المصدر السابق، ص١٧٢. تجتاف: تدخل في جوفه، قالص: المرتفع الفروع ، متنبذاً: متفرقـــاً، بعجـــوب: العجوب جمع عجب وهو أصل الذنب ويريد أطراف الرمال – الهيام : الرمل اللين – انقـــاء : رمـــل لـــم يخلط.

(٣) المصدر السابق، ص ٣٩ – مسحج: معضض.

(٤) المصدر السابق، ص١٦٩. – يربآ : يعلو – الارام : حجارة تجعل اعلاماً

(٥) المصدر السابق، ص ١٧٠.

(٦) المصدر السابق، ص ١٦٦.

اللاحب: هو الطريق الذي فيه أثر. يقول طرفة:

أمونٍ كـألواح الإران نسـأتها * على لاحبٍ كأنـه ظهـر برجـد**[١]

الجثوة: التراب المجموع. يقول طرفة:

ترى جثو تين من تربٍ عليهـا * صـفائح الحجـارة الغـراض**[٢]

القف: ما ارتفع من الأرض ولم يبغ أن يكون جبلاً. يقول طرفة:

تربعت القفين بالشول ترتعـى * حدائق مـولى الأسـرة أغيـد** [٣]

الخلقاء: هي الصخرة الملساء، والقردد هو الصلب من الأرض. يقول طرقة:

كأن علوب النسع في دأياتهـا * موارد من خلقاً في ظهر قـردد**[٤]

الأمعز: هو المكان الغليظ. يقول طرفة:

أحلت عليها بالقطيع فأجـذمت * وقد خـبّ آل الأمعـز المتوقـد**[٥]

حر الرمل: هو أحسن الرمل ألواناً وأنقاه، الدعص: هو كثيب الرمل. يقول طرفة:

وتبسم عن ألمي كـأن منـوراً * تخلل حرُّ الرمل دعص لـه نـد**[٦]

المرداة: صخرة تدق بها الحجارة، الصفيح: هو صخرٍ في صفيح مصـمّد. يقـول طرفة:

وأروع نبـاض أحـذُّ ململـمٌ * كمرداة صخرٍ في صفيح مصمّد**[٧]

---

(١) ديوان طرفة بن العبد، ص ٥٦.

(٢) المصدر السابق، ص٦٢.

(٣) المصدر السابق، ص٦٩. تربعت: رعت الربيع فيه، الأسرة: طرائق من نبت، أغيد: الناعم.

(٤)ديوان طرفة بن العبد، ص ٧٢ .علوب: الآثار، النسع: سير من جلد، دابأتها: ضلوع صدروها.

(٥) المصدر السابق، ص ٧٧. القطيع: السوط، أجذمت: أسرعت: خبّ: اضطرب، الآل: السـراب.الأمعـز: الموضع الكثير الحصى .

(٦) المصدر السابق، ص ٥٠ .

(٧) المصدر السابق، ص ٧١ ، أروع: يعني قلبها، نباض: من الفزع، الأحذ: الأملس، ململم: مجتمع، مـرداة: أرض، الصفيح المصمد: الحجارة الصلبة.

والعلاقة بين اللغة والفكر علاقة جوهرية ذات تأثير متبادل كما نلحظ ذلك من خلال أشعار العصور المختلفة فاللغة تشكل الفكر الذي يترجم نتاجه في المعاني والصفات والفكر يصوغ اللغة من وحي البيئة، ولذلك أتت أشعار البدويين في الصحراء ذات فكر ثاقب ودلالة بعيدة في التعبير نتاجاً لقوة اللغة ورصانتها. وقوتها ومن هنا نجد صياغة اللغة يعني أن يقوم الشاعر بعملية اختيار التركيب للعناصر اللغوية حتى يخرج التعبير مؤثراً يعطي الدلالة بصورة واضحة للمتلقي، ولذلك كثرت الدلالات والصفات للاسم الواحد لاتساع رقعة الصحراء وانتشار البدو في أرجائها جماعات متفرقة، ونجد أن مفردات المطر لا تقل عن مفردات الطبيعة الأخرى في الصحراء عدداً وقرائن وأوصاف (وكان الجاهلي يقول للمطرة ، أهضوبة، أغصان، بعاع، برد، ثلة، نحلة، جود، دجن، رث، ذهاب، رهام، رجع، ربق، رباب، ، رزق، دش، رعاف، رذاذ، سحاب، ساجية، سح، شؤوب، صيب، صوب، صرب، طش، عرض، عضانين، غيث، غريض، فطر، قطقط، موار، مزن، نقضه، هطل، هفاء، وسمى وبل، ودق، كف، وطفاء"[١]. وأتت قائمة النباتات في الصحراء والتى أفردنا لها مبحثاً في بداية البحث وأتت في ثنايا قصائدهم تعبر عن تشبيهاتهم وفي مدحهم ووصفهم فقد شبه امرؤ القيس ما جرى من دمعه لفقد أهل الدار بما يسيل من عين ناقف الحنظل في قوله:

كأني غداة البين يوم تحملوا * لدى سمرات الحي ناقف حنظل**[٢]

وحملت أشعارهم أسماء الورود كشقائق النعمان وهو زهر أحمر اللون فشبهوا به الدم، وعرق الكافور والزنبق والقرنفل والياسمين... إلخ.

أما الحيوان فقد أخذ قسطاً وافراً من مفردات اللغة الشعرية فقيل للناقة مقذوفة دلالة على كثرة لحمها وعزافرة وهي الشديدة التحمل، الوجناء من النوق وهي ذات الوجنة الضخمة، جمالية وهي الوثيقه التي تشبه بالجمل في خلقها وشدتها، وعظمها . عرمس وهي الصلبة الشديدة فشبهت بالصخرة، غلباء وهي الغليظة الرقبة، ، علنداة وهي الناقة الضخمة الطويلة، مذكرة وهي الناقة الشديدة، عرندس وهي

---

(١) المفضليات، المفضل الضبي، الجزء الثاني، ص١٦٥.

(٢) ديوان أمرئ القيس، ص ١١١.

الشديدة القوية، عنتريس وهي الصلبة الوثيقة الشديدة الكثيرة اللحم، دوسرة وهي الضخمة الشديدة، عاقر وهي القوية، وغيرها كثيراً من الأوصاف التي وردت في أشعارهم أما التي تحمل طابع السرعة وتسمى الناجية، والعتاق، وهي النوق الكريمه، والجنوح وهي التي تجنح في سيرها، والرفاق وهي المسرعة، أما العندل وهي الضخمة، وجاء ذكر الناقة الطليح وهي المهزولة، مذعورة وهي الخائفة.

ومن المعاني والصفات المستمدة من الصحراء صفة القوة والصلابة ولذا أتت مسميات المفردات فيها تحمل صفات ومعاني القوة والشدة كالجبال والحجارة، والحرارة، والهجير، والشتاء القارص، والأمطار التي تقلع الأشجار، والقفار والصحارى الممتدة، وقسوة المسير والترحال، والصعلكة وما تحمله من مفاهيم ومعاني، والحروب والثأر.

وأما مفردات الحرب في اللغة فقد كان لها حظ وافر في التداول في أشعارهم فوردت الألفاظ والأوصاف والأسماء التي تعبر عنها فالسيف من الوسائل المستعملة في الحرب بجانب القوس والسهم والرمح والدرع وأتى عدد منها في ثنايا قصائد تحمل طابع الفخر والمدح. يقول عمرو بن كلثوم ذاكراً تلك السيوف المستعملة في الحرب ومشبهاً لها بالمخاريق لكثرتها:

كأن سيوفنا منا ومنهم * مخاريق بأيدي لاعبينا**(١)

ويقول عنترة:

ولقد ذكرتك والرماح نواهل * مني وبيض الهند تقطر من دمي(٢)**

ويقول عمرو بن كلثوم واصفاً عدداً من الأسلحة المستعملة كقوله:

علينا البيض واليلب اليماني * وأسياف يقمن وينحنينا**

علينا كل سابغة دلاص * ترى فوق النجاد لها غضونا**(٣)

---

(١)شرح القصائد العشر ص٣٠٠.

(٢) ديوان عنترة بن شداد ص ١٢٣.

(٣) شرح القصائد العشر التبريزي، ص ٣١٥-٣١٦.

واللغة المستخدمة بين أفراد المجتمع في الصحراء تأخذ معانيها وروحها وفكرتها من وحي البيئة المحيطة، وتطير في الصحراء أسرع من الرياح تحمل المعنى واللفظ والمدلول والمغزى في طياتها، والشعر هو الوسيلة الناقلة السريعة فتحدث أثرها العظيم في أرجاء الصحراء، وظل الشعر أيضاً يحمل معاني الكرم والمروءة والشهامة والشجاعة والقوة والإقدام والإيثار والخلق القويم والعفة، وأن الحياة فيها تعتمد على الترحال المستمر والذي بدوره يحرمهم من العلم والتعلم الذي يحتاج إلى استقرار ولكن على الرغم من ذلك تحصلوا عليه بالدربة والتجربة والمعاينه والفكرة الثاقبة فعرفوا شتى مناحي الحياة الصحراوية فخبروا النجوم ومواقعها وسخروا معرفتهم بها لمعرفة قوافل التجارة، وأطالوا النظر إلى مصادر رزقهم فنظروا إلى السحاب والمطر، ومن المعارف التي جادت لهم من البيئة الصحراوية واكتسبوها وتشهد لهم بالذكاء ودقة الملاحظة .

الفراسة معناها معرفة أخلاق الناس من هيئتهم وآثار أقدامهم وحياتهم الاجتماعية، وكان للصيد والأنس والخمر مفردات ومعاني أثرت معاجم اللغة بعدد منها.أوضحناها في مباحث سابقة، ونجد أن اللغة المستعملة في الشعر العربي القديم هي لغة جزلة غالباً، (والجزل من الكلام هو الذي تعرفه العامة إذا سمعته ولا تستعمله في محاوراتها[١]).

يقول ابن الأثير إن الألفاظ تنقسم في الاستعمال إلى جزلة ورقيقة ولكل منها موضع يحسن استعماله فيه، فالجزل منها يستخدم في وصف مواقف الحروب وفي قوارع التهديد وأشباه ذلك. أما الرقيق فيها فإنه يستعمل في وصف الأسواق وذكر أيام البعاد وفي استجلاب المودات وملاينات الاستعطاف وأشباه ذلك ولست أعني بالجزل من الألفاظ أن يكون وحشياً متوعراً عليه بل أعني أن يكون متيناً على عذوبته في الفم ولذاذاته في السمع[٢].

---

(١) كتاب الصناعتين للكتابة والشعر تصنيف أب هلال الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري حققه وضبطه الدكتور مفيد قميحه دار الكتب العلمية الطبعة الثانية ١٩٨٦م – ص ٦٤.

(٢) المثل السائر،تأليف ابن الأثير، قدمه وحققه وعلق عليه الدكتور أحمد الحوفي والدكتور بدوي طبانة الناشر دار النهضة بمصر الفجالة ١٩٦٠م ص ٦٥.

الألفاظ والمعاني بدأت في النقد الأدبي الحديث (عند تساؤل النقاد عن إعجاز القرآن الكريم هل هو معجز بلفظه أم بمعناه ثم نقلوا التساؤل إلى الشعر)[١].

(وقد عرف العرب اليهودية والنصرانية وعبادة الكواكب كما عرفوا عبادة الملائكة والجن وتسربت إليهم المجوسية، نجد أن هذه الأديان جميعاً لم يكن لها ذيوع وشيوع كالوثينة فكان تأثير عقليتهم وعقائدهم في أدبهم)[٢].

---

(١) دلائل الإعجاز تأليف الشيخ الإمام أبي بكر عبدالقادر بن عبدالرحمن بن محمد الجرجاني قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر . الناشر مطبعة المدني بجدة الطبعة الثالثة ١٩٩٢م ، ص٢٦١.

(٢) الأدب الجاهلي قضاياه – أغراضه – أعلامه – فنونه، د. غازي طليمان عرمان الأشقر. ص٤٣.

الفصل الثالث

الأسلوب – الخيال والتصوير .

الأسلوب

الأسلوب في معناه العام هو وسيلة أداء المعنى الأدبي في النص، فيشمل الألفاظ والتراكيب والجمل والصور الشعرية والموسيقى والإيقاع.

وفي اللغة: "يقال للشطر من النخيل أسلوب وكل طريق ممتد فهو أسلوب، قال: والأسلوب الطريق والوجه والمذهب... ويجمع على أساليب، والأسلوب الطريق، والأسلوب بالضم الفنّ"(١).

واصطلاحاً: يقترب من المعنى اللغوي فهو طريقة بناء النص وهو الثوب العام الذي يحتوي الأفكار والعواطف للنص الأدبي[٢].

وأما أسلوب القصيدة في العصر الجاهلي فهو طبقاً لما كان عليه المجتمع البدوي في الصحراء لبعده عن الحضارة والترف، وظهرت في معاني القصيدة وألفاظها الغلظة وعزة النفس العربية وخشونة الحياة البدوية وحدة الطبيعة الصحراوية والتي تكثر من الاعتماد على الصور الحسية، وكان أسلوب الشعراء أسلوب رصين وقوي تم عن دراية وخبرة ومعرفة بأسباب الحياة رغم قصر التعليم والتعلم، ولكن كان للصحراء دور في توجيه الفكر والعقل والإحساس للتدبر والوقوف على أسرار الحياة وكنهها، وكان العرب في ذلك الوقت يدينون بدين الوثنية فيعبدون الأصنام، ولوحظ أنهم لم يكن كلهم يعتقدون في الأصنام فقد ظهرت في أشعارهم بعض الألفاظ التي تدل على التوحيد ولذلك كان له أثره في الأسلوب في توجيه المعاني والألفاظ كما في شعر زهير وهو عالم بخفايا الأمور يقول:

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم * ليخفى ومهما يكتم الله يعلم**[٣]

ويقول امرؤ القيس:

---

(١) لسان العرب، ابن منظور، ج١ ص ٤٥٦ مادة (سلب) .

(٢) النقد الأدبي الحديث، علي جابر المنصوري، ص ٢٨٤.

(٣) ديوان زهير، ص٤٢، يقول (إن الله يعلم السر فلا تكتموه وأن في أنفسكم الصلح وتقولون لا حاجة لنا إليه) .

فقالت يمين الله مالــك حيلــة * وما أن أرى عنك الغواية تنجلي**(١)

ثم يشكر الله بجملة "الحمد لله" في هذا البيت في قوله:

أرى أبلى والحمد لله أصــبحت * ثقالاً إذا ما استقبلتها صــعودها**(٢)

ولعل أوضح ما ورد في شعر الجاهليين الأبيات المنسوبة إلى عبيد بــن الأبــرص والتي تدل على أن فهمه لله قريب من مفاهيم الإســلام والموحــدين ولــذلك أتــى الأسلوب بصورة مطمئنة جيدة يقول:

مــن يســل النــاس يحرمــوه * وســـــائل الله لا يخيـــــب**(٣)

وقد تناول الشاعر الجاهلي ما سهل من المعاني من محيطه ولا يلجأ للمعاني العميقة التي لا توجد أصلاً في فهمه وحياته وبيئته فهو يتحرى الحقيقة والواقع وقــد اهــتم بجمال المطلع والبيت المفرد وما يتضمنه عن صور ومعاني.

ونجد أكثر أساليب الشعراء في الجاهلية الــذين عاشــوا فــي الصــحراء، والأسلوب الخطابي أكثره إذ أنه يناجي الحسية من المشاهد عن ناقته ويرد له فرسه بعبرة وتحمحم ، ويشكو تعبه ونصبه فيصف الطريــق ومشــكله، ونجــد عنصــر الخطاب الموجه للجماعة هو السائد فتأتي صلبة قوية في مبناها.

ونجد الطبيعة من حول الشاعر ظاهرة لا غموض فيها بكل قوتها وحرارتها ولذا جاء تصويره صادقاً مخلصاً صورها تصويراً دقيقاً ولذا أتى الأدب متشابهاً في إيقاعه ونظمه كتصوير امرئ القيس في وصفه لليل وتساقط المطــر علــى الجبــل والسباع والطيور بقوله:

كأن أباناً فــي أفــانين ودقــه * كبير أنــاس فــي بجــاد مزمــل**

كأن ذرى رأس المجيمر غدوة * من السيل والإغثاء فلكه مغــزل**(٤)

---

(١) ديوان امرئ القيس،ص ١١٤.مالك حيلة: لا أجد لك حيلة، الغواية: الجهالة، تنجلي: تنكشف.

(٢) المصدر السابق، ص ٥٧، ثقالاً : يريد ثماراً أو بما حملت من الخيرات .

(٣) ديوان عبيد الأبرص، ص٢٦.

(٤) ديوان امرئ القيس، ص ١٢٢، فقد شبه الجبل وقد غطاه الماء والغثاء الذي أحاط به إلا رأسه بشيخ فــي كساء مخطط وذلك أن رأس الجبل يضرب إلى السواد والماء حوله أبيض، فكأن الجبل فلكة مغزل لما جمع السيل حوله من الغثاء

ولذا نجد غالبية الألفاظ تحمل معاني الخشونة والقوة والحدة وأتت ألفاظاً عديدة في شعر امرئ القيس مثل عرصاتها – السجنجل) وفي شعر الأسود بن يعفر[1]: (شملال – ديموما – مهامهاً – الضوالح فروقاً) كما في قوله :

وسمى المشي شملال قطعت بها * أرضاً يجار بها الهادون ديموما**
مهامها وفروقاً لا أنيس بها * إلا الضوالح والأصداء والبوما[2]**

ويقول لبيد:

يعلو بها حدب الأكام مسحج * قد رابه عصيانها ووحامها[3]**

إذن اللغة أداة البيان والتعبير المثلي والصحراء بمضمونها الدلالي أثرت اللغة العربية بفيض من الألفاظ والمفردات التي وظفها الشعراء لأنهم شبوا وترعرعوا وولدوا فوق سهولها ووديانها.

وكما ذكرت هناك كثير من المعاني التي تدل على الصلابة والشدة والقوة والغلظة والصبر والجرأة، ولذلك أتت مثل مقذوفة للناقة الكثيرة اللحم، عذافرة الناقة الشديدة التحمل، الوجناء من النوق هي ذات الوجنة الضخمة، جمالية هي الناقة الوثيقة التي تشبه بالجمل في شدتها، عرس هي الناقة الصلبة فشبهت بالصخرة، غلباء هي الناقة الغليظة الرقبة.

وهناك بعض المعاني التي تدل على الحرب والفخر وأتت ألفاظها تحمل ذات المعاني مثل الظلم، الظالمينا، تخر الجبابر، ساجدين، يجهل الجاهلين. يقول عمرو بن كلثوم في معلقته:

نسمى ظالمين وما ظلمنا * ولكنا سنبدأ ظالمينا**
إذا بلغ الفطام لنا صبي * تخر له الجبابر ساجدينا**

---

(١) الأسود بن يعفر هو الأسود بن يعفر النهشلي الدارمي التميمي أبو نهشل وأبو الجراح شاعر جاهلي من سادات تميم من أهل العراق كان فصيحاً جواداً نادم النعمان بن المنذر وسن وكف بصره يقال له أعشى بن نهشل أشهر شعره داليته ، توفي نحو ٢٢ق هـ ـ أنظر الأعلام للزركلي ج١ ص٣٢١.
(٢) الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني، الجزء الأول، ص٣٢٠.
(٣) ديوان لبيد بن أبي ربيعة، ص١٦٩.

ألا لا يجهلـــن أحـــد علينــــا * فنجهل فـــوق جهـــل الجاهلينـــا**(١)

يقول ابن الأثير إن الألفاظ تنقسم في الاستعمال إلى جزلة ورقيقة ولكل منها موضع يحسن استعماله فيه، فالجزل منها يستخدم في وصف مواقف الحروب وفي قوارع التهديد وأشباه ذلك، أما الرقيق منها فإنه يستعمل في وصف الأشواق وذكر أيام البعاد(٢). كقول طرفة في معلقته:

وفي الحي أحوى ينفض المرد شادن * مظاهر سمطي لؤلؤ وزبرجــد**(٣)

فالأحوى هو ظبي له خطان سود وله حوة في الشفاه وإنما أراد حور مدمع عينيـــه، المرد: فرع الأراك، النفض: ما سقط من النفض مظاهر، سمطى: يلبس بعضه فوق بعض.

وبعض المعاني تأتي سلسة رقيقة تسري كسريان النسيم فيأتي الخيال تحمله نســمات الصبا على أعناقها كقول سويد في معلقته:

بســطت رابعـــة الحبـــل لنــــا * فوصلنا الحبل منهـــا مـــا اتســـع**

حـــرة تجلـــو شـــتيتاً واضـــحاً * كشعاع الشمس في الغـــيم ســـطع**

صـــــقلته بقضـــــيب ناضـــــر * مـــن أراك طيـــب حتـــى نصـــع**

أبـــيض اللـــون لذيـــذاً طعمـــه * طيب الـــريح إذا الريـــق خـــدع**(٤)

ولذلك أتى الأسلوب يحمل جانب الرقة سهل تتابعه الألفاظ تحمل المعاني التـــي تنسجم معها من وحي البيئة .

وهكذا يظل هذا الخلاف قائماً بين النقاد في هذه القضية لأن المعـــاني متجـــددة والألفاظ والمسميات كذلك.

---

(١) شرح القصائد العشر التبريزي، ص ٣٢٤.

(٢) المثل السائر، تأليف ابن الأثير، ص ٦٥.

(٣) ديوان طرفة بن العبد، ص٦٩.

(٤) شعراء النصرانية، لويس شيخو، ص٤٢٦-٤٢٧.

فنجد أن الفطرة السليمة جديرة بأن تولّد عقلاً متفتحاً نقياً يأتي بمكنونات الحياة في أنقى وأبهى صورها وأزكى صفاتها وأنبل أخلاقها، وقد تميز الأسلوب في العصر الجاهلي بخصائص عديدة منها:

أ)القصد إلى المعني بإيجاز دون اطناب أو تطويل أيضاً قلة المحسنات البديعية لعدم إلمامهم بذلك وما ورد جاء عن طريق الفكر الثاقب والذوق المستقى من البيئة الصحراوية .

ب) الابتداء في قصائدهم بذكر الأطلال وذكر الديار والترويح عن النفس بالتشبيهات القريبة المستقاة من الصحراء .

ج) قوة الأسلوب في شدة اللفظ ودويّة. يقول امرؤ القيس:

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه * وأيقن أنا لاحقان بقيصرا**

فقلت له لا تبك عينك إنما * نحاول ملكاً أو نموت فنعذرا**[1]

ومن تلك الخصائص القصد إلى الغرض أو الموضوع بوضوح، وفي بلاغة وسحر ودقة وتصوير بديع شفاف، وقد برز في كثير من أشعارهم، "وللبيئة أثر على الأساليب التي يعبر بها الأحياء فعندما ندرس الأساليب العربية في أطوارها المختلفة عبر عصور التاريخ، نجد أن ما نالها من صور مختلفة متأثر بأسباب علمية وذوقية حكمت الأساليب والأخيلة"[2]. وهذا بالطبع له أثره في أسلوب الشعر وألفاظه المكونة.

---

(١) ديوان امرئ القيس، ص٦٤.

(٢) النقد الأدبي الحديث، د. علي جابر المنصوري، ص٣٤.

الخيال والتصوير:

الخيال في العصر الجاهلي مستمد من تحركات الأشياء من حول الشاعر فصورها في مشهد بهي استطاع أن يحرك كل هذه الأشياء من حوله حسب الخيال الذي تطرق إليه، فيأتي خياله من الطبيعة ويأتي أحياناً يعبر عنه وهو طيف الحبيبة فكيف لا وأن طيفها يكون سلوى له من مشاق حياة الصحراء.

الخيال لغة: ما تشبه لك في اليقظة والحلم من صور... والخيال خيال الطائر يرتفع في السماء فينظر إلى ظل نفسه(١). وهو عملية توليد الصورة والتي وظيفتها تصوير الحقائق النفسية والأدبية)(٢).

والخيال "هو الأب الشرعي للصورة أو الرحم الذي يتخلق فيه الشعر بل خيال جثة هامدة لا قيمة لها، فالخيال مقام الشعر"(٣)، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾(٤).

والخيال والتصوير هما أساس البيان وأساليبه الممثلة في التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز، فكل أسلوب في الغالب يعقد المقارنة بين شيئين يمثلان طرفي الصورة كقول امرئ القيس :

وليل كموج البحر أرخى سدوله * عليّ بأنواع الهموم ليبتلي**
فقلت له لما تمطى بجوزه * وأردف أعجازاً وناء بكلكل (٥)**

ففي البيت الأول التصوير يقوم على التشبيه وفي الثاني يقوم على الاستعارة وفي قوله :

---

(١) لسان العرب، ابن منظور، ج١١ ص ٢٣٠. مادة (خيل) .

(٢) النقد الأدبي الحديث : محمد غنيمي هلال. الناشر دا النهضة العربية القاهرة الطبعة الرابعة ١٩٦٩ ص١٦١.

(٣) التقليد والتجديد في الشعر العباسي، د. سلام مصيلحي عبد الله، دار المعرفة الجامعية، الأسكندرية، ١٩٩١م.ص٤٧.

(٤) سورة طه، الآية ٦٦.

(٥) ديوان امرئ القيس، ص١١٧.

فيـــا لـــك مـــن ليل كأن نجومه * بكل مغار الفتـــل شـــدت بيـــذبل**[1]

فهنا كناية عن طول الليل .

فالشاعر سويد الذي كان يعاني إحساساً بالصبابة عاوده الإحساس بذلك بعــد أن كبر فغنى الغناء الذي تشوبه وتخالطه ظلال الضعف بعد أن ذهبت الجــدة منــه والربع، فقد وصف أشواقه وخيال بيئته وحاله وليله ونهاره فأتت كل تلك معبرة عما يحس به. يقول:

بســـطت رابعـــة الحبـــل لنـــا * فوصلنا الحبـــل منهـــا مـــا اتســـع**

حـــرة تجلـــو شـــتيتاً واضـــحاً * كشعاع الشمس فـــي الغـــيم ســـطع**

صـــــقلته بقضـــــيب ناضـــــر * مـــــن أراك طيـــــب حتـــــى نصـــــع**

أبـــيض اللـــون لذيـــذاً طعمـــه * طيـــب الـــريح إذا الريـــق خـــدع**

تمنح المرآة وجهـــاً واضـــحاً * مثل قرن الشمس في الصحو ارتفع**

صافي اللون وطرفـــاً ســـاجياً * أكحـــل العينـــين مـــا فيـــه قمـــع**

هـــيج الشـــوق خيـــال زائـــر * مـــن حبيـــب خفـــر فيـــه قـــدع**

كم قطعنا دون ســـلمى مهمهـــاً * نـــــازح الغـــــور إذا الآل لمـــــع**

في حرور ينضج اللحـــم بهـــا * بأخـــذ الســـائر فيهـــا كالصـــقع**[2]

ولما كان الشعر مادته الخيال، والخيال غذاؤه الحس، والعربي لا يرى من المنـــاظر غير وجوه البادية ولا يسمع من الأقاصيص إلا البطولة والحرب، ولا يعـــرف مـــن الجمال إلا جمال المرأة أبدع في وصف ما شاهده من حيوان وسهل وجبل[3].

تحدث بعض الكتاب عن محدودية الخيال للشاعر الجاهلي باعتبار اقتصـــار البيئة الصحراوية ومحدوديتها للمشاهد التي فيها، وهذا ليس بسليم لأن الصحراء

---

(١) ديوان أمرئ القيس ، ص١١٧، مغار الفتل: الحبل المفتول جيداً، يذبل، جبل ويروى :

فيا لك من ليل كأن نجومه – بأمراس كتان إلى صم جندل

(٢) شعراء النصرانية: لويس شيخو، ص ٤٢٦–٤٢٧. الحبل: العهد والميثاق معناه طاوعني فاشتد : شد الحبل على مرادنا .

(٣) تاريخ الأدب العربي، أحمد حسن الزيات، ص٣١.

واسعة ممتدة وغنية بمشاهدها ومواردها ومفرداتها ومكوناتها، فللشاعر خيال واسع يصور كل مكون في الصحراء وليس لديه الخيال التجريدي ولكنه خيال يتسق مع بيئته وموطنه وما يدور حوله من مناظر وماديات، وقد شغف الشعراء في ذلك العصر بالحديث عن خيالهم وكثر ذلك عندهم . يقول عنترة بن شداد يقلب فكره في الترحال والسفر:

فقلبي هائم في كل أرض * يقبل إثر إخفاف الجمال**
وجسمي في جبال الرمل ملقي * خيال يرتجي طيف الخيال**(١)

والأعشى يقلب فكره وخياله ويتراءى له طيف حبيبته يقول:

ألمّ خيال من قتيلة بعدما * وهي حبلها من حبلنا فتصرما**
فبت كأني شارب بعد هجعة * سخامية حمراء تحسب عندما**(٢)

يقول طرفة بن العبد:

فقل لخيال الحنظلية ينقلب * إليها فإني واصل حبل من وصل**(٣)

وإذا كان الخيال عند الشاعر الجاهلي يحوم حول مكونات الصحراء ومعالمها فإن بعضهم كما ذكرت حام حول خيال الحبيبة، وأصبح يتعشقه ويهيم به لعله يخفف عنه شوقه، وقد تطرق إليه كثير من الشعراء.

يقول الحارث بن حلزة وهو يصف رحلته الذهنية وخياله الطارق يقول:

طرق الخيال ولا كليلة مدلج * سلكاً بأرحلنا ولم يتعرج**
إني اهتديت وكنت غير رجيلة * والقوم قد قطعوا متان السجسج**(٤)

---

(١) ديوان عنترة بن شداد، ص١٠٤.

(٢) ديوان الأعشى، ص ١٨٦، السخامية : الخمرة.

(٣) ديوان طرفة بن العبد، ص ٨٨.

(٤) ديوان الحارث بن حلزة، ص٤٢. المدلج: الذي يسير في الليل كله، السلك: المُلازم، لم يتعرج: بـم يقـم، الرجيلة: القوية على المشي، المتان: جمع المتن وهو ما صُلب من الأرض، السجسج: الأرض الواسعة – يقول: لم أر كليلة: أدلجها إلينا هذا الخيال من هولها وبعدها منّا.

فالخيال تناوله بعض الكتاب بالتعريف "ويشير استخدامنا اللغوي لكلمة الخيال إلى القدرة على تكوين صورة فنية لأشياء غابت عن متناول الحس، ويظهر جانب القيمة الذي يصاحب كلمة الخيال في المصطلح اللغوي المعاصر"(١).

ولقد تهيأ للنابغة تشبيه رحلة ناقته بثور الوحش الذي يرتسم الذعر في عينيه، ويرتسم الجوع على مصيره، وإمعاناً في الذعر والمكابدة تمطر الجوزاء وترشقه بالثلج فيأتي خياله حاملاً كل تلك المعاني بقوله:

من وحش وجرة موشي أكارعه * طاوي المصير كسيف الصيقل الفرد**

سرت عليه من الجوزاء سارية * تزجي الشمال عليه جامد البرد**

فارتاع من صوت كلاب فبات له * طوع الشوامت من خوف ومن صرد**

فبثهن عليه واستمر به * صمع الكعوب بريات من الحرد**

فهاب ضمران منه حيث يوزعه * طعن المعارك عند المحجر النجد**

شكّ الفريصة بالمدري فأنفذها * شك المبيطر إذ يشفي من العضد**

فظلّ يعجم أعلى الروق منقبضاً * في حالك اللون صدق غير ذي أود(٢)**

ويقول شوقي ضيف "ونظره إلى الشعر الجاهلي كفيله بتوضيح الجهد الذي كان يبذله الشعراء في إنشاء قصائدهم من وزن واحد وقافية واحدة من خصائصه الخيال والتصوير، فالقصيدة مرسومة بقيود ومصبوغة بصبغة ليس للنثر"(٣).

فخيال الشاعر البدوي واقعي ويتناول المألوف من المناظر فتتكامل الصورة في البيت وتعطي المعنى المفهوم. يقول امرؤ القيس مصوراً إحدى رحلاته:

وقد اغتدي والطير في وكناتها * بمنجردٍ قيد الأوابد هيكل(٤)**

---

(١) الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، د. جابر المنصوري، طبعة ١٩٨٣م، ص١١١.

(٢) ديوان النابغة الذبياني، ص ٦-١٢.

(٣) الفن ومذاهبه في الشعر العربي، د. شوقي ضيف، دار المعارف مصر ١٩٦٥م ص ٣٣٣.

(٤) ديوان امرئ القيس، ص ١١٨.

ويقول أيضاً:

كأن عيون الوحش حول خبائنا * وأرحلنا الجزع الذي لـم يثقــب**[1]

فالشاعر لا ينقل الصورة مباشرة من الطبيعة بل تكون فيها لمسات فنية وتلمس جمال التلوين وهو في غاية الروعة في قوله:

فعنَّ لنا سـرب كـأن نعاجـه * عـذارى دوارٍ فـي مـلاءٍ مـذيّل**
فأدبرن كالجزع المفصل بينـه * بجيد معمٍ في العشـيرة مخـول**[2]

ولأهمية الخيال في القصيدة والعمل الأدبي على وجه العموم يقول الدكتور الطاهر محمد علي "إن الإلمام بجزئيات الحياة وحقائقها لا يصنع وحده أدباً فلابد من وجود العاطفة والخيال الأدبي الذي يرقى به ليكون أدباً[3].

(والخيال البعيد التجريدي لم يلمسه الشعراء والخيال ينطلق من حدود الكرة"[4]، فقد أتت القصيدة العربية معبرة عن الواقع في الصحراء بمقدمات متنوعة منها مقدمات الأطلال والظعن والنسيب والخيال والفروسية والخمر والغزل العذري والحسي... إلخ، كما تنوعت الأغراض في القصيدة الواحدة (وكثر ذلك في المعلقات من فخر ومدح ووصف ورحلة وظعن وصيد إلى غير ذلك من الحاجات التي تدور في خلد الشاعر فيبوح بها مرتبطة ببعضها مستقاة من واقعه

---

(١) ديوان امرئ القيس ، ص ٣٧. الأرحل: جمع رحل وهو حمل البعير، الجزع: الخرز اليماني – وهو الذي فيه سواد وبياض.

(٢)المصدر السابق ، ص ١٢٠. عنّ: عرض، السرب: قطيع البقر، النعاج: البقر الوحشي، عذارى دوارٍ: أبكار يدرن حول صنم، المُلاء المذيل: الثياب الطويلة، الذيل: الجزع – الخرز اليماني الذي فصل بينه ببياض وسواد وقد جعل ذلك الخرز في صيد رجل كريم الأعمار والأقوال كناية عن قيمته الكبيرة.

(٣) الملامح العامة لنظرية الأدب الإسلامي، د. الطاهر محمد علي، دار جامعة أم درمان الإسلامية للطباعة والنشر الطبعة الاولى ١٩٨٤م، ص ١٠.

(٤) مشكلة السرقات في النقد الأدبي، تأليف الدكتور محمد مصطفى هدارة، الطبعة الثالثة، ١٩٨١م، المكتب الإسلامي، بيروت، ص ٩٣.

فيأتي بمقدمة غزلية تربطه بحب الناس والأرض والخير وطيف خيال ما لم يرسم طموحه الكبير وفروسية تدفع عنه عاديات الزمن[١].

وتتمتع القصيدة الشعرية القديمة بوحدة فكرية تربط بعضها ببعض بوشائج مرتبطة بوحدة ذهنية وفكرية وخيال متقد يربط بين هذه المتعلقات وروح الصحراء، (إذ أن نوعية الخيال وإمكانياته وفاعليته هي ما تميز الفنان المبدع من غيره ولا تفضل قيمة الشاعر في مثل هذا التصور عن قدرته الخيالية التي تمكنه من التوفيق بين العناصر التي تجعله يكتشف منها علاقات جديدة)[٢].

يعبر الشاعر تعبيراً صادقاً عن واقعها من خلال مفردات البيئة (فالحياة نجم والموت أفوله، والشباب قمر والشخيوخة غيابه، والحبيبة مطر وفراقها جدب... الكرم سيل والمستحيل ثريا، والمجد سماء والشر ريح سموم)[٣].

فالشاعر يستقي خياله من واقعه المصور بالزمان والمكان في رحابة الصحراء الممتدة (إذ أنه لا يشبه حبيبته بزهرة النرجس أو طائر النورس ولا يشبه عدوة بالغورلا أو الشمبازي أو القرش... فللبيئة ضغطها الذي يمتد على الخيال)[٤].

فالشعراء من رؤاهم وخيالهم يحبكون تشبيهاتهم ويقولون: (أهدى من النجم، وأجود من الريح، وأصبح من الصبح، وأسمح من البحر، وأنور من النهار، وأسود من الليل، وأمضى من السيف، وأوحش من مفازة، وأثقل من جبل"[٥].

ولذلك نجد الخيال والإحساس والتفكير لديهم ينصب في مفردات تلك البيئة الفسيحة ولذلك تنعكس هذه الرؤى في المعاني والصور والتراكيب والمشاهد والتعابير والصيغ والألفاظ والتشبيهات والاستعارات والأحداث كلها.

وحالة عدم الاستقرار في الصحراء والترحال المستمر للبدو، فالشاعر يرحل عنه أهله وأحبابه فيشغل فكره ويشغف قلبه فكان الخيال هو سلوانه لتقرب حبيبته

---

(١) النقد الأدبي الحديث، الدكتور علي جابر المنصوري، ص ٨٢.

(٢) الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، د. جابر المنصوري، ص ١٤.

(٣) الخطاب الإبداعي الجاهلي والصورة الفنية، تأليف د. عبد الله الصائغ،ص٢٠١.

(٤) المرجع السابق ، ص ٢٠١.

(٥) العقد الفريد، ابن عبد ربه، الجزء الثالث، ص١٠.

فيأتي طيفها وخيالها له بقرب حبيبته ومحادثتها، ولذلك كثر هذا الضرب في الشعر فأتى طيف الحبيبة وعبروا عنه بصور شتى.

يقول عمرو بن قميئة:

تأتك أمامة إلا سؤالا * وأعقبك الهجر منها الوصالا**

وحادت بها نية غربة * تبدل أهل الصفا الذيالا**[١]

وقد اتضحت صورة الطبيعة في الغزل مثلاً من السهام والدروع والجيوش والطيور تغني وهذا التأثير من طبيعة المكان الذي يلازم الشاعر فيه خياله فانطبعت هذه الصورة في ذهنه.

الغالب في الشعر الجاهلي كثرة استخدام الصور الحسية وهذه الصور المستقاة من الصحراء تجعل نفاذ الأفكار والمعاني إلى ذهن المتلقي أكثر سهولة فضلاً عن أنها أقوى وأعمق في الدلالة على المعنى والإحساس به من الصورة الذهنية المتخيلة.

"أتى الشاعر البدوي في أشعاره بتصوير بديع نابع من الطبع السمح والفكر الواضح بقوة المعنى ونصاعة الخيال، ويلتزم الصدق في تصويره ووصفه".

(والتصوير هو التعبير بالصورة المحسنة المتخيلة عن المعنى الذهني والحالة النفسية وعن الحادث المحسوس والمشهد المنظور وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المتجددة[٢].

فقد كان الشاعر يصور الأرض التي عشقها والمناخ الذي أطنب في نقل وقائعه والمناظر التي أفاض في تصوير ألوانها وأصواتها وهدير الحياة فيها. فيأتي الشاعر بالصورة مجتمعة فيلقي فيها مسحة جمالية خيالية فأتي خياله معبراً لتتكامل اللوحة.

---

(١) ديوان عمرو بن قميئة،شرح حسني كامل الصيرفي، مطابع دار الكتاب العربي بدون، ص١٥٨. النية : مثل النوى وهي الوجهة الذي ينويه المسافر، نية غربة بعيدة، الذيال: الفراق.

(٢) التصوير الفني في القرآن الكريم، سيد قطب، ط٧ بيروت دار الشرق ١٤٠٣هـ ١٩٨٢م ص٣٤.

وهناك صورة أخذها النابغة وغيره من الشعراء من بعده صورة الطير وهي تحلق فوق جيشة لتأكل من جثث القتلى وهي طيور مدربة دالة على عظم وقوة وشجاعة وبطش ممدوحيه بأعدائه. يقول النابغة:

إذا ما غزا بالجيش أبصرت فوقهم * عصائب طير تهتدي بعصائب**

يصانعهم حتى يغرن مغارهم * من الضاريات بالدماء الدوارب**(١)

ويقول عنترة بن شداد في نفس هذا المعنى :

وإذا غزوت تحوم عقبان الفلا * حولي فتطعم كبد كل غضنفر**(٢)

وقد أخذ هذه الصورة أبو نواس(٣) من بعد فأوجز في المعنى وأضاف إليها إضافات يقول.

تتأبى الطير غدوته * ثقة باللحم من جزره**(٤)

فأوجز الصورة وركزها وأضاف إليها حساً جديداً يأتي في كلمة جزرة، فالطيور تنظر بشوق ولهف لزمن خروجه، وجزره هنا تعني أنه متمكن من أعدائه وعند وصوله يجزر أعدائه ولا توجد هذه الصورة عند النابغة، وأخذ المعنى أبو تمام وجاء بصورة تحمل هذا المعنى بقوله:

وقد ظللت عقبان أعلامه ضحى * بعقبان طير في الدماء نواهل**

أقامت مع الرايات حتى كأنها * من الجيش إلا أنها لم تقاتل**(٥)

---

(١) ديوان النابغة الذبياني، ص٥٧-٥٨. الدوارب: المتعودات.

(٢) ديوان عنترة بن شداد، ص٧١.

(٣) أبونواس هو الحسن بن هاني بن عبد الأول شاعر العراق في عصره ولد في الأهواز من بلاد خوزستان ونشأ بالبصرة ورحل إلى بغداد أجود شعره خمرياته من آثاره ديوان شعر وله ديوان آخر سمي الفكاهة والإئتناس في مجون أبي نواس توفي ١٩٨هـ وبتاريخ ولادته خلاف قيل ولد سنة ١٣٠ – ١٣٦ – ١٤١ – ١٤٥ – ١٤٦هـ وقيل في وفاته ١٩٥ – ١٩٦ ١٩٨ هـ ــ أنظر الإعلام للزركلي ج٢ ص٢٢٥.

(٤) ديوان أبو نواس، ص ٥.

(٥) ديوان أبو تمام، ص ٨٢.

فقد أخذت الصورة شيئاً من الخيال، فالأعلام لها أعناق وكأنها طيور بيضاء نصبت أعناقها في السماء ثم أن هذه الأعناق قد ظللتها الطيور الجارحة، فالمقصود ليس أعناق الأعلام وإنما هو تظليلها بالطيور.

وقوله حتى كأنها من الجيش معنى أضافه الشاعر فقد تثبت هذه الطيور مع الجيش حتى صارت جزء منه، أما مسلم بن الوليد[1] فقد اقتصر الصورة بقوله:

قد عود الطير عادات وثقت بها * فهن يتبعنه في كل مرتحل**[2]

فهذه الطيور لا تتبع الممدوح وإنما تتبع الجيوش، وأتى أيضاً بهذه الصورة المتنبئ وجاء بصورة بديعة في هذا المعنى يقول:

يفدَّى أتم الطير عمراً سلاحه * نسور الفلا أحداثها والقشاعم**

وما ضرها خلق بغير مخالب * وقد خلقت أسيافه والقوائم**[3]

فقد ذكر الشاعر هذا النسور لسلاح الممدوح لأنه جعلها مستغنية عن مخالبها لأن سلاحه ييسر لها الطعام فأكلت من جثث قتلاه فلو خلقها الله من غير مخالب ما ضرها، فهذه الطيور لها عمر مديد ولكنها تتنازل عن هذا العمر والقشاعم هو المسن من النسور.

فقد لبست هذه الصورة أردية مختلفة وألوان متنوعة فهي صورة مستمدة من البيئة في سير الجيوش على امتداد الصحراء وتحلق هذه الطيور حولها ، ولذلك

---

(١) مسلم بن الوليد: هو مسلم بن الوليد الأنصاري المعروف بصريع الغواني شاعر غزلي هو أول من أكثر من البديع من أهل الكوفة اتصل بالفضل بن سهل فولاه بريد جرجان فاستمر إلى أن مات فيها سنة ٢٠٨هـ من آثاره ديوان شعر هو مولى سعد بن زرارة الخزرجي الشاعر المشهور كان فصيحاً بليغاً ــ أنظر النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٢ ص١٨٦ ــ الأعلام للزركلي ج٧ ص٢٢٣.

(٢) شرح ديوان صريع الغواني. مسلم بن الوليد الأنصاري، عني بتحقيقه والتعليق عليه د.سامي الدهان. دار المعارف بمصر، ص١٢.

(٣) ديوان المتنبئ، ص٢٧٩-٢٨٠. القشاعم: النسور الطويلات العمر، الملا: وجه الأرض، الأحداث: الشابة

ارتبطت بموقف الحرب وسرت مع الزمان وهذا دلالة على نفاذ البصـيرة وصـحة الخيال وصدق التصور.

ويرسم عنترة بن شداد صورة تسمعها وتراها متحركة. يقول مفتخراً بشجاعته:

جـادت يداي لـه بعاجل طعنة * بمثقـف صـدق الكعـوب مقـوم**

برحيبة الفرغين يهدى جرسها * بالليل معتس الـذئاب الضـرّم[(١)]**

فهو ينقل هذا المشهد الذي تسمع فيه صوت الضرب والطعن الذي يهـدي الحيـوان التائه في الصحراء بضربة واسعة في جسم ملاقيه.

وأمرؤ القيس حينما أراد أن يجسد صلابة فرسه وسرعة كره علـى العـدو وإدباره عنه حيث لا مجال للكر لم يجد ما يشبه به سوى حجر أو قطعة من الصخر دحرجها سيل قوي من مكان مرتفع وذلك في قوله:

مكر مفـر مقبـل مـدبر معـاً * كجلمود صخرٍ حطه السيل من علٍ[(٢)]**

وفي قوله:

له أيطلا ظبي وسـاقا نعامـة * وإرخاء سرحان وتقريب تتفـل[(٣)]**

فقد شبه خاصرتي فرسه في الضمور بخاصرتي ظبي وساقيها بساقي نعامـة فـي الصلابة والقوة وطول الفخذين، وهي صفات محمودة في الفرس وشبه عدوه بإرخاء الذئب وتقريب الثعلب، والمشبه به منتزع من حيوانات تعيش في الصحراء.

وأتى عمرو بن كلثوم بصورة بديعة فقد شبه تكسر الغدائر إثر هبوب الرياح عليها بغصون الدروع وهو منظر ألفه في بيئته يقول:

---

(١) ديوان عنترة بن شداد، ص ١٢٤ . صدق: قوي – معتدل، الرحيبة: الواسعة، الفرغين: مثنى فرغ فهو فـم الدلو الواسع، جرسها: صوتها، المعتس: الذي يحوم ليلاً، الضرم: جمع ضرم وهو الجائع يقول خرير الدم من هذه الطعنة يدل السباع فيأتين ليأكلن.

(٢) ديوان أمرئ القيس، ص ١١٩.

(٣) المصدر السابق، ص ١١٩.

كــأن متــونهن متــون غُــدْرٍ * تصــفقها الريــاح إذا جرينـــا**[1]

ويأتي الأعشى بصورة جلية تهتز جنباتها حركة وبهاء يقول:

تسمع للحلي وسواساً إذا انصرفت * كما استعان بريح عشــرق زجــل**[2]

فهنا نظر الشاعر إلى محبوبته فوجد تحته هذا النبات الصحراوي وتمثل في مخيلتــه تلك الصورة فهو نبت له عناقيد يكون فيها الحب فإذا يبست وهبت عليه الريح سَمع لها صوت .

وفي الصحراء كثير من الأحياء الكبيرة منهـا والصــغيرة، ومــن الصــور المألوفة في الصحراء أثر الوباء وهو صغار الجراد في الأرض السهلة المنبســطة، فقد نقل أوس بن حجر هذه الصورة فكانت في مخيلته ثم نظر إلــى ســيفه ووجــد الشطوب التي تُرى على صفحته فتراءت له صورتين فأتي بهما في قوله:

وأخــرج منـــه القينــــي أثـــراً * مذبٌ دبّا سودٍ سرى وهو مسهل**[3]

فقد شبه صورة أثر السيف في الأرض بالأثر الذي يتركه الجراد على الأرض حين يدب إليها وهو منحدر من سفح التلة إلى السهل.

ومن الصور المألوفة في فضاء الصحراء مشاهدة نجوم المجرّة في صــفاء السماء فنقل زهير بن أبي سلمى هذه الصورة وشبه به الطريق الواضح في قوله:

على لاحب مثل المجرة خلته * إذا ما علا نشزاً من الأرض مهرق**[4]

وفي فصل الخريق حيث تنهمر الأمطار بغزارة ساقطة على الأرض فقــد وظــف علقمة بن عبده الفحل هذه الخاصية "سرعة انهمار المطر" فشبه بها صورة جــري الفرس السريع وهو يعدو خلف قطيع من الشياه أو بقر الوحش فقال:

---

(١) شرح القصائد العشر ص٣١٦.

(٢) ديوان الأعشى، ص ١٤٤.

(٣) ديوان أوس بن حجر، ص ٩٥. القيني: الحداد الذي يصنع السيوف، الأثر: فرند السيف، مــزب: طريــق زحفة، مسهل: صخور في السهل أو طريق السهل.

(٤) ديوان زهير بن أبي سلمى، ص١٨٩، اللاحب: الطريق الواضح ، نشزاً : مكاناً مرتفعاً، مهرق: صــحيفة بيضاء .

فاتبع آثــار الشــياه بصــادقٍ * حثيث كغيث الــرائح المُتحلّــب**[1]

ومن المشاهد المألوفة في الصحراء قطعان الأغنام وهي ترعى ويكون خلفها راعياً يسوقها إلى المرعى دون أن تبدي مقاومة لذهابها للمرعى، فقد أخــذ علقمــة هــذه الصفة من الصورة المذكورة وشبه به قبيلة زيد بن تميم فيما يراه منهم من ضــعف وخور. يقول في تصوير هذا المشهد:

كأن زيد منــاةٍ بعــدهم غــنمٌ * صاح الرِّعا بها أن تهبط القاعا**[2]

وقد تكون الصورة حسية محسوسة ومعنوية معروفة فمــثلاً نجــدهم يكنــون عــن الضعيف بشجر السدر. قال المفضل النكري:

وجدنا السدر خــوّاراً ضــعيفاً * وكــان النبــع منبتــه وثيــق**[3]

وقاموا بتصوير السحاب فيذكرون اللون الأسود الملئ بالماء وفي إشــارتهم للقحــط بالسحاب الأحمر ويجسد لبيد الصورة ويضفي عليها حركة ومعاني فشبه الســحاب المتدلي بأعناق النعام وانكشاف البرق عند سواد الغيم يمثلها بحبشان بأيديهم حــراب يقول:

أرقت لــه وأنجــد بعــد هــدء * وأصحابي علــى شــعب الرحــال**
يضئ ربابه في المزن حبشــاً * قيامــــاً بــــالحراب وبــــالالال**
كــأن مصــفحات فــي ذراه * وأنواحـــاً علــيهن المــآلي**[4]

وهنا أتى بتشبيه صوت الرعد بصوت الإبل.

---

(١) ديوان علقمة الفحل، ص ١٧.

(٢) المصدر السابق ، ص٤٤ . القاعا: الأرض السهلة المنبسطة

(٣) الأصمعيات: أبي سعيد عبدالملك بن قريب بن عبدالملك الأصمعي، تحقيق وشرح أحمــد محمــد شــاكر. عبدالسلام محمد هارون، الطبعة الثالثة دار المعارف بمصر بدون، ص ٢٣٣.

(٤) ديوان لبيد، ص ١٠٩. أنجد: ارتفع وأخذ السحاب ناحية نجد، شعب الرحال: عيدانها، الربــاب: الســحاب الذي تراه كأنه متدلي، الآلال: الحراب، المصفحات: الإبل التي صفحت وعزلت عن اولادهــا، المــآلي: الخرق التي تكون مع المرأة، تحركها: تندب بها.الأنواح: النساء النائحات شبه بها صوت الرعد.

وغالباً ما يستعين الشاعر في الصحراء بالألفاظ والأساليب المصورة التـــي تجعــل المنظر بارزاً ناطقاً فتؤاذر هذه الظاهرة ما يذكرونه من ألوان المجــاز والتصـــوير والتعابير المنمقة كقول الفند الزماني في حرب البسوس:

شـــــددنا شـــــدة الليـــــث * غـــــداً والليـــــث غضـــــبان**

بضـــــرب فيـــــه تـــــأييم * وإيتـــــــــام وإرنـــــــــان**

وطعنـــــة كفـــــم الـــــزق * وهـــــي والـــــزق مـــــلآن**

وفـــي الشـــر نجـــاة حـــين * لا ينجيـــــك إحســـــان[1]**

ففي هذه الصورة يتوعد الشاعر أعداءه ويفاخرهم ويذكر ما كان في حـــرب البسوس فلم يكتف بذلك عن نفسه بتشبيهها وقوسه بالليث بل أضـــاف إليـــه كلمـــة أبرزت الصورة ظاهرة "والليث غضبان"، والبيت الثاني يرسم صورة أعدائه وقـــد تهالكوا من كثرة ما أصابهم من الضرب، ولم يقف عند تصوير الطعنات فحسب بل وصف فتحاتها لفم الزق الملآن الذي يتدفق دماً، والاستعمال على هذا النحو لون من ألوان الإيجاز والدقة.

(١) الحماسة، تأليف أبي عبادة الوليد بن عبيد البحتري، الناشر دار الكتاب العربي، بيروت، ضبطه وفهرســه الأب لويس شيخو، الطبعة الثانية، ١٩٦٧م، ص٥٦.

الفصل الرابع

المبحث الأول: التشبيه والاستعارة .

المبحث الثاني: الوزن والموسيقى.

التشبيه والاستعارة :

التشبيه لغة هو التمثيل، يقال هذا شبه هذا ومثيله(١). (وهو تشبيه صفة الشئ بما قاربه وشاكله من جهة واحدة أو جهات كثيرة لا من جميع جهاته لأنه لو ناسبه مناسبة كلية لكان إياه ألا ترى أن قولهم خد كالورد انما أرادوا حمرة الورد وطراوتها لا ما سوى ذلك من صفرة وسطه وخضرة كمائمه).(٢)

فالصحراء مليئة بالمعاني والأفكار والألفاظ المتداولة، فقد تشرب البدوي في الصحراء هذه المعاني وتلك التراكيب والألفاظ واختمرت في مخيلته وكان التعامل معها وفق أسلوب حياته اليومية بل أتت معبرة عن شعره ومعانيه فكان تشبيهه من واقع البيئة المحيطة به من الصحراء الممتدة. يقول امرؤ القيس مشبهاً:

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً * لدى وكرها العتاب والحشف البالي**[٣]

فشبه قلوب الطير رطباً بالعناب ويابساً بالحشف البالي.

ونظر النابغة إلى الطبيعة فلم يجد اتساعاً يغطي الكل غير الليل فشبه به ممدوحه قائلاً:

فإنك كالليل الذي هو مدركي * وإن خلت أن المنتأى عنك واسع**[٤]

ثم حدّق أمامه للأرض وما آلت إليه من عوامل الطبيعة فشبه آثار الرياح في الرسم بحصير من جريد أو أدم ترمله الصوانع أي تعمله وتخرزه وتحسنه يقول النابغة:

كأن مجر الرامسات ذيولها * عليه قضيم نمقته الصوانع**[٥]

ويقول في قصيدة يعتذر فيها للنعمان مرجحاً كفته على كل الملوك ويخلع عليه صفة الاتساع والرفعة وأنه يغطي على كل الناس بكل صفاته:

كأنك شمس والملوك كواكب * إذا طلعت لم يبد منهن كوكب**[٦]

---

(١) لسان العرب لابن منظور، ج١٤ ص١٧ مادة (مثل) .

(٢) العمدة لابن رشيق ، الجزء الأول ٤٨٨.

(٣) ديوان امرئ القيس، ص١٢٩. يعني كأن قلوب الطير رطباً العناب. يابساً : الحشف البالي.

(٤) ديوان النابغة الزبياني، ص٥٢.

(٥) المصدر السابق، ص ٤٣.

(٦) المصدر السابق، ص٧٨.

وعنتره بن شداد يشبه كثرة الطعن والرماح مثبتة فيه وظل يجرها كأنه حامل حطب وهذا تشبيه فيه مبالغة في التصوير. يقول:

وغادرن نضله في معرك * يجر الأسِنة كالمحتطب**[١]

وزهير يشبه نهيق الحمار في الصحراء بإنسان يدعو صاحبه لصوته العالي ورجوع صدى الصوت يقول:

كأن سحيله في كل فجر * على أحساء يمؤود دعاء**[٢]

ويقول طرفة مشبهاً وجه محبوبته بالضياء واللمعان بقوله:

ووجه كأن الشمس حلت رداءها * عليه نقي اللون لم يتخدد**[٣]

ويقول ابن طباطبا (واعلم أن العرب أودعت أشعارها من الأوصاف والتشبيهات والحكم ما أحاطت به معرفتها وأدركه عيانها ومدت به تجاربها وهم أهل وبر)[٤].

ويشبه الحارث بن حلزة وقع القتلى بوقع السحاب أي المطر بقوله:

وحسبت وقع سيوفنا برؤوسهم * وقع السحاب على الطراف المشرج**[٥]

وسقط المطر ونزوله عندهم من بشارات الخير والسعادة ولذلك يشبه البدوي ما قد يحدثه بالنسبة للحيوانات والجمادات في الصحراء. يقول امرؤ القيس في وصف السيل وتساقط الأمطار على الجبل والسباع والطيور:

كأن أباناً في أفانين ودقه * كبير أناسٍ في بجاد مزمل**

---

(١) ديوان عنتره بن شداد، ص ١٦. غادرن : أي الخيل ، المحتطب : الذي يجمع الحطب، جعله والأسنة قد كثبت رؤوسها في جسمه ويلقيها على الأرض تنجر خلفه كالمحتطب بعيدانه وراءه أطرافها تمس الأرض .

(٢) ديوان زهير، ص ٧٩. سحيله:صوته وقوله فجر أي حين انشق عمود الصبح وقال أكثر ما يكون الحمار نهيقاً في السحر . يمؤود: أرض، إحساء: جمع واحدها حسي وهي مواقع يكون فيها الماء .

(٣) ديوان طرفة، ص ٥٧.

(٤) عيار الشعر، ابن طباطبا العلوي، تحقيق د. طه الحاجري، د. حمد زغلول سلام، المكتبة التجارية، القاهرة، ١٩٥٦م، ص١٠.

(٥) ديوان الحارث بن حلزة، ص٤٣، الطراف، بيت من أدم أي جلد، المشرج: الشرج بفتحتين عرى الخباء ونحوه. شراجها وأشراجها: أدخل بعض عراها في بعض.

كأن ذرى رأس المجيمر غدوة * من السيل والإغثاء فلكـــة مغـــزل**
كأن سباعاً فيه غرقى عشـــية * بأرجائه القصوى أنابيش عنصل[(١)]**

لم ترد قصائد كثيرة منفردة لوصف البطولة لذاتها وإنما كانـــت تـــأتي فـــي ثنايـــا قصائدهم فإذا بلغه الليل أو الهجير أو البرد أو المطر في رحلته تحدث عنه فيصف الأمطار وما تفعله في الأودية والغدران وما يقابله من قطيع من حيوان الصـــحراء كالثيران والظباء وحمر الوحش فتثار مشاعره، وكثيراً ما يبدأ بوصف وتشبيه ناقته القوية السريعة أو فرسه السريع فيقرن هذه الصفات ويشبهها بثور الـــوحش الـــذي استعصى على الصياد وكلابه إلى غير ذلك من الاســـتطرادات التـــي تـــوحي بهـــا الرحلة.

وقد يرد تشبيه الشاعر بالصفات والألوان فيشبه النابغة حبيبته نعمى بالشمس في البياض فيقول:

بيضاء كالشمس وافت يوم أسعدها * لم تؤذ أهلاً ولم تفحش على جـــار[(٢)]**

ويشبه امرؤ القيس ظلمة الليل وسواده بموج البحر يقول:

وليل كموج البحر أرخى سدوله * على بـــأنواع الهمـــوم ليبتلـــى[(٣)]**

الطلل والحبيبة هما عمادا غزل الشاعر البدوي يقول امرؤ القيس مصوراً آثار سكن محبوبته وما تركته الطبيعة فيها:

ترى بعر الآرام في عرصـــاتها * وقيعانهـــا كأنـــه حـــب فلفـــل[(٤)]**

وقد استخدم عمرو بن كلثوم كثيراً من التشبيهات المستمدة من وحي حياته. يقول في افتتاحية معلقته:

---

(١) ديوان امرئ القيس ، ص ١٢٢. أنابيش عنصل : جذور بصل.
(٢) ديوان النابغة، ص ٢٣٤.
(٣) ديوان امرئ القيس، ص ١١٧.
(٤) المصدر السابق، ص ١١١.

مشعشعة كـــأن الحـــص فيهـــا * إذا ما المـــاء خالطهـــا ســـخينا**[1]

فشبه الخمرة الممزوجة بالماء كأنها من شدة حمرتها بلون نبات الحص الأحمر لشدة حمرتها. ويقول أيضاً:

وأعرضت اليمامة واشـــمخرت * كأســـياف بأيـــدي مصـــلتينا**[2]

فهنا يشبه قرى اليمامة مثل السيوف المسلولة بأيدي فرسان.

ويقول أيضاً عمرو بن كلثوم:

كـــأن جمـــاجم الأبطـــال فيهـــا * وســـوقاً بالأمـــاعز يرتمينـــا**[3]

وهنا شبه نصرهم على أعدائهم وتقتيلهم للأعداء بـــرؤوس الأبطـــال منتشـــرة فـــي الأرض الصلبة كأنها أحمال البعير المتساقطة.

ويصف الحرب ويصور مهارة أعدائه في استعمال السيوف فيشبه ســـيوفهم وسيوف أعدائهم في المبارزة أشبه بالمخاريق بأيدي الصبيان وهـــي لعبـــة يلعبهـــا الصغار يقول:

كـــأن ســـيوفنا فينـــا وفـــيهم * مخـــاريق بأيـــدي لاعبينـــا**

كـــأن ثيابنـــا منـــا ومـــنهم * خضـــبن بـــأرجوان أو طلينـــا**[4]

وبعد وصفه لساحة المعركة وقتالهم لأعدائهم يصف تموجات الدروع فيشبهها بمـــتن الغدير إذا مرت به الرياح فتموجه وتكسره يقول:

كأن متـــونهن متنـــون غـــدرٍ * تصـــفقها الريـــاح إذا جرينـــا**[5]

وإذا أمعنا النظر لكل هذه التشبيهات نجدها مستمدة من الواقع الحياتي للأعراب فهي مفردات عالقة بأذهان الشعراء، فيشبه امتزاج الخمر بالماء فـــي حمرتهـــا بنبـــات

---

(١) شرح القصائد العشر التبريزي، ص ٢٨٥.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٩١.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٩٩.

(٤) المرجع السابق، ص ٣٠٠-٣٠١.

(٥) المرجع السابق، ص ٣١٦.

الحص أحمر اللون ، وصورة القرى من بعيد بالسيوف في أيدي فرسان، ورؤوس الأبطال في الأرض بأحمال البعير المتساقطة . والسيوف في المعركة كلعبة المخاريق عند الصبيان، وغزارة الدم في الثياب مثل الأرجوان وهو نبت شديد الإحمرار، ويشبه مشية النساء لثقلهن بالسكارى، ويشبه تساقط رؤوس أعدائه وتدحرجها بالكرات التي يدحرجها الصبيان الشداد، فكل هذه المفردات والمعاني مجتمعة تحكي عن الصحراء في جمالها وبهائها وصفائها وعاداتها وألوان الحياة فيها.

وأوس بن حجر يشبه لنا يوم ممطر فيه رعد وبرق وسحاب وسيل فيستمد الصور وينتزعها من الواقع في تشبيهه له يقول:

كأن ريقه لما علا شطبا * أقراب أبلق ينفي الخيل رماح**(١)

فهنا يشبه الشاعر انكشاف البرق كما يرمح الفرس فيبدو بياضه.
ويشبه أعلى السحاب وأسفله عندما يلمع البرق بالملاءة من نسج واحد أو ضوء مصباح يقول:

كأنما بين أعلاه واسفله * ريطٌ منشرةٌ أو ضوء مصباح**(٢)

ويشبه هطول الأمطار وشدتها على الأرض وصوتها من غزارتها كأنه إنسان يفحص الأرض ويقلب حجارتها، أو لعبة الصبية الذين يلعبون بالمدحاة وهي حجارة يرمي بها الصبي فتمر على الأرض لا تأتي على شئ إلا تقلبه. يقول:

---

(١) ديوان أوس بن حجر، تحقيق وشرح د. محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠م، ص ١٥ . ريقه: أوله، شطب: حبل، أقراب: قرب، أبلق: فرس فيه سواد وبياض، ينفي: يطرد، رماح: كثير الرفس.
(٢) المصدر السابق، ص١٦.

ينزع جلد الحصى أجش مبترك * كأنه فاحصٌ أو لاعــب داحـــي**[١]

وأما القوة والشدة والعزيمة والشكيمة من صفات إنسان الصحراء ومطلوباتها نجــد الشنفري كثيراً ما يشبه بعض الصور ببعضها وتحمل في طياتها معاني الشدة وهــو لا يريد الخوف ولا يطيقه ورباطة الجأش هي ديدنه. يقول في لاميته:

ولا خرق هيــفٍ كــأن فــؤاده * يظلُّ به المكّــاء يعلــو ويســفل**[٢]

ففي هذا البيت يشبه الفؤاد الذي يخاف في خفقاته كأنه يحمله طــائر المكــاء يعلــو ويسفل به، والشاعر في تشبيهه يبرز الصورة وحماستها ويجسم الصورة ويجســدها وكله مستمد من الحياة من حوله.

ويجسد أحد شعراء هذيل صورة من واقع الصحراء عندما ورد ماء له فوجد بعض آثار الحيات في الأرض. يقول:

كــأن مزاحــف الحيــات فيــه * قُبيــل الصــبح آثــارُ الســياط**[٣]

وقد اتخذ عدد من الشعراء في الجاهلية تشبيهات أبدعوا فــي إخراجهــا ثــم أخــذه الشعراء الآخرون وقلدوه، فجاء اتحاد المعاني و الصور والتشبيهات والألفاظ أحياناً، ذلك لتطابق الرؤيا والفكر في البيئة فكان تصورهم للصحراء ومكنوناتهــا بصــورة مباشرة ليس فيها تكلف فتتبع الصورة من الصحراء المليئة بالأشياء اســتمدت مــن روحها ووحيها فأضافت للغة رصيداً وذخيرة ضخمة استطاعت أن تتداول بين أفراد البدو في الصحراء وأصبحت مكوناً متميزاً للغة، فتأتي هذه المفردات معبــرة عــن تقارب أوصاف كل مفردة وأخرى فيأتي التشبيه حاملاً تلك الصفات مــع الصــياغة اللطيفة التي يصيغها البدوي في البيت، فتأتي معبرة ومحلقــة فــي الخيــال وفــي

---

(١) ديوان أوس بن حجر ، ص١٧. أجش: غليظ الصوت، مبترك: غزير، الفاحص: من الفحص، الداحي: الذي يلعب بالمرحاة وهي حجارة يلعب بها الصبية.

(٢) لامية العرب للشنفرى – ص٩. الخرق: الدهش من الخوف، المكاء: طائر يطير صعوداً ونزولاً، الهيــف: الظليم هو ذكر النعام.

(٣) ديوان الهذليين، الجزء الثاني، ص٢٥.

التصوير والربط الفني الدقيق الذي يعبر عن مدى لباقة وقدرة وفكر البدوي في الصحراء.

الإستعارة:

أما الاستعارة فقد أتت في أشعارهم تحمل معاني البيئة في معانيها مصورة تلك المشاهد والمواقف التي حظيت بها البيئة الصحراوية. يقول عمرو بن كلثوم في معلقته:

وقد هرّت كلاب الحيّ منا * وشذبنا قتادة من يلينا**(١)

فقد شبه أفرع الشجر بالرؤوس فحذف المشبه به وأتى بشئ من لوازمه وهو التشذيب على سبيل الاستعارة المكنية.

ويقول:

متى ننقل إلى قوم رحانا * يكونوا في اللقاء لها طحينا**(٢)

فقد شبه الحرب بالرحى في جامع الهلاك في كلٍ وهي تطحن الكل، فحذف المشبه وأثبت المشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية.

ويقول في نفس المعلقة:

فإن قناتنا ياعمرو أعيت * على الأعداء قبلك أن تلينا**(٣)

وهنا شبه العز والشرف بالقنا فحذف المشبه وأثبت المشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية.

ويقول أبو ذؤيب الهذلي:

وإذ المنية أنشبت أظفارها * ألفيت كل تميمة لا تنفع**(٤)

---

(١) شرح القصائد العشر، ص ٢٩٥.

(٢) المرجع السابق، ص٢٩٦.

(٣) المرجع السابق، ص ٣٠٩.

(٤) ديوان أبو ذؤيب الهذلي، ص٨٥٥.

فقد شبه المنيه بالحيوان في جامع الخشونة في كلٍ وأتى بشئ من لوازمه وهو إظفار بحذف المشبه به على سبيل الاستعارة المكنية.

قال زهير :

فتعرككم عرك الرحـــا بثقالهـــا * وتلقح كشافاً ثـــم تنـــتج فتتـــئم**[١]

فقد شبه الحرب بالناقة أو حيوان فحذف المشبه به وأتى بشئ من لوازمه تنتج وتلقح على سبيل الاستعارة المكنية.

وامرؤ القيس أتى في البيت الأول بتشبيه والثاني إستعارة وهنا تتآزر الصور البيانية مع بعضها البعض بتجميل الصورة كقوله :

وليل كموج البحر أرخى سدوله * علـــىّ بـــأنواع الهمـــوم ليبتلـــي**

فقلت له لمـــا تمطّـــى بجـــوزه * وأردف أعجـــازاً ونـــاء بكلكـــل**[٢]

إذ يبرز الليل في ظلمته وهو كموج البحر في صورة شـــخص أرخـــى ســـدوله أي ستوره إذ يقال سدلت ثوبي إذا أرخيته ولم أضعه.

وفي البيت الثاني صورته عندما تمطى بصلبه أي وسطه وأردف إعجازاً لأواخـــره ثم نهض بكلكل أي صوره كالليل المظلم، فشبه الليل بالحيوان فحذف المشبه به وأتى بشئ من لوزامه أردف إعجازاً وناء بكلكل على سبيل الاستعارة المكنية.

ويقول عمرو بن كلثوم:

تركنـــا الخيـــل عاكفـــة عليـــه * مقلـــــدة أعنتهـــــا صـــــفونا**[٣]

فشبه الخيل بالإنسان في العكوف فحذف المشبه به وهو الإنسان وجاء بشـــئ مـــن لوازمه وهو العكوف على سبيل الاستعارة المكنية، والمعنى أن أصحابه لـــم يغنـــوا عنه شيئاً وهم حوله لا يردون عنه.

---

(١) ديوان زهير بن أبي سلمى، ص ٤٣.

(٢) ديوان امرئ القيس، ص ١١٧.

(٣) شرح القصائد العشر، التبريزي،ص٢٩٥.

يقول قيس بن الخطيم [٤]:

فلما رأيــت الحــرب تجــردت * لبست مع البردين ثوب المحارب[١]**

فهنا صور الحرب في صورة شخص متجرد أي مستعد وهذا تجسيم لها، فشبه الحرب بإنسان فحذف المشبه به وهو الإنسان وأتى بشئ من لوازمه وهو التجرد على سبيل الاستعارة المكنية.

والاستعارة أتت في أشعارهم تحمل طابع وعبق الصحراء في معانيها وألفاظها وأخيلتها بل أتت في كثير من الأحيان تحمل مفرداتها البيئية.

(٤) قيس بن الخطيم هو قيس بن الخطيم بن عدي الأوسي أبو يزيد شاعر الأوس وأحد صناديدها في الجاهلية اول ما اشتهر به تتبعه قاتلي أبيه وجده حتى قتلهما وله في وقعة بعاث التي كانت بين الاوس والخزرج قبل الهجرة أشعار كثيرة ادرك الإسلام وتريث في قبوله فقتل قبل أن يدخل فيه له ديوان شعر ، توفي نحو ٢ قبل الهجرة ــ أنظر معاهد التنصيص على شواهد التلخيص عبدالرحيم بن أحمد العباسي ج١ ص١٩١.

(١) جمهرة أشعار العرب، لأبي زيد القرشي، الجزء الثاني، ص ٥٠٨.

الوزن والموسيقي:

كان للموسيقى أثر كبير في متعة الشعر وحفظه وروايته في صدور الرواة، وما كانت تلك المعلقات الطوال والقصائد الطويلة التي وصلت إلينا أن تصل لولا الموسيقى التي تذوقوها فأفلحوا في حفظها أيضاً كانت عاملاً في ذيوع صيته في أرجاء الصحراء وتوحيد لغة وفهم الشعر، فاستقى الشاعر الجاهلي الموسيقى من مفردات الصحراء في حله وترحاله فوظفها في شعره.

"ونجد أن أساس الموسيقي في القصيدة القديمة يكمن في اللغة والأسلوب والصورة الشعرية بحيث يستحيل على المرء أن يكشف عن أسرار هذا الجانب الصوتي ويتذوقه من غير ملاحظة لهذا التآلف الصوتي"(١).

وكان سحر الصحراء وطبيعتها وحركتها الإيقاعية في الحياة أثر في تآلف هذه المعطيات، وارتبط الشعر في نشأته الأولى بالغناء ارتباطاً وثيقاً ولا غرابة في ذلك لأنهما يصدران عن العاطفة ويعبران عنها، فالموسيقى في الغناء تأتي في النغمات والألحان، وفي الشعر موسيقى تكمن في الأوزان والألفاظ.

وأتت الموسيقى كثيراً في مطالع القصائد كتقطيع صوتي لأبيات القصيدة كقول امرئ القيس يصف فرسه:

مكر مفر مقبل مدبر معاً * كجلمود صخرٍ حطه السيل من عل**(٢)

والموسيقى في القصيدة القديمة تتبع الموضوع وفق الحالة النفسية لقائلها والموقف والموضوع، وينقل الدكتور سعد إسماعيل شلبي في كتابه الأصول الفنية للشعر الجاهلي قول سبنسر: "إن خير الموسيقى ما تتمشى مع الأفكار وتتساوق مع المعاني وتتجاوب نغماتها ونبراتها مع حالات النفس، فالشاعر في اهتياجه وغضبه وغيظه يكون تعبيره الموسيقى عالي النغمة، وفي حزنه يكون منخفضاً، وفي تعجبه وفرحه وهدوئه واطمئنانه تكون مسافاته الصوتية قصيرة، وأما في بثه وألمه فتكون مسافاته

(١) عناصر الإبداع الفني في شعر عنترة، د. ناهد أحمد السيد، ص٢٠٧.

(٢) ديوان أمرئ القيس، ص ١١٩.

الصوتية طويلة وهكذا لتساير، النغمات، حالات النفس، كما تساير موضوع القصيدة وفكرتها"(١). ولذلك تأتي الموسيقى معبرة حسب الموضوع المطروق.

أما البحور الشعرية وهي أساس الموسيقى التي اخترعها الخليل بن أحمد(٢) الذي قام بتقسيم البحور الشعرية وتنظيمها حسب تفعيلاتها فقسمت أبيات القصيدة إلى مقاطع متوالية ومتناسقة وقوافيه مستقره في مكانها محاطة بسياج من الشروط التي تعارف عليها الشعراء والعروضيون، والروي ينبغي ألا يتبدل مهما طالت القصيدة الوزن والقافية، فالأذن ميزان فإذا ذلّ الشاعر لا يغفر له والوزن لابد من أن يأتلف مع اللفظ، فالموسيقى في الشعر القديم في الصحراء لها عذوبة وإعجاباً لدى السامعين فتتناغم في كل الأغراض ولها تأثيرها الخاص الذي يجلب الماشي ويوقف الحادي ويسكت المتحدث كقول المرقش الأكبر:

سرى ليل خيال من سُليمى * فأرقني وأصحابي هجود**
فبت أدير أمري كل حالٍ * وأرقب أهلها وهم بعيد**
على أن قد سما طرفي لنارٍ * يشبُّ لها بذي الأرقى وقود**
نواعم لا تعالج بؤس عيشٍ * أوانس لا تروج ولا نرود(٣)**

وقد بدأت موسيقى العرب مع حداء الإبل في مشيها وسيرها وسرعتها، وعلى هذه الطريقة كان غناؤهم وأخذوا يترنمون بالشعر على الأوزان التي سرت على ألسنتهم واتخذوها قواعد للشعر فأتت موسيقاهم متناغمة مع الألفاظ حسب الموضوع ونفسية الشاعر، فإذا حزن تثاقلت عليه الهموم فتأتي الموسيقى معبرة عن هذا الموقف، وغالباً ما يأتي بحر الطويل الذي تتابع ألفاظه كوصف الليل عند امرئ القيس مثلاً:

---

(١) الأصول الفنية للشعر الجاهلي، د.سعد إسماعيل شلبي، ص١١٨.

(٢) هو الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي الأزدي أبوعبدالرحمن من أئمة اللغة والأدب وواضع علم العروض وهو أستاذ سيبويه النحوي ولد ومات في البصرة (١٠٠-١٧٠هـ) له كتابالعين ومعاني الحروف وكتاب العروض والنقط والشكل ــ أنظر الأعلام للزكلي ج٢ ص٣١٤.

(٣) ديوان المرقش الأكبر،عوف بن سعد بن مالك المتوفي نحو ٧٠ قبل الهجرة تحقيق نوري حمودي القيسي الرياض ١٣٩٠هــ ص٩٦.

وليل كموج البحر أرخى سدوله * علـــىّ بـــأنواع الهمـــوم ليبتلـــي**

فقلت له لمـــا تمطـــى بصـــلبه * وأردف إعجـــازاً ونـــاء بكلكـــل**

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي * بصبح وما الإصباح فيك بأمثـــل[١]**

وإذا ركب فرسه وأخذته نشوة السرعة تأتي الموسيقى سريعة متواثبة كقولـــه فـــي وصف فرسه:

مكر مفـــر مقبـــل مـــدبر معـــاً * كجلمود صخرٍ حطه السيل من عل[٢]**

وكقوله أيضاً إذا ركب راحلته وامتطى صهوتها في الفلاة مسرعاً يأتي قوله كسرعة راحلته:

واليد سابحة والرجل ضـــارحة * والعين قادحة والمتن ســـلحوب[٣]**

وأما معلقة عمرو بن كلثوم جاءت تحمل ثورة وشعلة وأنفة وفخراً وزهواً وعاطفـــةً متأججة وألفاظها تتدفع كالسيل الجارف مثيرة في معانيها المستمدة من قوة وســـرعة الحياة في الصحراء فأتت موسيقاها تحمل ذات الطبع القوي السلس الذي اتسم بالرنة الموسيقية الجميلة فكان تشطير بحر الوافر الذي أعطى المعنى رونقاً، وللموســـيقى إيقاعاً يقول:

أبا هنـــد فـــلا تعجـــل علينـــا * وانظرنـــــا نخبـــــرك اليقينـــــا**

بأنـــا نـــورد الرايـــات بيضـــاً * ونصـــدرهن حمـــراً قـــد روينـــا**

وأيـــــام لنـــــا غـــــر طـــــوال * عصينا الملـــك فيهـــا أن نـــدينا[٤]**

---

(١) ديوان امرئ القيس ، ص ١١٧.

(٢) المصدر السابق، ص ١١٩.

(٣) المصدر السابق، ص٤٧. اليد: أي جرى ومد يديه فكأنه سابح في الماء، الضـــارحة: أي ضـــاربة الأرض وحافرة فيها، قادمة: غائره ، سلحوب: الظهر أملس.

(٤) شرح القصائد العشر، ص٢٩٣. أبا هند: عمرو بن هند، الرايات: الأعلام، أيام لنا: أيام العرب.

وبعضهم يلح على تكرار الألفاظ التي يحاول فيها تقوية المعنى والتشديد على رنينها ليؤكد رسم الصورة، فعندما أراد امرؤ القيس أن يصف ديار سلمى وقد تعفت ودرست لإلحاح المطر عليها، ردد اسم سلمى ليكون الشوق أشد إحساساً بالمعنى المطلوب. يقول:

ديار لسلمي عافيات بذي الخال * ألح عليها كل أسحم هطال**
وتحسب سلمى لا تزال ترى طلاً * من الوحش أو بيضاً بميثاء محلال**
وتحسب سلمى لا تزال كعهدنا * بوادي الخزامي أو على رأس أوعال**
ليالي سليمى إذ تريك منصباً * وجيداً كجيد الرئم ليس بمعطال**(١)

ولذا نقول أن أغلب البحور التي استعملها الشعراء القدامي هي البحور الطويلة وذلك لطول الصحراء وامتدادها وطول الرحلة واتساع فكرهم في حشد العديد من المعاني في القصيدة بل في البيت الواحد، (وفضلوا البحور الطويلة على غيرها من البحور لاستيعابها للمعاني واتساعها للتشبيهات والاستعارات والمجازات والكنايات لأن الصورة التي يريدون استعمالها لا تكمل في البحور القصيرة(٢).

وبحر الطويل يقع موسيقياً على الأذن وقعاً بطيئاً متأنياً لنشوء نغمة الموسيقى من تفعيلات، فعولن، مفاعلن، فعولن، مفاعيلن، مرتين في البيت الواحد.

ونجد أن عقلية الشاعر البدوي قد استوعبت هذه المعاني فهي عقلية وجدانية امتازات برهافة الحس ودقة الشعور ولطف الوجدان، فكان استجابة لتذوق معطيات الطبيعة الصحراوية والاستمتاع بجمال الفن وجمال الطبيعة والصورة.

والشعر والغناء توأمان لأم واحدة كليهما يصدر عن الوجدان ويعتمد على الموسيقى، الأول موسيقى الأوزان والآخر موسيقى الطرب والألحان.

والموسيقى الشعرية تخضع لذوق الأمم والأجيال وتتأثر بالمؤثرات التي تشكل فنون البيئات والمجتمعات، وقد تحققت موسيقى الشعر عند القدماء،(٣).

---

(١) ديوان امرئ القيس، ص ١٢٣.
(٢) الطبيعة في الشعر الجاهلي د.القيسي، ص ٣٨٠.
(٣) قصة الأدب في الحجاز في العصر الجاهلي،د.عبدالله عبدالجبار، ص ٥٨.

ومنذ ذاك الوقت الذي جمع فيه الخليل بن أحمد البحور الشعرية كلها لم تــزد إلا بحراً واحداً أضافه الأخفش[1] لم يستطع بعدهم أحد أن يزيد بحراً أو تأتي أشعار موسيقية تحمل سمات القديم وتكمله، وهذا يدل على جــودة قريحــة البــدوي فــي الصحراء في الشعر الجاهلي، ويدل الشعر دلالة واضحة على اشتمال القصيدة على كل محيط الأوزان العربية والذوق الموسيقي الكامل.

"فقد نشأت الموسيقى الشعرية والوزن والقافية نشأة عربية خالصة خالية مــن تأثير أمة أخرى لأن الأوزان العربية ليست لأمة من الأمم القديمة، ولأن الســريان القدماء كانوا ينظمون بغير أن يلتزموا قافية واحدة، والعبرانيين لم يلتزمــوا الــوزن والقافية وقد يشترطون القافية دون الوزن[2]".

وأن الوزن والقافية من عناصر الشعر، ويسمى في النقد الحــديث موســيقى الشعر، وقد تحدث الأقدمون عن ذلك كثيراً وقلبوه على جوانب عدة وهما أهم ركنين في بناء القصيدة الشعرية وما كان هناك حديث عن الشعر إلا وتضمن عن الــوزن والقافية.

يقول ابن رشيق عن نشأة الوزن العربي: "إن العرب احتاجوا إلــى الغنــاء للتغني بمكارم أخلاقهم وطيب أعراضهم وذكر أيامهم الصالحة وأوطانهم النازحــة وفرسانهم الأنجاد وسمائحهم الأجواد فتوهموا أعاريض يعلوها موازين الكلام فلما تم لهم وزنه سموه شعراً لأنهم شعروا به أي فطنوا"[3].

وأما التصوير وهو لون من ألوان الموسيقى ومن آثار الصحراء في صــوت الحداء أو السفر على الإبل فيأتي الشاعر فيتغنى بقصيدته فيقطعها أو يصرعها لتأتي بنغمة توقيعية يألفها الشاعر ويميل إليها ويأنسها السامع، ففي مطلع معلقــة امــرئ القيس صرع البيت لثلاث مرات في قوله :

---

(١) الأخفش: هو سعيد بن مسعدة المجاشعي بالولاء البلخي ثم البصري أبو الحسن المعروف بالأخفش الأوسط عالم باللغة والأدب من أهل بلخ سكن البصرة وأخذ العربية عن سيبويه وصنف كتباً منها تفسير معاني القــرآن الاشتقاق معاني الشعر ــ أنظر الأعلام للزركلي ج٣ – ص١٠١.

(٢) الحياة العربية من الشعر الجاهلي، د. أحمد محمد الحوفي،ص١٨٠.

(٣) العمدة، ابن رشيق، الجزء الأول، ص ٥.

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل * بسقط اللوى بين الدخول فحومل**(١)

وكقوله :

أفاطم مهلاً بعض هذا التدلل * وإن كنت قد أزمعت صرمي فأجمل**(٢)

وقوله:

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي * بصبح وما الإصباح منك بأمثــل**(٣)

وفي مطلع معلقة عمرو بن كلثوم:

ألا هبي بصــحنك فأصــبحينا * ولا تبقـــى خمـــور الأنـــدرينا**(٤)

وفي قوله أيضاً:

قفي قبل التفــرق يــا ظعينــا * نخبـــرك اليقينـــا وتخبرينـــا**(٥)

ويقول عنترة بن شداد:

هل غادر الشعراء من متــردم * أم هل عرفت الــدار بعــد تــوهم**

يا دار عبلة بــالجواء تكلمــي * وعمي صباحاً دار عبلة وأسلمي**(٦)

تلك أمثلة ولو حصرناها في الشعر العربي لوجدنا التصريع كثيراً فيه، وللموســيقى في الشعر العربي تقسيمات عديدة منتقاة من معنى واحد.

---

(١) ديوان امرئ القيس، ص ١١٠.

(٢) المصدر السابق، ص ١١٣.

(٣) المصدر السابق، ص ١١٧.

(٤) شرح القصائد العشر التبريزي، ص ٥٦.

(٥) المرجع السابق، ص ٢٨٤.

(٦) ديوان عنترة بن شداد، ص ١١٧.

يقول شوقي ضيف: "أن التصريع كأنه يأتي به الشاعر حين ينتهي من غنـــاء قطعة من قصيدته أو انتشارها، وينتقل إلى أخرى، وربما كان ذلك أحـــد الأســـباب التي جعلتهم يفزعون إليه حتى ينتقلون من موضوع في النموذج الفني"(١).

وأما لبيد لم يخل شعره من هذا الضرب كما في معلقته:

عفت الديار محلهـــا فمقامهـــا * بمنـــى تأبـــد غولهـــا فرجامهـــا**

فمدافع الريان عُـــرى رســـمها * خلقاً كما ضمن الـــوحي ســـلامها**

وجلا السيول عن الطلول كأنها * زبـــرُ تجـــدُّ متونهـــا أقلامهـــا**(٢)

فالتصريع يأتي بنوع من التقطيع الموسيقي الشجي الذي يســـكن النفـــوس ويطـــرب القلوب، ويأتي بمقطعين أو أكثر وبذلك يخرج تقطيعاً صوتياً منظماً، يستقي روحـــه ووحيه ونظمه من نفس الصحراء.

---

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي: د.شوقي ضيف، ، ص٢٤٨.

(٢) ديوان لبيد بن أبي ربيعة، ص ١٦٣.

الخاتـــمة والنتائج

أثرت الصحراء في حياة البدوي تأثيراً واضحاً، فأصبحت جزءً من حياته إذ ارتبطت بوجدانه فصارت غناءه وأشواقه وفكره ومعاشه وحياته كلها، ولذلك عظمّها وشكلت مسار حياته فتغنى بها.

يقول الشنفرى في لاميته ويبدي مدى تعلقه بالصحراء يقول:

وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى * وفيها لمن خاف القلى متعزل**(1)

فهي مأمن له في كلا الحالين في بعد الكريم عن الأذى وبعده عن اعتزالهم.

ويقول أيضا:

لعمرك ما في الأرض ضيق على امرئ * سرى راغباً أو راهباً وهو يعقــل**(2)

فالأرض فسيحة مبسوطة للراغب والراهب لمن يعقل.

ويقول:

وآلف وجه الأرض عند افتراشها * بأهــدأ تنبيــه سناســن قحــل**(3)

فهو يحب الأرض في حله وترحاله فهي الحبيب الذي لا يرام، فقد أحبها وجال فــي وهادها طلباً للرزق والراحة. وأبرز صور وجمال ومحاســن الصــحراء وجسـد الصورة البهية لها وما يقابلها من تشبيهات من حوله، فصــارت لوحــة مصــوره تصويراً صادقاً عكست مظاهرها ومفرداتها وطبيعتها التي تدل على دراية وخبــرة لأنهم يذكرون كل مظهر من مظاهرها في الموضع اللائق به.

والصحراء زمان ومكان ومؤثر فقد أوحت للشاعر البدوي بكــل مكنوناتــه فناجى الليل والحبيبة والناقة، وصوّر السراب والوادي والبرق والمطــر والجبــل، ووصف الثور الوحشي والكلاب والطيور، فصارع الحياة بكــل جوانبهــا فبــرزت صفات الكرم والشهامة والنخوة والمروءة، فظهر الحب الدفاق والوئام المكاني مــع مظاهر الصحراء بجانب الحرب والثأر والإغارة وأيام العــرب وتنظــيم القبيلــة، فانتقلت هذه المتلاقيات في ذهن البدوي وعبر عنها الشــاعر مــن خــلال رحيلــه

---

(١) لامية العرب للشنفرى، ص٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٩.

(٣) المرجع السابق، ص ١٠.

ووصفه للظعن والترحال وجمال الطبيعة الصامتة منها والمتحركة، فأصبغ على هذه الصورة الواقعية لمسة فنية وصبها في قوالب أدبية بهية كانت أساساً للشعر العربي، فللبيئة أثر لا ينكر في توجيه النشاط الإنساني ومجموع العادات والتقاليد الاجتماعية والسلوكية في الأدب عموماً وفي إطار تلك البيئة الصحراوية.

كان هذا البحث الذي يدرس الصحراء في الشعر الجاهلي وتضمن مقدمة ثم تمهيد وفصول تتالت، ووجد أن أثر الصحراء في اللغة بين وواضح فقد أمدت قاموس اللغة العربية بفيض زاخر من الأسماء والصفات التي اكتسبت صفة الاسمية مع كثرة الاستعمال ومرور الزمن واحصيت نحواً من تسع وثلاثين اسماً وصفة دللت على معظمها بشواهد شعرية ثم بان أثر الصحراء في موضوعات الشعر وبرزت صورة الناقة واضحةً في معظم دواوين شعراء البادية ، كذلك برز أثرها في الصورة الفنية وبناءً على ما تقدم يمكن أن نطلق على الأدب في العصر الجاهلي ادب الصحراء لأنه نبت وترعرع في الصحراء واستقى كل معانيه منها ويمتاز هذا الأدب في معظمه بالقوة والجزالة وفصاحة اللغة والأسلوب .

وهنا نورد بعض النتائج:

(١) أتت الصحراء بكل مظاهرها وأشكالها في قصيدة الشاعر البدوي الذي عبر من خلالها عن مشكلاته وهمومه وعواطفه الذاتية في حله وترحاله فيها.

(٢) تنوع مقدمات القصائد الشعرية في الصحراء بتنوع المكان والموقف النفسي للشاعر من غزلية، طللية، خمرية ...ألخ، مع تمثيل هذه المقدمات للحياة البدوية في تلك البيئة.

(٣) أتت الصحراء بكل مكوناتها ومفرداتها في القصائد الشعرية القديمة لتثبت أماكن وتاريخ وجغرافية المنطقة.

(٤) تقديس العربي في البادية لراحلته من أثر الطبيعة الصحراوية وذلك للنقلة والهجرة سعياً وراء الماء وموطن الاستقرار والكلأ والظل، ولذلك نشأت أهمية الحيوان وكان أشهرها الناقة ثم الحصان الذي كان اقتناؤه مظهراً من مظاهر الغني.

(٥) أثرت الصحراء في شكل وموطن البدوي وحياة التنقل لعدم انتظام الأمطار وتفرقها في بقاع متفرقة منها ولذلك، أتت أشعارهم معبرة عن الأمطار وفصولها وأنواعها.

(٦) قساوة الطبيعة الصحراوية وشعور البدوي بالضعف أمام هذه المعاناة فرض عليه تقديس القوة والشجاعة والبسالة والشدة حتى أصبحت هذه الصفات مبدأ من مبادئ السيادة فكان شعورهم وحاجتهم للكرم والنجدة والمروءة وحملت أشعارهم هذه المعاني.

(٧) اشتملت القصيدة الشعرية على مظاهر البيئة والقيم الاجتماعية والخلقية والنفسية المستمدة من الصحراء بوصفها أنموذجاً علياً يحتزى به ويسعى إلى تحقيقه.

(٨) البيئة الصحراوية خلقت شكل الحياة القبلية وعيشها في شكل مجموعات خوفاً من الموت وحفاظاً على الإنسان من الحروب وبحثاً عن الطمأنينة والحماية والتكافل الاجتماعي بشتى صوره.

(٩) نجد كل النظم والأصول والسلوك العربي في الصحراء كانت نتاجاً لتلك الخصائص المناخية وغريزة التغلب على الحياة والمحرك الأساس لذهن العربي وتصرفاته.

(١٠) استوعب الشعر الجاهلي في الصحراء كل متطلبات الحياة منذ ذاك الزمان وحتى اليوم في المعاني الدائرة. قال ابن الأعرابي: (لم يصف أحد قط الخيل إلا احتاج إلى داود ولا وصف الخمر إلا أوس بن حجر ولا وصف نعامة إلا احتاج إلى علقمة بن عبده ولا اعتذر أحد في شعره إلا احتاج إلى النابغة الذبياني[١]). وهذا بالطبع يدل على الذهن المتفتح والعبقرية الفزة والفكر الثاقب والتعمق في مجاهل الحياة بكل مفرداتها واستبطانها.

(١١) الطابع العام للشعر الجاهلي الذي نشأ في الصحراء اتسم بالجزالة والفصاحة ويمتلك الشعراء مواهب فريدة وجليلة وملكات قوية أتت بتركيب متين للقصيدة وأداء رائع وبعد عن التكلف فأتى شعراً معبراً عن بيئة الصحراء.

---

(١) الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، الجزء الخامس عشر، ص ٩٣.

(١٢) ملّكلت الصحراء اللغة العربية ذخيرة ضخمة من الألفاظ والمفردات والمعاني والأسماء والصفات وأصبحت ركيزة لتلك اللغة فيما بعد.

(١٣) كانت للحروب وأيام العرب في الحياة الاجتماعية دور أدى لضعف في الحياة العامة ولكنه أبرز دوراً فاعلاً في الجانب الأدبي إذ أفرز قصائد ومطولات ومعلقات صارت نبراساً ومعبرة عن ذلك الجانب بكل تفاصيله.

(١٤) أسواق العرب المتفرقة في الصحراء كسوق عكاظ أدى دوره الاجتماعي والاقتصادي بجانب الدور الأدبي الذي أضاء ساحتها وأبرز مكانتها.

(١٥) خلقت الصحراء موسيقى وإيقاع شعري مؤثر مستمد من سير حياتها من حيوان ونبات ورياح وجماد.

(١٦) نقلت القصيدة الشعرية الجانب الحربي والثأري من جوانب الحياة الاجتماعية في الصحراء بكل تفاعلاتها وأدواتها في قالب فني يطغى عليه طابع الحماس والفخر والبسالة.

(١٧) حملت القصيدة العربية القديمة في الصحراء الإصرار والعزيمة التي اتسم بها البدوي وهي صفة مكتسبة من البيئة المحيطة لخلق نوع من التوازن الروحي والمعنوي مع متطلبات الحياة وإيجاد جو نفسي يتفاعل مع الروح الوثابة للبدوي.

(١٨) وضوح وبيان فكرة القصيدة الجاهلية وحملها لصور بيانية محسوسة يعكس لنا وضوح الرؤيا وصفاء البيئة الصحراوية.

(١٩) الصحراء باعث من بواعث تشكيل نفسية البدوي وإظهار القوة والصراع النفسي من أجل البقاء، وباعث لكل الصور والأغراض الشعرية وأساس لتشكيل حياته وخلق نوع من المواءمة مع البيئة.

(٢٠) مكونات اللغة الفصيحة ومفرداتها حافظت على جزالتها وقوتها وثباتها حتى اليوم.

(٢١) كان للصحراء أثر واضح في القصيدة الشعرية من حيث شكلها وبنائها الفني برز في مقدمتها وحسن التخلص والخاتمة وحملها لكل هذه المراحل المعبرة عن فكر ووجدان وحياة البدوي.

(٢٢) أتت لمسة حزينة في غالب الأشعار تحمل فكرة الموت والفناء في طياتها نتيجة للمؤثرات الاجتماعية.

(٢٣) أتت الطبيعة الصامتة والمتحركة من حيوان وشجر ورعد وبرق تتحدث بلسان الشاعر عن الأثر المباشر والتناغم الحركي تحت قبة الصحراء.

(٢٤) تعددت المواضيع التي حوتها القصيدة بداخلها فشملت على أغراض متنوعة منها الوصف والوقف عند الطلل وتصوير الناقة وذكر الحبيبة والصيد والثور الوحشي، ونجد فيها مدح وهجاء وغير ذلك من تصورات الشاعر وما كابده في رحلته ويذكرها بتفصيلها، والمعلقات تحمل هذا وأنموذج لما ذكرت.

(٢٥) أتت الصورة متكاملة فتتكامل التشبيهات مع الاستعارات في البيت الواحد فترسم لوحة متشكلة زاهية عبرت عن المقصود تعبيراً خلاباً مثلاَ يقول امرؤ القيس مصوراً يوماً ممطراً بقوله:

وأضحى يسح الماء من كل فيقة * يكـــبُ عـــلى الأذقـــان دوح الكنهبل**

كـــأن أباناً فـــي أفـــانين ودقـــةً * كبـــير أنـــاس فـــي بجـــاد مزمـــل**

كأن ذرى رأس المجيمر غـــدوةً * من السيل والإغثاء فلكـــة مغـــزل**[(١)]

فهنا يرسم الشاعر صورة يوم ممطر وكيف أن الماء تخلل كل هذه البقاع الجبال والمنخفضات وتلك الصورة لرأس المجيمر الذي أصبح صغيراً مـــن اســـتدارة الماء حوله .

ولذلك نجد الصورة محدودة بحدود البيئة الصحراوية ومنتزعة من بيئـــة قريبـــة للتناول، ونجد الحبكة التصويرية والمقدرة على تناول الكلمات والخيال القريـــب الذي يجعل كل هذه المفردات تدور في حيز واحد ويطفي عليها مـــن اللمســـات الفنية في ترتيب الأدوار.

---

(١) ديوان امرئ القيس، ص ١٢٢، الفيقه: فترة تقطع المطر فيسح مرة ويسكن مرة، يكب على الأذقـــان دوح الكنهبل : يقتلع شجر الكنهبل من أصوله ويلقيه على أم رأسه. أبان: جبل ، أفانين ، ودقة: ضروب مطر، البجاد: الكساء المخطط، مزمل: ملتف، المجيمر: جبل فلكة مغزل: لأن الماء استدار حوله .

(٢٦) الشده والقوة والخشونة هي مميزات الصحراء فأتت القصيدة تحمل في طياتها هذه الصفات والمعاني فهي صورة لامعة تقفز بالحس والمشاعر فوق قوة الإحساس العادي .

(٢٧) تنوع بيئات الصحراء وتعدد مواقعها حتمت على الشاعر عكس هذه الصور من خلال قصيدته فنقل كل هذه الأحاسيس نقلاً صادقاً دون اللجوء لللمسات البديعية كثيراً وأتت أمامه صوراً محسوسةً عبر عنها بكل تجرد فأتت أبلغ وأعمق لتأثيرها الواضح .

التوصيات :

١. كشف اللثام عن ذاك الغموض الذي اكتنف الحياة البدوية الصحراوية في تلك التلال والبوادي وسر تلك البيئة التي أهلت اللغة العربية لتكون بهذا الكمال والجلال وذاك الفكر الفذ الذي نبع منها .

٢. تناول الأثر الاجتماعي والنفسي في الصحراء على الشعر العربي فهو ميدان لدراسات مجددة ومبدعة وتناول أثرها الكبير من زوايا متعددة وأطروحات مختلفة .

٣. تحليل واستنباط من مؤلفات العلماء القدامى وما بها من ذخائر قيمة متضمنة تلك الحياة على ضوء الواقع وفي قوالب حديثة .

الفهـــــارس

أولاً : فهرس الآيات القرآنية :-

م	الاية	السورة	رقم الاية	رقم الصفحة
١.	{لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}	آل عمران	(١٨٨)	
٢.	{مَا جَعَلَ اللّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ}	المائدة	(١٠٣)	
٣.	{فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}	الأنعام	(٩٦)	
٤.	{وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْموْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}	الأعراف	(٥٧)	
٥.	{وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ}	يونس	(٨٧)	
٦.	{وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}	الرعد	(٣)	
٧.	{وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ}	إبراهيم	(٧)	
٨.	{رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ}	إبراهيم	(٣٧)	
٩.	{ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ}	المؤمنون	(٩٦)	
١٠.	{أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا	السجدة	(٢٧)	

	يُبْصِرُونَ}			
.١١	{قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ}	سبأ	(٤١)	
.١٢	قال تعالى: (قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىَ نِعَاجِهِ وَإِنّ كَثِيراً مّنَ الْخُلَطَآءِ لَيَبْغِيَ بَعْضُهُمْ عَلَىَ بَعْضٍ إِلاّ الّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مّا هُمْ وَظَنّ دَاوُودُ أَنّمَا فَتَنّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبّهُ وَخَرّ رَاكِعاً وَأَنَابَ)	ص	(٢٤)	
.١٣	{أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ}	الزمر	(٣)	
.١٤	{وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ }	التكوير	(٨) - (٩)	
.١٥	{وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا }	العاديات	(١) – (٢)	
.١٦	{وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ * وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ }	الحجر	(١٩) - (٢٠)	
.١٧	{وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ}	الحجر	(٢٢)	
.١٨	{وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ }	النحل	(٦) - (٧)	
.١٩	{وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالْنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ }	النحل	(١٢)	
.٢٠	{وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ }	النحل	(١٦)	
.٢١	{وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ}	النحل	(١٠٣)	
.٢٢	{وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا}	الإسراء	(٢٣)	

.٢٣	{قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى }	طـه	(٦٦)	
.٢٤	{وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ}	الحـج	(٢٦)	

*رتب هذه الآيات حسب ترتيب المصحف

ثانيا : فهرس الشواهد الشعرية :-

الرقم	النـــص	القائل	رقم الصفحة
١.	بعد عهد لنا ببرقة شيماء ...... ديارها الخلصاء	الحارث بن حلزة	٥٠
٢.	فلما أن تحمل أهل ليلى .... وبينهم الظباء	زهير	٦٣
٣.	وأذكروا حلف ذى المحجاز .... العهود والكفلاء	الحارث بن حلزة	٦٩-٧٩
٤.	أذنتنا ببينها أسماء .... يمل منه الثواء	الحارث بن حلزة	٧٦
٥.	بزفرف كأنها هقلة .... دويه سقاء	الحارث بن حلزة	١٥٢
٦.	ودويه لا يهتدى لفلاتها ... ولا ضوء ولا كوكب	أمرؤ القيس	٢٤
٧.	أبني زياد أنتم في قومكم ....أصل طيب	عمرو بن معد يكرب	٤٥
٨.	إذا ما إقتنصنا لم نخاتل بجنة..........الا أراكب	علقمة الفحل	٤٦
٩.	وبلدة لاترام خايفة...........................جوانبها	زهير بن أبي سلمي	٦١
١٠.	ويوم هو ادي أمره لشماله ....المطنب	لبيد بنربيعه	٦٧
١١.	ونحن أناس لاحجاز................ومن هو غالب	الاخنث التغلبي	٦٧
١٢.	وانقص كالدر يتبعه.......................تخاله طنباً	النابعه الذبياني	١٤٩
١٣.	إذا ماعزا الجيش حلق فوقهم............بعصائب	النابعه الذبياني	١٩٥
١٤.	ينادونني في السلم ياابن زبيبة ....ابن الاكايب	عنترة بن شداد	١٦٠
١٥.	فانك شمس والملوك كواكب......منهن كوكب	النابغة	١٧٥
١٦.	كأن مثار النقع فوق رؤوسنا ....كواكبه	بشار بن برد	١٧١
١٧.	كأن عيون الوحوش حول خبائنا .... يثقب	امرؤ القيس	١٦٦
١٨.	نالت بعاقبه وكان نوالها .... المباعد منصب	زهير	١٥٠
١٩.	وليت خيالاً منك ياعبلة طارقاً .... السواكب	عنترة	٢٠١
٢٠.	وغادرنا نصله في معركٍ .... كالمحتطب	عنترة	٢٦٧
٢١.	وحسام كلون الملح صافي حديده .... المنعت	الشنفرى	١٧٩
٢٢.	ومن يك مثلى ذا عيال ومقتراً .... كل مطرح	عروة بن الورد	١١٤
٢٣.	ولا يفارقني ما عشت ذو حقب ...... غير ملواح	عبيد الابرص	١٤٦
٢٤.	كل خليل كنت خاللته .... له واضحه	طرفه بن	١٥٣
٢٥.	قد نمت عني وبات البرق .... بمصباح	أوس بن حجر	١٧٧
٢٦.	أمنك أبيت الليل أرقمه .... الشام مصباح	ابو ذؤيب	١١٨

٢٧.	كأنما بين أعلاه وأسفله .... أو ضوء مصباح	أو س بن حجر	٢٠٧
٢٨.	وتيهاء مقفار يكاد .... بالطرف يمصح	ذو الرمة	٢٢
٢٩.	فجاءت كذود الخارجين .... صرادح	ذو الرمة	٢٥
٣٠.	فيحملها على المكروه همي .... الصحاحا	النابغة	٢٧
٣١.	بذلت لهن القول أنك واجد .... الكلام مليح	أبو ذؤيب الهزلى	٢٢١
٣٢.	وحسبت وقع سيوفنا .... بالطراف المشرج	الحارث بن حلزة	٢٦٧
٣٣.	ومدامة قرعتها وظبا .... ذعرت بمسحج	الحارث بن حلزة	٤٥
٣٤.	أنا الرجل الضرب الذي تعرفونه .... المتوقد	طرفة بن العبد	١١، ٦٢
٣٥.	أضحت قفاراً وأضحى أهلها ..... أخنى على لبد	النابغة الذبياني	١٨
٣٦.	أما الأحبة فالبيداء دونهم .... دونها بيد	المتنبي	١٩
٣٧.	إني اهتديت لركب طال سيرهم .... وإعقاد	عبيد الأبرص	٢١
٣٨.	سقى دار سعدى حيث حلت بها .... ربع فدفد	النابغة الذبياني	٢٣
٣٩.	يقول الدليل بها .... إرصادها	الأعشى	٣٠
٤٠.	أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى .... المتشدد	طرفة بن العبد	٣٥
٤١.	أفد الترحل غير أن ركبانا .... وكأن قد	النابغة الذبياني	٣٨ ، ٤٣
٤٢.	إذا الريح جاءت بالجهام تشله..القلاص الطرائد	عنترة بن شداد	٥٦
٤٣.	لخولة أطلال ببرقة ثمهد .... في ظاهر اليد	طرفة بن العبد	١٦٤
٤٤.	وما زال تشرابي الخمور ولذتي .... ومتلدى	طرفة	١٠٦،١٠٥
٤٥.	يا اسم أخت بني فزازة أنني .... غير مخلد	عامر بن الطفيل	١٢٠
٤٦.	وأني لأ مضى الهم عند إحتضاره ...... وتغتدى	طرفة	١٣٧
٤٧.	يا درامية بالعلياء فالسند .... سالف الأبد	النابغة الذبياني	٢٢٧
٤٨.	من وحش وجرة موشى أكارعه .... الفرد	النابغة	١٥٨
٤٩.	إذا رشقت قلبي سهام من الصد .... الدهر بالبعد	عنترة	٢١٠
٥٠.	سري ليل خيال من سليمى .... وأصحابي هجود	المرقش الأكبر	٢٠٠
٥١.	واحكم كحكم فتاة الحي .... وارد الثمد	النابغة	١٥٥
٥٢.	كم مهمة قفر بنفسي خضته .... بالأبحر	عنترة	٢٣
٥٣.	أبلغ بنى نوفل عنى فقد بلغت...لما جاءنى الخبر	هرم بن سنان	٤٢

٥٤.	قعيدك عمر الله هل تعلميننى .... أزاهرا	عروة بن الورد	٥٩
٥٥.	وأخذ مال عبلة بالمواضي .... قدري	عنترة	٨٥
٥٦.	ولم تحم أولاد الضباب كأنما .... ابكر	لبيد	٩٠
٥٧.	أتغدو يا كليب معي إذا ما .... أنجاه الفرار	المهلهل	٩١
٥٨.	لحى الله صعلوكا إذا جن ليله .... مجزر	عروة بن الورد	١١٣
٥٩.	وقد أراني ونعماً لا هيين بها .... بإمرار	النابغة	١١٩
٦٠.	قوم إذا إستنتج الأضياف .... النار	جرير	١٦٥
٦١.	وإن صخراً لتأتم الهداة به .... رأسه نار	الخنساء	١٩٩
٦٢.	ولولا سنان والحسام وهمتي ...... ولا نالها فخر	عنترة	٧٢
٦٣.	نبئت زرعة .... أوابد الأشعار	النابغة	١٧١
٦٤.	فشبهتم في الآل لما .... سفينا مقيراً	أمرؤ القيس	١٦١
٦٥.	وقتلي كمثل جزوع النخيل .... منهمر	الأعشى	١٦٥
٦٦.	كأن المدام وصوب الغمام .... ونشر القطر	أمرؤ القيس	١٦٦
٦٧.	بيضاء صحوتها .... كالعرارة	الأعشى	١٦٧
٦٨.	فان يك بالذنائب طال ليلى .... القصير	المهلهل	١٧٠
٦٩.	وفوارس كأوار حرم .... الذكور	المنخل اليشكرى	١٠٤
٧٠.	دعوتك يا كليب فلم تجبنى .... القفار	المهلهل	٢٦٥
٧١.	وإذا غزوت تحوم عقبان الفلا ....كل غضنفر	عنترة	٢٦٠
٧٢.	قطعت إلى معروفها منكراتها .... دامس	الأعشى	٦١
٧٣.	وقلت لمهرى والقنا يقرع القنا .... ناعس	عنترة	١٤٧
٧٤.	قل لمن يبكي على رسم درس ..... لو كان جلس	أبو نواس	٢١٥
٧٥.	وتسمع تزقاء من البوم حولنا .... النواقس	المرقش	١٥٥
٧٦.	تبوص وكم دونها من مهمة .... ولصوص	أمرؤ القيس	٢٠
٧٧.	ودو ككف المشترى غير أنه ... المراسيل واسع	دو الرمة	٢٦٠
٧٨.	والنفس راغبة إذا رغبتها .... تقنع	أبو ذؤيب الهزلى	١٢٧
٧٩.	ولئن فجع الزمان وريبه .... لمفجع	أبو ذؤيب الهزلى	١٩٥
٨٠.	أمن المنون وريبها تتوجع .... من يجزع	أبو ذؤيب الهزلى	٢٣٨

٨١.	فبت وكأني ساورتي ضئيلة .... السم ناقع	النابغة	٢٥٢
٨٢.	يسطت رابعة الحبل لنا .... ما اتسع	سويد	٢٥٠
٨٣.	فإنك كاليل الذي هو مدركي .... واسع	النابغة	١٧١
٨٤.	وبلدة يهرب الجواب دلجتها .... يبتغى الشيعا	الأعشى	٨
٨٥.	فكأن أطلال وباقي دمنة .... عليها الزخرف	بشر بن حازم	٣١
٨٦.	أنا إذا ما الغيم أمسى............ حرجف طرفة	طرفة	٥٦
٨٧.	وبيداء تيه تحرج العن .... صرماء سملق	زهير	١٩
٨٨.	وكم دون ليلى من عدو وبلدة .... الآل يبرق	الأعشى	٢٢
٨٩.	وخرق مخوف قد قطعت .... فوقه يترقرق	الأعشى	٤٤
٩٠.	بعثنا ربيئاً قبل ذلك مخملا .... ويتقى	أمرؤ القيس	٤٥
٩١.	فأتبعهم طرفي وقد حال دونهم .... شبرق	أمرؤ القيس	٦٢
٩٢.	قد جعل المبتغون الخير في .... أبوابه طرقاً	زهير	١٩٠
٩٣.	على لا حب مثل المجرة .... الأرض مهرق	زهير	٤٣
٩٤.	وجدنا السدر خواراً ضعيفاً .... منيته وثيق	المفضل النكرى	٢٦٠
٩٥.	يظل بموماة ويسمى بغيرها ..... ظهور المهالك	تأبط شراً	٢٢
٩٦.	فوق ذيمومة تقول .... الاجال	الأعشى	٢١
٩٧.	ترى بعر الأرام في عرصاتها .... فلفل	أمرؤ القيس	٢١
٩٨.	طواها إلى حيز ومها وأن ....حزنها ورمالها	ذو الرمة	٢٣
٩٩.	فكم كم كم ثم كم كم و كم كم .... لم امل	أمرؤ القيس	٢٣
١٠٠.	وتنوقه جدباء مهلكة .... فتل	أمرؤ القيس	٢٣
١٠١.	يهماء موشحة رفعت لعرضها .... أميالها	الأعشى	٢٥
١٠٢.	أمن آل ليلى عرفت الطلولا .... مثولا	زهير	٣١
١٠٣.	قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل .... فحومل	أمرؤ القيس	٣٣
١٠٤.	كأن وغاها حجرتيه وحوله .... القبائل نزل	الشقرى	٣٦
١٠٥.	فعن لنا سرب كأن نعاجه .... ملاء مزيل	لبيد	٣٨
١٠٦.	وقد اغتدى والطير في وكناتها .... الأوابد هيكل	القيس	٣٨
١٠٧.	فكلفتها وهماً كأن نحيزه .... بشيب مرجل	لبيد	٤٠

١٠٨.	كان دم الهاديات بنحره .... بشيب مرجل	أمرؤ القيس	٤٦
١٠٩.	وتحسب سلمى لا تزال كعهدنا ..... رس أو عال	أمرؤ القيس	٥١
١١٠.	أراد طفيل منع الماء زله .... لو عقل	معاوية بن	٨٣
١١١.	يركب الهول وحيداً .... للأقل	تأبط شراً	١١٥
١١٢.	كأن مشيتها من بيت .... لا ريث ولا عجل	الأعشى	٢١٠
١١٣.	يا عبل كم من غمرة باشرتها ... لعمرك تنجلى	عنترة	٢٤٨
١١٤.	إذا زل عنها السهم حنت كأنها .... وقعول	الشقرى	٢٦٨
١١٥.	قد أقطع الأرض هي قفر .... شملال	أمرؤ القيس	١٤٣
١١٦.	مكر مفر مقبل مدبر معاً .... من علٍ	أمرؤ القيس	٣٩
١١٧.	روافده تثنى الرداء تساندت .... الرملة المتهيل	الأعشى	١٥٩
١١٨.	سموت إليها بعد ما نام أهلها ..... حالاً على حال	أمرؤ القيس	١٨٧
١١٩.	تأتك أمامه إلا سؤلاً .... منها الوصالا	عمرو بن قمينة	٢٥٨
١٢٠.	قد عود الطير عادات وثقت بها .... كل مرتحل	مسلم بن الوليد	٢٦٠
١٢١.	كأن ثبيراً في عرانين .... مزمل	أمرؤ القيس	٢٤٨
١٢٢.	لعمرك ما في الأرض ضيق على .... يعقل	الشنفرى	١٢٢
١٢٣.	هل غادر الشعراء من متردم .... بعدتوهم	عنترة	٢
١٢٤.	وجارته إذا حلت إليه .... في السنام	لبيد	١١
١٢٥.	يا شاة ما قنص لمن حلت له .... لم تحرم	عنترة	١٢
١٢٦.	فمدافع الريان عرى رسمها ...... الوحى سلامها	لبيد	٣١
١٢٧.	شاقتك ظعن الحى .... تصر خيامها	لبيد	٣٤
١٢٨.	بانت سعاد وأمسى حبلها .... من أضما	النابغة	٣٧
١٢٩.	فمن مبلغ الأحلاف عنى رسالة ...... كل مقسم	هرم بن سنان	٤٢
١٣٠.	فدع ذا ولكن رب أرض متيهة ...... الليل أظلما	الأعشى	٤٥
١٣١.	حتى إذا يئس الرماة وأرسلو .... أعصامها	لبيد	٤٧
١٣٢.	غلب تشذر بالذخول كأنها .... أقدامها	لبيد	٤٨

١٣٣.	كيف المزار وقد تربع أهلها .... وأهلها بالغليم	عنترة	٤٩
١٣٤.	وقد علوت قنود الرحل يسفعنى .... مسموم	علقمة الفحل	٥٤
١٣٥.	وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم .... المرجم	زهير	٨٨
١٣٦.	إنا إذا التقت المجامع لم يزل .... جشامها	لبيد	٦٨
١٣٧.	جزى الله فتياناً على العوض أمطرت ...... بالدم	تأبط شراً	١١١
١٣٨.	ولقد ذكرتك والرماح نواهل .... من دمى	عنترة	١٩٠
١٣٩.	بل كلل ثاقبة للمال مهلكة .... ومذموم	علقمة الفحل	١٣١
١٤٠.	ومن يكن ذا فضل فيبخل بفضله .... ويذمم	زهير	١٣٠
١٤١.	عفت الديار محلها فمقامها .... فرجامها	لبيد	٤٩
١٤٢.	رأيت المنايا خبط عشواء من .... فيهرب	زهير	١٣١
١٤٣.	أو روضة أنفاً تضمن نبتها .... ليس بمعلم	عنترة	١٧١
١٤٤.	القائد الخيول منكوبا .... الزاهق الذهم	زهير	٢٨١
١٤٥.	أمن أم أوفى دمنة لم تكلم .... فالمتلثم	زهير	٤٩
١٤٦.	جادت عليها كل عين ثرة .... كالدرهم	عنترة	١٣٩
١٤٧.	يا دار عبلة بالجواء .... دار عبلة واسلمى	عنترة	٢٢٥
١٤٨.	فلا تكتمن الله ما في نفوسكم .... الله يعلم	زهير	١٢٩
١٤٩.	ولقد قطعت وصيلة مجرودة .... البوم	لبيد	١٣٩
١٥٠.	وبيداء قفر .... دائرات أجن	الاعشى	١٨
١٥١.	يقطعن أميال .... اللج بالسفن	هرم بن سنان	١٩
١٥٢.	وخرق كجوف العير .... الوجه حسان	أمرؤ القيس	٢٤
١٥٣.	وخرق بعيد قد .... المشى مزعان	أمرؤ القيس	٢٤
١٥٤.	قفى قبل التفرق .... وتخبرينا	عمرو بن كلثوم	٣٥
١٥٥.	متى ننقل .... لها طحين	عمرو بن كلثوم	٨١
١٥٦.	اسمعاني نغمة .... تطرباني	عنترة	٨٣

١٥٧.	ولكن إذا اغرنا .... حيث كانا	القطامى	٧١
١٥٨.	شددنا شدة .... والليث غضبان	الفند الزماني	٢٦٤
١٥٩.	نسمى ظالمين .... ظالمينا	عمرو بن كلثوم	٨٢

ثالثا : فهرس الأعلام:-

الرقم	العلم	رقم الصفحة
١.	ابن الأثير	٢٠١
٢.	ابن رشيق	٢٢٦
٣.	ابن زيدون	٢٢٥
٤.	ابن سنان	٢١٣
٥.	ابن طباطبا العلوي	١٢٠
٦.	ابن قتيبة	٢٢٦
٧.	ابن منظور	٣٠
٨.	أبو الحصين	٣١
٩.	أبو ذؤيب	٢٧٣
١٠.	أبو زيد	٢٥
١١.	أبو عبيدة	٨٩
١٢.	أبو نواس	٢٠٩
١٣.	أبو هلال العسكري	٢٩
١٤.	الأخطل	١٢٥
١٥.	الأخفش	٢٨٠
١٦.	أسماء	١٠١
١٧.	الأسود بن المنذر	١٤٢
١٨.	الأسود بن يعفر	٢٤٩
١٩.	الأعشى	٢٥٤
٢٠.	أمرؤ القيس	٩٦
٢١.	أوس بن حجر	٢٧٠
٢٢.	بسطام بن قيس	٨٧
٢٣.	البسوس	٨٩
٢٤.	الجاحظ	٤٥
٢٥.	جرير	٢٤
٢٦.	جساس	٩٠
٢٧.	حاتم الطائي	١٢٠
٢٨.	الحارث بن أبي بشر الغساني	٧٧
٢٩.	الحارث بن حلزة	٤٥
٣٠.	الحارث بن وعلة	٩١
٣١.	حبيب بن نصر	٩٩
٣٢.	الحجاج بن يوسف	٥٥
٣٣.	حسان بن ثابت	٤٦

٣٤.	الحصن بن الحمام	٨٤
٣٥.	الخليل بن أحمد	٢٧٧
٣٦.	الخنساء	٩٩
٣٧.	دريد بن الصمة	٨٦
٣٨.	دو همان	٢٣٧
٣٩.	ذو الرمة	٢٠
٤٠.	زكي المحاسني	٨٢
٤١.	زهير	٨٤
٤٢.	زيد الخيل	٩٣
٤٣.	ساس	٧٧
٤٤.	سعاد	٧٣
٤٥.	سلمى	١١١
٤٦.	سليمي	٢٠١
٤٧.	سويد	٤٥
٤٨.	الشنفري	٣٦
٤٩.	صخر	١١٠
٥٠.	طرفة	١٠٤
٥١.	طفيل الغنوي	١٨١
٥٢.	عامر بن الطفيل	٨٧
٥٣.	عبد القاهر الحرجاني	٣٣
٥٤.	عبلة	١٩
٥٥.	عبد بن قيس	١٧٩
٥٦.	عبيد الأبرص	١٠٥
٥٧.	عروة بن الورد	٩٥
٥٨.	علقمة الفحل	٧٧
٥٩.	العماد الأصفهاني	٥
٦٠.	عمرو بن العلا	٧٤
٦١.	عمرو بن كلثوم	٨٨
٦٢.	عمرو بن معد يكرب	٧٨
٦٣.	عمرو بن هند	٤٢
٦٤.	عنترة	٨٥
٦٥.	القطامي	٨٣
٦٦.	قيس بن معد يكرب	٢٠٣
٦٧.	كسري	٧٣
٦٨.	كليب	٨٩
٦٩.	لبيد	٩٠

٧٠.	المبرد	٣٩
٧١.	المتنبى	٤٠
٧٢.	مجنون ليلي	٩٩
٧٣.	المحلق	٩٨
٧٤.	المرقش الأكبر	٢٠٠
٧٥.	مسلم بن وليد	٢٦٠
٧٦.	معاويه بن دومان	٨٣
٧٧.	المنخل اليشكري	١٢٥
٧٨.	المنذر الاكبر	٧٧
٧٩.	المنذر بن ماء السماء	٥٥
٨٠.	المتبني	١٩
٨١.	المهلهل بن ربعه	٢١٣
٨٢.	النابغه	١٦
٨٣.	نعم	٨٦
٨٤.	النعمان بن الحارث	٧٣
٨٥.	النعمان بن المنذر	٥٠
٨٦.	هرم بن سنان	٤٢
٨٧.	هريره	١٦٨

*رتب هذا الفهرس هجائياً بعد حذف ابن – أبو– ال

رابعا : فهرس البلدان :-

الرقم	البلـــــد	رقم الصفحة
١.	أعناق	٥٠
٢.	أفريقيا	٧
٣.	الاندريا	٣٠
٤.	البحر الهندي	٦
٥.	بحر فارس	٦
٦.	البحرين	٧
٧.	البدي	٤٨
٨.	برقة ثمهمد	٥٠
٩.	بيشة	٤٩
١٠.	تهامة	٧
١١.	الثلبوت	٤٨
١٢.	جبال الحجاز	٥١
١٣.	جبال السراة	١
١٤.	جزيرة العرب	١٦
١٥.	الجواء	٤٨
١٦.	الحجاز	٥١
١٧.	حومانة الدراج	٩
١٨.	حومل	٨٠،٣
١٩.	خليج السويس	٧
٢٠.	دار جلجل	٤٨
٢١.	دجلة	٦
٢٢.	الدحر ضان	٥٠
٢٣.	الدخول	٣٠
٢٤.	دمشق	٦
٢٥.	ذات الحرمل	٥١
٢٦.	رحام	٥٠
٢٧.	الريان	٤٩
٢٨.	شهلان	٥١
٢٩.	الشام	٥٠
٣٠.	شخصان	٥١
٣١.	الصفاح	٥٠

.٣٢	الصمان	٥١
.٣٣	صنعاء	٥٠
.٣٤	ضارج	٣٨
.٣٥	عاذب	٥٠
.٣٦	عالج	١٥٠
.٣٧	عدن	٦
.٣٨	العذيب	٩
.٣٩	العراق	٧
.٤٠	العقيق	٥١
.٤١	عمان	٧
.٤٢	عنيزتان	٤٩
.٤٣	الغبيط	٤٩
.٤٤	غول	٤٩
.٤٥	الغيلم	٤٩
.٤٦	فتاق	٤٨
.٤٧	الفرات	٦
.٤٨	القفال	٥١
.٤٩	الكيلك	٥٠
.٥٠	المتثلم	٤٩
.٥١	المحياة	٥٠
.٥٢	مدافع الريان	٥١
.٥٣	المذاب	٤٩
.٥٤	المقراة	٥٠
.٥٥	مني	٤٩
.٥٦	نجد	٤٩
.٥٧	نهر النيل	٦
.٥٨	وادي الخزامي	٥١
.٥٩	الوفاء	٥٠
.٦٠	اليمن	٧

*رتب هذا الفهرس هجائياً بعد حذف ابن – أبو– ال

فهرس المصادر والمراجع

القران الكريم

١ الإحساس بالزمان في الشعر العربي : على الفيضــاوى ، منشــورات كليــة الآداب بمثوبة تونس ، ٢٠٠١ م .

٢ الأدب الجاهلي قضاياه أعلامه فنونه ، د . غازي طليمات ، عرمان الأشــقر دار الفكر المعاصر ، دمشق سوريا ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٢ م .

٣ أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام حياتهم وآثارهم ، بطرس البســتاني طبعة منقحة ، ، دار نظير عبود ، طبعة ١٩٨٦ م

٤ أساس البلاغة إبن عمر الزمخشرى ، دار صادر بيروت ، الطبعــة الاولــى ١٩٩٢ م

٥ الأصمعيات أبى سعيد عبد الملك بن قريب عبدالملك الأعصــمى ، تحقيــق وشرح أحمد محمد شاكر عبد السلام محمد هارون ، الطبعــة الثالثــة ، دار المعارف بمصر ، بدون

٦ الاصول الفنية للشعر الجاهلى ، د . سعد اسماعيل شلبى ، القاهرة ، مكتبــة غريب ، طبعة ١٩٧٧ م

٧ الاطلال فى الشعر العربى دراسة جمالية : محمد عبــد الواحــد حجــازى ، الطبعة الاولى ٢٠٠٢ م الناشر دار الوفاء للطباعة والنشر .

٨ الاعلام ، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العــرب والمســتعربين والمستشرقين ، خير الدين الزركلى الطبعة العاشــرة ، بيــروت دار العلــم للملايين ١٩٩٢ م

٩ الاغانى : أبو الفرج الأصفهانى ، طبعة جديدة منقحة ، شرح وكتب هوامشه الاستاذ سمير جابر ، دار الكتب العالمية بيروت ١٩٩٢ م .

١٠ الامالى : تأليف أبى على اسماعيل القاسم القالى البغدادى ، منشورات محمــد على بيوضون ، دار الكتب العالمية بيروت لبنان ٢٠٠٢ م

١١ أنباء الرواة على أنباء النحاة ، الوزير جمال الدين أبى الحسن على بن يوسف تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، الطبعة الأولى ، القاهرة مطبعة دار الكتب العلمية المصرية ١٩٥٢ م

- رتب هذا الفهرس هجائيا بعد حذف كلمة أبو ــ ال

١٢ أيام العرب فى الجاهلية : تأليف محمد أحمد جاد المولى وعلى حمد البجاوى ومحمد احمد ابو الفضل ابراهيم ، بدون

١٣ بحوث في الأدب الجاهلي : الأستاذ إبراهيم أبو الخشب ، د . أحمد عبد المنعم البهيسى ، الطبعة الأولى ١٩٦١ م مطبعة لجنة البيان العربي .

١٤ بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة ، جلال الدين عبد الرحمن بن ابى بكر السيوطى المتوفى ٩١١ هـ ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم بيروت المكتبة العصرية . بدون .

١٥ بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب ، تأليف السيد محمد شكرى الألوسى عنى بشرحه وتصحيحه وطبعه محمد بهجة الأثرى ، دار الفكر العالمية بدون.

١٦ البيان والتبيين ، الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، مطبعة المدنى ، الطبعة الخامسة ، القاهرة ١٩٨٥ م

١٧ تاج العروس للإمام اللغوى السيد محمد مرتضى الذبيدى ، دار صادر بيروت بدون.

١٨ تاريخ الادب العربى : د . أحمد الحسن ألفه بالامانية ، كارل بروكلمان ، أشرف على الترجمة محمود فهمى حجازى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٣ م

١٩ تاريخ الادب العربى ،د . أحمد حسن الزيات ، مكتبة النهضة العربية ١٩٧٠م

٢٠ تاريخ الادب العربى العصر الجاهلى ، د . ريجيس بلاشير ، ترجمه د.إبراهيم الكيلانى دار الفكر دمشق بدون .

٢١ تاريخ الأدب العربي حنا الفاخورى بيروت ، لبنان ، بدون .

٢٢ تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام ، د . نورى حمودى القيسي مصطفى عبد اللطيف ١٩٧٩ م ، دار الحرية بغداد .

٢٣ تاريخ العرب قبل الإسلام ، د . السيد عبد العزيز سالم ، الناشر مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية بدون .

٢٤ التصوير الفنى فى القران ، سيد قطب ، الطبعة السابعة بيروت دار الشروق ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٢ م

٢٥ التفسير النفسى للأدب ، تأليف د . عز الدين اسماعيل ، الناشر مكتبة غريب العامة الطبعة الرابعة ١٩٦٣ م .

٢٦ التقليد والتجديد فى الشعر العباسى ، د . سلام مصيلحى عبدالله ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ١٩٩١ م

٢٧ تهذيب تاريخ دمشق الكبير ، ابى القاسم على بن الحسن بن هبةالله شافعى المعروف بإبن عساكر هذبه الشيخ عبدالقادر بدران المتوفى ٣٤٦ هـ الطبعة الثالثة ، بيروت دار احياء التراث العربى ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م .

٢٨ تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان ، للامام العلامة عبد الرحمن بن ناصر ، دار الحديث القاهرة ، طبعة ٢٠٠٥ م

٢٩ جمهرة أشعار العرب فى الجاهلية والاسلام ابى زيد القرشى ، حققه وضبطه وزاد فى شرحه على محمد البجاوى ، بدون

٣٠ جمهرة خطب العرب فى العصور العربية الزاهرة العصر الأموى ، تأليف أحمد زكى صفوت ، الطبعة الاولى ، ١٩٣٣ م شركة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى واولاده بمصر .

٣١ الحماسة تأليف ابى عبادة بن عبيد البحترى ، الناشر دار الكتاب العربى بيروت ، ضبطه وفهرسه الأب لويس شيخو الطبعة الثانية ، ١٩٦٧ م

٣٢ الحياة الادبية فى العصر الجاهلى د . أحمد محمد الحوفى ، الطبعة الرابعة مكتبة نهضة مصر ، بيروت بدون .

٣٣ الحياة العربية فى العصر الجاهلى د . أحمد محمد الحوفى ، الطبعة الاولى ١٣٦٨هـ ١٩٤٩ م .

٣٤ الحياة العربية من الشعر الجاهلى ، د أحمد محمد الحوفى ، دار النهضة للطباعة والنشر الفجالة القاهرة الطبعة الخامسة، بدون .

٣٥ الحيوان ، عمرو بن بحر (الجاحظ) تحقيق عبد السلام محمد هارون ، مطبعة البابى الحلبى القاهرة ، بدون ٠

٣٦ الخطاب البداعى الجاهلى والصورة الفنية ، تأليف عبد الإله الصائغ ، الطبعة الاولى ١٩٩٧ م ،المركز الثقافى العربى .

٣٧ دائرة المعارف ، قاموس عام لكل فن ومطلب فؤاد احزام البستانى ، بيروت لبنان ١٩٦٢ م .

٣٨ دراسات فى الشعر الجاهلى ، د . يوسف خليف ، دار غريب للطباعة والنشر القاهرة، بدون.
٣٩ دلائل الاعجاز : تأليف الشيخ الامام ابى بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الرجانى اللغوى قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر ، الناشر مطبعة المدنى بجدة ، الطبعة الثالثة ١٩٩٢ م
٤٠ ديوان ابن زيدون ، حققه وبوبه وشرحه وضبط بالشكل أبياته حنا الفاخورى دار الجيل بيروت ، بدون
٤١ ديوان أبى الطيب المتنبي ، بشرح أبى البقاء العكبرى المسمى بالتبيان فى شرح الديوان ، ضبطه وصححه مصطفى السقا إبراهيم الإبيارى ، الناشر دار المعرفة بيروت لبنان ١٩٧٨ م .
٤٢ ديوان ابى نواس ، دار صادر بيروت ، بدون
٤٣ ديوان الأخطل ، تقديم وشرح كارين صادر ، دار صادر بيروت ، الطبعة الاولى ١٩٩٩ م .
٤٤ ديوان الاعشى الكبير ، ميمون بن قيس ، شرح وتعليق الدكتور محمد محمد حسين ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ١٩٧٢.
٤٥ ديوان جرير ، طبعة دار الكتاب اللبنانى ، بدون .
٤٦ ديوان الحارث بن حلزة ، جمعه وشرحه وحققه د . أمين بديع يعقوب ، الناشر دار الكتاب العربى الطبعة الاولى ١٩٩١ م
٤٧ ديوان الحماسة لأبى تمام ، تحقيق الدكتور عبد المنعم أحمد صالح ، دار الجيل بيروت الطبعة الاولى ٢٠٠٢ م
٤٨ دوريات : مجلة كلية الاداب ، جامعة الملك سعود ، د . عدنان حسين قاسم المجلد الثالث عشر ، العدد الاول ١٩٨٦ م .
٤٩ ديوان الحماسة لابى تمام حبيب الطائى ، شرح العلامة التبريزى علق عليه وراجعه محمد عبد المنعم خفاجي ، الطبعة الثانية ، ١٩٥٥ م طبعه محمد على صبيح .
٥٠ ديوان الخنساء ، تقديم وشرح وتعليق د . محمد محمود دار الفكر اللبنانى بيروت الطبعة الاولى ١٩٩٨ م
٥١ ديوان الخنساء، دراسة وتحقيق ابراهيم عوضين ، الطبعة الاولى ١٩٨٥ م

٥٢ ديوان الراعى النميرى ، شرح د. واضح الصـمد ، دار الجيـل بيـروت ، الطبعة الاولى الاولى ١٩٩٥ م
٥٣ ديوان السليك بن السلكة ، اعداد وتقديم طلال حرب ، دار صـادر للطباعـة والنشر بيروت الطبعة الاولى ١٩٩٦ م
٥٤ ديوان الشنفرى ، اعداد وتقديم طلال حرب ، دار صادر بيـروت ، الطبعـة الاولى ١٩٩٦ م
٥٥ ديوان المرقش الاكبر : عوف بن سعد بن مالك المتوفى نحو ٧٠ قبل الهجرة تحقيق نورى حمودى القيسى ، الرياض ١٣٩٠ هـ
٥٦ ديوان النابغة الذبيانى ، صنعه بن السكيت ، تحقيق الدكتور شكرى فيصل دار الفكر ، الطبعة الثانية ١٩٩٠م
٥٧ ديوان الهذليين ، ابى ذؤيب الهذلى ، القاهرة دار الكتب المصرية ١٩٥٢ م
٥٨ ديوان إمرئ القيس ، ضبطه وصححه وحققه الأستاذ مصـطفى عبدالشـافى منشورات محمد على دار الكتاب العالمية بيروت لبنـان الطبعـة الخامسـة ٢٠٠٤ م
٥٩ ديوان أوس بن حجر ، تحقيق وشرح د . محمد يوسـف نجـم دار صـادر بيروت ١٩٦٠ م
٦٠ ديوان بشار بن برد ، شرح حسين حمودى ، دار الجيل بيـروت ، الطبعـة الاولى ١٩٩٦ م
٦١ ديوان حاتم الطائى ، منشورات دار مكتبة الهلال بيـروت الطبعـة الثانيـة ١٩٨٦ م
٦٢ ديوان حسان بن ثابت ، دار صادر بيروت ، بدون ٠
٦٣ ديوان زهير بن أبي سلمى ، صنعه أبى العباس ثعلب ، قـدم لـه ووضـح هوامشه وفهارسه د. حنا نصر الحتى ، دار الكتاب العربى ٢٠٠٤ م .
٦٤ ديوان ذي الرمة غيلان بن عقبة الغنوى ، عنى بتصحيحه كارليـل هنـرى هبس ، عالم الكتب، بدون ٠
٦٥ ديوان طرفه بن العبد البكرى ، شرح يوسف الاعلم ، بيـروت دار صـادر ١٩٠٠م.

٦٦ ديوان عامر بن الطفيل ، رواية أبى بكر محمد بن القاسم الانبارى عن أبـــى العباس احمد بن يحي ثعلب ، دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٧٩م
٦٧ ديوان عبيد الابرص ،دار صادر صادر للطباعة والنشر بيروت ١٩٥٨م
٦٨ ديوان عروة بن الورد ، جمع وشرح كرم البستانى ،دار صادر بيروت ،بدون
٦٩ ديوان عروة بن حزام ، تحقيق إبراهيم السامرائى وأحمد مطلوب ، مطبعـــة بغداد ،١٣٧٩هـــ١٩٦٠
٧٠ ديوان علقمة الفحل ، تحقيق مفتى صقال ، ودرية الخطاب الطبعة الاولى دار الكتاب العربى حلب ، ١٩٦٩م .
٧١ ديوان عمرو بن براق ، إعداد وتقديم طلال حرب دار صادر للطباعة والنشر بيروت الطبعة الأولى ١٩٩٦ م
٧٢ ديوان عمرو بن قميئة : شرح حسنى كامل الصيرفى ، مطـــابع دار الكتـــاب العربي ، بدون
٧٣ ديوان عنترة بن شداد ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنـــان الطبعـــة الثالثـــة ٢٠٠٢ م .
٧٤ ديوان لبيد بن أبى ربيعة ، دار صادر بيروت ١٩٩٦ م
٧٥ ديوان مجنون ليلى ، تقديم وشرح وتعليق د . محمـــد محمـــود ، دار الفكـــر اللبناني الطبعة الأولى ١٩٩٩ م .
٧٦ الرحلة فى القصيدة الجاهلية ، د وهب رومية مؤسسة الرسالة الطبعة الثالثـــة ١٩٨٢ م
٧٧ الرحيق المختوم ، تأليف صفى الرحمن المباركفورى ، دار الوفاء للطباعـــة والنشر والتوزيع المنصورة ، الطبعة السابعة عشر ٢٠٠٥ م
٧٨ السيرة النبوية لابن هشام ، قدم لها وعلق عليها وضبطها طه عبد الـــروؤف سعد دار الجيل بيروت ١٩٧٥م
٧٩ شاعرات العرب ، جمع وتحقيق عبد البديع صقر منشورات المكتب الاسلامى الطبعة الاولى ١٩٦٧م .
٨٠ شرح اشعار الهذليين ، صنعه ابى سعيد حسن بن الحسن السكرى حققه عبـــد الستار احمد فراج ، راجعه محمود محمد شاكر ، بدون.

٨١ شرح القصائد العشر : تأليف ابى زكريا بن على بن اسماعيل بن الحسن محمد بن موسى الشيبانى المعروف بالخطيب التبريزى ، حقق أصوله غرائبه وعلق حواشيه محمد محى الدين عبد الحميد ، الناشر مكتبة محمد على صبيح واولاده ، ميدان الازهر مصر ، الطبعة الاولى ١٩٦٢ م

٨٢ شرح ديوان صريع الغوانى ، مسلم بن الوليد الانصارى عنى بتحقيقه والتعليق عليه د. سامى الدهان ، دار المعارف بمصر

٨٣ شعر الحرب : على الجندى المكتبة الأنجلومصرية ، ١٩٦٣ م

٨٤ شعر الحرب فى ادب العرب ، زكى المحاسنى ، دار المعارف بمصر ، بدون.

٨٥ الشعر العربى المعاصر : قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية ، د. عز الدين اسماعيل الطبعة الثالثة ١٩٧٢ م

٨٦ شعر اللهو والخمر تاريخه ، اعلامه ، جورج غريب ، دار النعامة بيروت لبنان بدون .

٨٧ شعر الهذليين فى العصرين الجاهلى والاسلامى ، تأليف د . أحمد كمال زكى دار الكاتب العربى للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٩

٨٨ الشعر والشعراء ، محمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، طبعه وحققه وفهرسه قسم وتوزيع دار الثقافة بيروت لبنان ١٩٦٤ م

٨٩ الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى ، د يوسف خليف دار المعارف بمصر ، بدون

٩٠ شعراء النصرانية قبل الاسلام ، جمعه ونسقه الاب لويس شيخو اليسوعى الطبعة الثانية ، دار النشر بيروت ، بدون .

٩١ الصورة الفنية فى التراث النقدى والبلاغى عند العرب ، د جابر المنصورى طبعة ١٩٨٣ م

٩٢ الطبيعة فى الشعر الجاهلى ، د . نورى حمودى القيسى ، مكتبة النهضة العربية ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٤ م .

٩٣ العصر الجاهلى ، د . شوقى ضيف ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٦ م .

٩٤ العقد الفريد،تأليف الفقيه احمد بن محمد بن عبد ربه الاندلسى ، تحقيق الدكتور محمد قميحة،دار الكتب العلمية بيروت،لبنان، الطبعة الاولى ١٩٨٢م.

٩٥ عقلمة بن عبده الفحل ، تاليف عبد الرازق حسن ، المكتب الاسلامى بيروت الطبعة الاولى ، ١٩٨٦ م

٩٦ العمدة فى محاسن الشعر وادابه ، تصنيف ابى على الحسن بن رشيق القيروانى مطبعة حجازى القاهرة ، الطبعة الاولة ١٩٣٤ م .

٩٧ عناصر الابداع الفنى فى شعر عنترة ، د. ناهد احمد السيد الشعراوى ، دار المعرفة الجامعية ١٩٩٦ م .

٩٨ عيار الشعر ، ابن طباطبا العلوى ، تحقيق د. طه الحاجرى ، د . محمد زغلول سلام ، المكتبة التجارية القاهرة ، ١٩٥٦ م .

٩٩ الغزل في العصر الجاهلي ،د. احمد الحوفى ، مكتبة نهضة مصر القاهرة ١٩٥٨م.

١٠٠ فن الوصف في الشعر الجاهلي ، د . على احمد الخطيب ، الدار المصرية اللبنانية بدون .

١٠١ الفن ومذاهبه في الشعر العربى ، د. شوقى ضيف ، دار المعارف مصر ١٩٥٦ م .

١٠٢ فى الادب العربى القديم عصوره واتجاهاته وتطوره ، د. محمد صالح الشنقيطى ، دار الاندلس للنشر والتوزيع ، حائل الطبعة الثالثة ١٤٢٤ هـ.

١٠٣ فى صحبة الادب القديم ، د . احمد محمد الحوفى ، شركة نهضة مصر للطباعة والنشر ، بدون .

١٠٤ فى ظلال القران ، سيد قطب ، طبعة ١٩٩٦ م ، دار الشروق القاهرة .

١٠٥ فى مراة الشعر الجاهلى ، د . فتحى احمد عامر مطبعة دار الشروق ، بيروت لبنان ١٩٧٧ م

١٠٦ القاموس المحيط ، محى الدين بن يعقوب الفيروز ابادى ، دار الجيل بيروت .

١٠٧ قراءة فى الادب القديم ، د. محمد ابو موسى ، الطبعة الاولى، ١٩٧٨ م، دار الفكر العربى .

١٠٨ قصة الادب فى الحجاز فى العصر الجاهلى ، تاليف عبدالله عبد الجبار محمد عبد المنعم خفاجى ، الناشر مكتبة الكليات الازهرية ،١٩٨٠ .

١٠٩ قصيدة المديح فى الاندلس قضاياها الموضوعية والفنية ، عصر الطوائف ، د. اشراف محمود نجا ، دار المعرفة الجامعية ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٨ م

١١٠ القيان والغناء فى العصر الجاهلى ، د . ناصر الدين الاسد ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية ،١٩٦٨ م

١١١ كتاب الاصنام : عن بن المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبى تحقيق الاستاذ احمد زكى ، نسخة مصورة من نسخة دار الكتب .١٩٥٤ م

١١٢ كتاب الصناعتين للكتابة والشعر ، تصنيف ابى هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكرى حققه وضبطه الدكتور مفيد قميحة ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الثانية ١٩٨٦ م

١١٣ كتاب الوافى بالوفيات ، صلاح الدين بن ايبك الصفدى المتوفى ٧٦٤هـ تحقيق احمد الارناؤوط وتركى مصطفى ، الطبعة الاولى ، بيروت دار احياء التراث العربى ، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م

١١٤ كتاب صورة الارض ،لابن حوقل ابى القاسم بن حوقل النصيبى ، منشورات دار مكتبة الحياة، لبنان ١٩٩٢ م .

١١٥ لامية العرب للشنفرى دراسة نقدية ابداعية ، د. محمد على ابو حمودة ، دار عمار للنشر والتوزيع الطبعة الثانية ٢٠٠١ م .

١١٦ لسان العرب للامام العلامة ابى الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الافريقى المصرى ، دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت .

١١٧ المؤتلف والمختلف ، ابا القاسم الحسن بن بشر بن يحى المتوفى ٣٧٠ هـ تحقيق عبد الستار احمد فرج ، القاهرة دار احياء التراث العربى ، طبعة ١٣٨١ هـ .

١١٨ المثل السائر : تأليف بن الاثير قدمه وحققه وعلق عليه الدكتور احمد الحوفى والدكتور بدوى طبانة ، الناشر دار النهضة بمصر الفجالة ١٩٦٠

١١٩ مجموع أشعار العرب ، د . عبد الملك بن قريب الاصمعى ، تحقيق وليم بن الورد ، بيروت دار الأوقاف ١٩٨١ م .

١٢٠ المخصص ، تأليف أبى الحسن على بن اسماعيل النحوى اللغوى الاندلسى المعروف بإبن سيدة ، المكتب التجارى دار صادر بيروت .

١٢١ مراة الجنان وعبرة اليقظان فى معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان ، لليافعى أبو محمد عبد الله بن أسعد بن سليمان ، الطبعة الثانية ، بيــروت مؤسســة الأعلى للمطبوعات ، ١٣٩٠ هــ – ١٩٧٠ م
١٢٢ المرشد الى فهم اشعار العرب وصناعاتها ، د . عبد الله الطيــب ، مطبعــة جامعة الخرطوم للنشر ، الطبعة الرابعة ، ١٩٩١ م .
١٢٣ مروج الذهب لابى الحسن على بن الحسين المسعودى تحقيق محمــد محــى الدين عبد الحميد ، دار الفكر ، الطبعة الخامسة ، ١٩٧٢ م .
١٢٤ مشكلة السرقات فى النقد الأدبى : تأليف الدكتور محمــد مصــطفى هــداره الطبعة الثالثة ١٩٨١ م ، المكتب الاسلامى بيروت.
١٢٥ مصادر الشعر الجاهلى وقيمتها التاريخية ، د . ناصر الدين الأسد ، طبعــة ١٩٥٦ م ، دار المعارف مصر .
١٢٦ المطر فى الشعر الجاهلى ، د . أنور أبو سويلم ، دار عمار عمان ، الطبعــة الاولى ١٩٨٧ م
١٢٧ المعانى الكبير فى ابيات المعانى ، لأبى محمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبــة الدينورى ، دار الكتب العلمية ، بيروت الطبعة الاولى ١٩٨٤ م
١٢٨ معاهد التنصيص على شواهد التلخيص ، للشيخ عبد الــرحيم بــن العبــاس المتوفى ٩٦٣ هــ – ١٩٤٧ م .
١٢٩ معجم المؤلفين تراجم مصنفى الكتب العربية ، عمر رضا كحالــة ، الطبعــة الاولى ، بيروت مؤسسة الرسالة ١٩٩٣ م .
١٣٠ معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، تأليف عمر رضا كحالة ، دار العلم للملايين ، بيروت الطبعة الثانية ١٩٦٨ م ٠
١٣١ معجم مقاييس اللغة ، أبى الحسن أحمد بن فارس زكريا ، تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون ، دار الجيل بيروت ، الطبعة الاولى .
١٣٢ المفضل فى تاريخ العرب قبل الاسلام ، د . جواد على ، دار العلم للملايــين بيروت ، الطبعة الثالثة ١٩٨٠ م .
١٣٣ المفضليات : المفضل الضبى كلية إكسفورد بيروت ١٩٢٠ م
١٣٤ مقدمة ابن خلدون للعلامة عبد الرحمن بن خلدون منشــورات محمــد علــى بيضون دار الكتب العلمية بيروت لبنان .

١٣٥ الملامح العامة لنظرية الادب الاسلامى ، د . الطاهر محمد على ، دار جامعة أمدرمان الإسلامية للطباعة والنشر ، الطبعة الاولى ١٩٨٤ م
١٣٦ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، جمال الدين أبى المحاسن يوسف بن تغريد ، بدون .
١٣٧ النقد الادبى : تأليف أحمد أمين مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الخامسة ١٩٨٣ م.
١٣٨ النقد الادبى الحديث : محمد غنيمى هلال ، الناشر دار النهضة العربية القاهرة الطبعة الرابعة ١٩٦٩ م
١٣٩ النقد الأدبى الحديث ، د . على جابر المنصورى ، دار عمار الطبعة الاولى بدون .
١٤٠ هدية العارفين اسماء المؤلفين واثار المصنفين ، لإسماعيل باما البغدادى ، طبعة إستانبول ١٩٥٥ م ، منشورات مكتبة المتنى بغداد .
١٤١ الهمدانيون شعر همدان واخبارهم جمع وتحقيق حسن ابو يسن طبع دار العلوم ، الرياض ١٩٨٣ م
١٤٢ وفيات الاعيان وانباء أبناء الزمان ، ابى العباس أحمد بن محمد بن ابراهيم بن ابى بكر بن خلكان ، تحقيق د . يوسف على طويل د . مريم قاسم طويل الطبعة الاولى ، بيروت ، دار الكتب العلمية ١٤١٩ هـ ١٩٩٨ م .
١٤٣ دوريات : مجلد كلية الاداب جامعة الملك سعود ، د٠عدنان حسين قاسم ٠ المجلد الثالث عشر ٠ العدد الاول ١٩٨٦م ٠

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	رقم الصفحة
١	البسملة	أ
٢	استهلال	ب
٣	إهداء	ج
٤	شكر وعرفان	د
٥	المقدمة	١
٦	التمهيد	٦
٧	**الباب الأول (بيئة ومدلول الصحراء)**	١٤
٨	الفصل الأول: اسم ومدلول الصحراء في اللغة والشعر	١٥
٩	الفصل الثاني: أهمية المكان عند البدوي في الصحراء	٢٨
١٠	الفصل الثالث: المناخ	٥٣
١١	**الباب الثاني (الحياة الاجتماعية في الصحراء)**	٦٤
١٢	الفصل الأول: القبيلة	٦٥
١٣	الفصل الثاني: الحروب	٨٠
	- صورة الموت والفناء في شعرهم	٩٣
١٤	الفصل الثالث: أسواق العرب في الصحراء	٩٧
	- الفخر في شعرهم	١٠٢
١٥	الفصل الرابع : شعر الصعاليك	١١٠
١٦	الفصل الخامس: الكرم والحكمة من شعرهم	١١٨
١٧	**الباب الثالث (طبيعة الصحراء في الشعر الجاهلي ومكوناتها)**	١٣٥
١٨	الفصل الأول: مفردات الصحراء في الشعر الجاهلي	١٣٦

١٩ المبحث الأول: الطبيعة المتحركة (الحية) ١٣٧

٢٠ المبحث الثاني: الطبيعة الساكنة (الصامتة) ١٥٧

٢١ الفصل الثاني : الأوصاف الحسية الخارجية للشعر في الصحراء ١٨٦

٢٢ الفصل الثالث : مدلول الوقفة الطللية في الصحراء ٢٠٢

٢٣ الفصل الرابع: الموقف النفسي للشاعر الجاهلي ٢١٠

٢٤ **الباب الرابع** (**مظاهر الصحراء في الخصائص الفنية للشعر الجاهلي**)

٢١٧

٢٥ الفصل الأول: البناء الفني للقصيدة الجاهلية في الصحراء ٢١٨

- خصائص القصيدة الشعرية في الصحراء ٢٢٩

٢٦ الفصل الثاني: أثر الصحراء في اللغة الشعرية ٢٣٦

٢٧ الفصل الثالث: الأسلوب – الخيال والتصوير ٢٤٦

٢٨ الفصل الرابع: المبحث الأول التشبيه والاستعارة ٢٦٥

المبحث الثاني الوزن والموسيقى ٢٧٦

٢٩ **الخاتمة والنتائج والتوصيات** ٢٨٣

٣٠ **الفهارس** ٢٩٠

٣١ فهرس الآيات القرآنية ٢٩١

٣٢ فهرس الشواهد الشعرية ٢٩٤

٣٣ فهرس الإعلام ٢٩٩

٣٤ فهرس البلدان ٣٠٣

٣٥ فهرس المصادر والمراجع ٣٠٦

٣٦ الفهرس العام للموضوعات ٣٠٧